د. عمرو عبد العزيز منير

الشرقية

ذاكرة الشوارع وحكايات المدن

صور ووثائق نادرة

الطبعة 2



مدرسة الزقازيق الابتدائية (فرقة الموسيق)

مركز نهر النيل للنشر والتوزيع

الشرقية

ذاكرة الشوارع وحكايات المدن

د. عمرو عبد العزيز منير

وكما يجرى نهر النيل جالبا الخير..

حاملا الحياة..

ناثرا الأمل..

يفتح مركز نهر النيل بابه..

عله يجرى نهرا من الإبداع..

تزدهر بفيضه أرض الكلمات..

لتظل بأشجارها جموع الباحثين

عن كنوز الفكر..

الكتاب: الشرقية (ذاكرة الشوارع وحكايات المدن)

الكاتب : د. عمرو عبد العزيز منير

الناشر: مركز نهر النيل للنشر

الطبعة العربية الثانية (مصر) ٢٠١٩

تصميم الغلاف: أمير عاشور

تنسيق: جمال فتحي

رقم الإيداع : 17595

الترقيم الدولى: 978-977-628293-3

مركز نهر النيل للنشر والتوزيع

ج.م.ع - الزقازيق - ص.ب ٨٥

موبايل وواتس آب: 002/01065449272

أرضي: 002/0552386969

e.mail: nhrelnile@yahoo.com

مركز نهر النيل للنشر: Facebook

مدير النشر والتوزيع: محمد هجرس

د. عمرو عبد العزيز منير

الشرقية

ذاكرة الشوارع وحكايات المدن

(صور ووثائق نادرة)



١٤٤١هـ/٢٠١٩م

وكما يجري نهر النيل جاليًا الخير .. حاملًا الحياة - ناثرًا الأمل - يفتح مركز نهر النيل بابه .. علّه يجري نهرًا من الإبداع .. تزدهر بفيضه أرض الكلمات .. لتظل بأشجارها جموع الباحثين عن كنوز الفكر ..

الكتاب: الشرقية .. ذاكرة الشوارع وحكايات المدن (صور ووثائق نادرة)

الكاتب : د. عمرو عبد العزيز منير

الناشر: مركز نهر النيل للنشر والتوزيع

الطبعة العربية الثانية (مصر) ٢٠١٩م

تصميم الغلاف: أمير عاشور

تنسيق: جمال فتحي

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

مركز نهر النيل للنشر والتوزيع

ج.م.ع - الزقازيق - ص.ب ٨٥

موبايل وواتس آب: 002/01065449272

أرضي: 002/0552386969

e.mail: nhrelnile@yahoo.com

مركز نهر النيل للنشر: Facebook

فتح الكلام

لكل مكان لغته الخاصة .. تمامًا كالبشر .. لكل لغته وكل واحد منا له لغة خاصة، والكثير من الأماكن تمنحك مفاتيحها قبل أن تزورها .. تستطيع أن تقرأها أن تكتبها أو أن تتخيلها وتصنع منها مكانًا روائيًّا كما لو كنت أحد أبنائها .. إلا الشرقية .. فأنا أعرفها منذ نعومة أظافري .. هنا دفنت مراهقتي وسنوات من شبابي .. ولي فيها من الأصدقاء ما يفوق عدد أصدقائي في بقية هذا العالم، وبالرغم من هذه العلاقة فإنني في كل مرة أزورها أردِّد هذا المقطع الجميل للشاعر البرتغالي الفارودي كامبوس:

سأكون ذلك الذي ينتظر

أمـــام جـــدار بلا بـاب

أن يفتحـــوا له البـــاب

عمرو



عتبة دخول

حراس البوابة الشرقية

✍ ترسم الشرقية ألوانها بفرشاتها الساحرة، تسكب الألوان البديعة، تنقش التفاصيل بإيقاع خيوطها العربية الأصيلة، تصور الأحداث وتخط الذكريات فتجسد لوحة ناطقة بتراثها الغني المفعم بالحياة فينساب الزمان كقبضة من الرمال وسط أرجاء الكون الفسيح، ألتفت للخلف لأناجي الماضي البعيد، أتلمس بصمات الأمس التي كانت وجودًا نابضًا وصارت اليوم ذكريات، تتحرر روحي من الزمان والمكان، أتخيل نفسي في عالم زال منذ وقت بعيد، أنفذ من زمن إلى زمن، يتمثل الماضي حيًّا تعود إليه الروح وتتفجر فيه نبضات الحياة فيتجلى سحره الغامض ويبوح بأسراره، تتراءى لقلبي الشوارع والمدن العتيقة في سالف الدهر أمضي في دروب الماضي التي لم أسلكها من قبل، أسمع نغمات غير مألوفة لسمعي، أري ديارًا وأطلالًا صفراء وأخرى بيضاء لا عهد لي بها، أخيرًا أجد نفسي أمام مكان يعرفه قلبي فأقف مشدوهًا مشدودًا، أجتاز قناطر الوالي الضخمة، أطوف بالشوارع المتعرجة لعلي أجد أثرًا للجاليات التي سكنت الجدران المتداعية التي ترك عليها الزمان آثاره هنا سكن الأرمن واليهود واليونان، والفرنسيون، والطليان والإنجليز، والروس، والألمان، البرتغال، والفرس، والعرب والسريان[1]، وكل الألوان الإنسانية الجذابة التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بأحيائها ومنشآتها، أجوب وسط المساجد والكنائس والمدارس، والمعاهد، والديار، والمشربيات المرتفعة، والقصور التي يسري صفو الهدوء في جوها فيمس وجداني حياة الناس البسيطة التي يفيض منها دفء المشاعر الإنسانية وتسحرني الروائح العطرية، أتنسم عبق الماضي، أتشرب بروحه فأذوب في عشق كل حجر ومبني

(١) ثابت وأنطاكي: دليل مصر والسودان، القاهرة ١٩٠٥م، ص٢٤٢.

ولوحة قديمة تحمل بصمات أهلها[1].

أقمت في عاصمتها الزقازيق العتيقة، ونسجت ملامحها في خيالي، حتىٰ صرت كأني أعيشها وكأن حلمي أصبح حقيقة، فأشعلت في نفسي حنينًا مضطرمًا وشوقًا جارفًا إلىٰ دفء الحياة القديمة، في قلب أحلامي تتلألأ كل الموجودات، تنبثق أضواء الشموع الخافتة، يخترق ضوؤها كياني فيذوب قلبي، وتنصهر روحي بين طيات شوارع وحواري وأزقة الشرقية، أجمع الصور المتبقية في ذاكرتي وأنا أتجاوز أسوار البيوت القديمة، تهمس لي الأحجار الضخمة، كل حجر يستدعي ذكرى معينة في نفسي، يتردد بداخلي صدى أصوات أهل الدار الذين طواهم الزمان، يوشك إيقاع الزمان أن يتوقف وأنا أتأمل ما تركه لنا أجدادنا، أصبح حنيني جارفًا إلىٰ تلك الأيام البعيدة التي بهتت معالمها لكنها تجعلني أنتشي بأحاسيس ظننت أنني طويتها للأبد[2].

هيا نتوغل في عالم وتراث الشرقية، ولنغص في أعماق عالم مليء بالقضايا الإنسانية التي يُتعامل معها في سياق فني محكم وببساطة وعمق آسرين وفي منطقة مهمة من مناطق التعرية لكل ما هو غامض وممتنع ينبش في الأعمق من هذا الخضم ليأتي بأسرار وحكايات شائقة وشائكة تنتظم، وهذا الواقع المرير واقع المجتمع السلبي إزاء قضاياه المتعاقبة والجامحة بزوايا منحرفة عن كل قيمة وأصل وجمال تمهيدًا لإعادة صياغة أخرىٰ لهذا الواقع المعاش بما يتماثل وأهمية الوجود الإنساني في كل الأحوال، من هنا تبدأ مشروعية وجود ذاكرة للوجدان

---

(١) لزم التنويه أن العديد من الصور بالكتاب الذي فوق راحة اليد الآن من الأرشيف الخاص للمؤلِّف وبعض الصور والوثائق إهداء من أرشيف الزملاء والأصدقاء أبرزهم د. عصمت النمر، وموفق بيومي؛ فضلًا عن الاستعانة بأرشيفات الجامعات الأسترالية والإنجليزية والأمريكية، وبعض الصفحات علىٰ مواقع التواصل الاجتماعي. ووجب الشكر لكل مَن مد يد العون والمساعدة بحب.

(٢) جيهان مأمون: من سيرة المماليك، القاهرة ٢٠١٢م، ص٥، ٦، ١٠ بتصرف.

الشرقاوي الشعبي التي لا تعني بالضرورة إجابة على سؤال مدهش بقدر ما ينبغي عليها أن تؤكد على طرح السؤال في لحظة إنسانية تكاد تكون مصيرية وفعالة لافتضاح الواقع وتعريته وبث معطيات جمالية تعيد للمجتمع الإنساني موقعه الأمثل ... بالتأكيد هي أحلام الغد البريئة التي يتردَّد همساتها في أعماق اللاممكن واللامتاح.

يقطع أفكاري صوت الراوي الشعبي في طريقه بين شوارع الزقازيق قديمًا فيفسح المارة الطريق، تعلو زغاريد النساء من فوق الأسطح وتمتلئ الطرق بالجموع المحتشدة ليسمعوا بشغف ملحمة الفلاح الشرقاوي (عناني عواد)[1] ابن كفور نجم الذي حمل لواء الثورة على الإقطاع وثار على الظلم ممثلًا في أعوان الأمير الإقطاعي (محمد علي) الذي كان يسيطر على أراضي (كفور نجم)، فثار مطالبًا بحقوق أهل قريته بعد أن ثارت في أعماقه كبرياء كل الفلاحين وعُوقِب بطرده ونفيه وتشريد أهله، ثم عاد ليوضع تحت المراقبة هو وخمسة من زملائه كالمجرمين والقتلة، ولكن ثورته لم تهدأ، فأعدوا له كمينًا في الفجر وقتلوه وهو خارج من نقطة البوليس، وشهد الشهود بذلك في التحقيقات التي كانت تجري آنذاك، ولكن عواد الذي لبى نداء الحرية ترك وراءه رمزًا لروح المقاومة

(١) تعاظمت حركة الفلاحين في الفترة من عام ١٩٤٨ حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وتجسدت في معارك الفلاحين ضد الظلم والسخرة في «بهوت وكفور نجم وساحل سليم وميت فضالة والسرو ودراوة والبداري ودرين وأبو الغيط..»، والعشرات من قرى مصر شمالًا وجنوبًا. واستشهد في هذه المعارك والانتفاضات الكثيرون من القيادات المناضلة من أجل حق الفلاح في الحياة، سواء من الأجراء ومعدمي وفقراء الفلاحين أو من أبنائهم المثقفين، أمثال الشهداء، عناني عواد وغازي أحمد والمحامي عبد الحميد الخطيب. وأدى الوعي التلقائي للفلاحين - المتزايد بقدر ما يعانونه من عسف واضطهاد - والذي ازداد إدراكًا وإصرارًا بزيادة الوطأة عليه خاصة في كهوف فقراء الفلاحين والأجراء بعد الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى قيام حركة نضالية فلاحية متسعة تستهدف استرداد حقوقهم الطبيعية في الأرض والكرامة والحياة الإنسانية. فتحي خليل: نضال الفلاحين، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص٥.

الشعبية عند الفلاح المصري[1] فكان نفسًا ذكية وملحمة بطولية تحولت إلى طاقة روحية تتوارثها الأجيال جيلًا بعد جيل تبعث كوامن الحياة ودوافع العمل في شعب كاد يفقد ثقته بنفسه وبالقدرة على النهوض.

وهكذا كان أبناء الشرقية متميزين كما كانت هي متميزة عبر التاريخ لدرجة أنه لم يستطع أحد أن ينكر دورهم ولا حتى دورها، فهم بها وهي بهم الحارس الأمين على المدخل الشرقي لمصر، بل معبرًا للداخل أو الخارج من الجهة الشرقية، وعبر الشرقية دخلت أفواج القادمين من شبه جزيرة العرب عن طريق فلسطين فسيناء ثم الشرقية، ومن بعد انتشروا في الدلتا والوجه القبلي[2]، وكانت الشرقية بحكم موقعها تواجه الصدمة الأولى في كل مراحل كفاحنا ضد الغزاة المغيرين من الشرق، كما كان لأبنائها شرف الدفاع عن أمهم الرؤوم (مصر)، من هنا كانت الخبرة طويلة لأنها خبرة تاريخ وحضارة وموقع مهم ومكانة منفردة على امتداد التاريخ وتنوع بيئي وسكاني، وبالتالي كان لهذا كله دور كبير وفعال في تشكيل وتلوين الأدب الشعبي الشرقاوي حتى في تعامله مع غير الإنسان من طير أو حيوان أو نبات أو جماد نرى فلسفته الخاصة التي تجعل من العالم الجزئي والكلي فلكًا واحدًا محوره التجربة الإنسانية الأم ... فكانت المادة الفلكلورية والحكايات والحواديت والأغاني والمواويل الشعبية عبارة عن فن يسترعي الانتباه ونصوص تورد عددًا من القِيَم والتي ساهمت بدورها في تمدين الشعب المنتمي

(١) فتحي خليل: نضال الفلاحين، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص٦٠-٨٠ بتصرف. وانظر: محمد مورو: الحركة الإسلامية في مصر، طبعة أولى، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٠١، ١٠٢. وانظر: أحمد خاطر، مقدمة ديوان فريد طه، ط ١، الزقازيق ١٩٩٩م بتصرف.

(٢) ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧م)، ص٣٣؛ جون ولسون: الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري، مكتبة النهضة، بدون تاريخ، ص٨٩، ص٢٥٩، ص٣١٠. وانظر: مختار السويفي: مصر والنيل في أربعة كتب عالمية، ط٣، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٦م، ص١١٢.

إلى أول أمة أسست أول دولة عرفها التاريخ نمت في نفسها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح، وبعدها كانت أول دولة بالمعنى السياسي المنظم تظهر على مسرح العالم[1].

رغم ما سبق فقد جاء حين من الدهر اضطربت فيه أحوال الشرقية[2] في عصر الاضمحلال الثاني أو العصر الوسيط الثاني (من نحو ١٧٨٥ق.م إلى ١٥٦٠ق.م)، وكان من نتيجة هذا الاضطراب هو احتلال مصر عسكريًّا عندما سال لعاب البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون في الصحاري والسهول الآسيوية بشرق البلاد ولهذا فقد ازدادت في البداية أعداد الوافدين والمتسللين من هؤلاء الرعاة، ثم جاءت بعدهم جحافل وقبائل متعددة، فرضت وجودها بالقوة العسكرية عام (١٧٢٥ق.م)، وهي جماعات أطلق عليهم اسم (حقاو - خاسوت) بمعنى (حكام الأقاليم الأجنبية)، وذلك للمرة الأولى في تاريخها، وهم الجماعات الذين اشتهروا في التاريخ باسم (الهكسوس)أو (الرؤساء الأجانب) أو (الملوك الرعاة) طبقًا للترجمة الحرفية لكلمة هكسوس. ليقيموا ما يقرب من ٢١٦ سنة على أرض الشرقية[3].

---

(١) جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان، كتاب الهلال، يوليو ١٩٦٧، العدد ١٩٦.

(٢) تتمتع الشرقية بموقع فريد بين محافظات شرق الدلتا، وهي نقطة التقاء لأهم طرق المواصلات لكل من القاهرة - الإسماعيلية - بور سعيد الغربية - الدقهلية - القليوبية ويحدها من الشمال بحيرة المنزلة ومن الجنوب محافظة القليوبية ومن الشرق محافظة الإسماعيلية ومن الغرب محافظة الدقهلية وتبلغ مساحة الشرقية ٤١٩٠ كم²، أي ما يعادل ٩٩٧٧٤٢ فدانًا. ويصل عدد السكان نحو ٦ مليون نسمة وتمتد بين دائرتي عرض ١٠َ ٣٠°، ١٩َ ٣١°شمالًا وبين خطي طول ١٥َ ٣٢°، ٢٥َ ٣٢° شرقًا فهي تضم درجة واحدة عرضية ودرجة وعشر دقائق طولية. انظر: فاروق كامل عز الدين: دراسة البيئة محافظة الشرقية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٤٧.

(٣) ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧م)، ص٣٥.

نعم ... الهكسوس..

وبدأ الناس الطيبون - أجدادنا - في مصر والشرقية يتهامسون وهم يتزوون في أركان بيوتهم بعد أن رأوا جحافل العدو قد اقتحمت أمان ديارهم يمتطون أشياء جديدة جدًّا عليهم .. إنهم يخطفون البصر فوق مركباتهم التي تجرها الخيول.. ماذا؟ الخيول؟.. وما معنى الخيول؟ إنه جمع حصان. وماذا يعني الحصان؟ إنه حيوان أكبر وأرشق وأقوى وأسرع من الحمار.

فحتى هذه اللحظة لم يكن المصريون قد عرفوا الحصان.. إنه شيء جديد في حياتهم. وله دور سيأتي الكلام عنه فيما بعد. ولم يكن الذعر تملَّك العامَّة من العربات الحربية السريعة جدًّا التي تشق صفوف محاربينا فحسب. وإنما كان أيضًا من الأسلحة الحديدية والبرونزية الجديدة. إننا حتى هذه اللحظة نعرف أسلحتنا النحاسية فقط. ولم تتوقف المفاجأة عند هذا الحد.. إنما تبعتها قسوة العدو وتعداده الضخم الذي أخذ يتسرب كالوباء، إن عدده أصبح ٢٤٠٠٠٠. ويا له من عدد زحف على أرضنا كالجراد. أهلك كل شيء.. لا يترك حرثًا ولا خضرة إلا أتى عليها.. يابسًا إلا دمره.. حيًّا إلا حوله إلى شعلة من نار وعدم!!.

وبدأت العيون تتحدث.. إن الهكسوس.. لم يقدروا على غزو الصعيد. فرضوا عليه الضرائب والجزية فقط. إنهم ركنوا إلى عاصمتهم الجديدة في شرق الدلتا. ولها أكثر من اسم يذكره التاريخ. فهي «حت وعرت» أو «اقاريس» التي حولها رمسيس الثاني وبنى هو والرعامسة من بعده على أنقاضها عاصمته «برعمس» ثم «تانيس» ونسميها الآن «صان الحجر» على بعد ٩٠ دقيقة من الزقازيق حيث تقع على مشارف شرقها الشمالي[1].

---

(١) أندريه نورتون: صقر الحرية أول ثورة في التاريخ ضد الاستعمار (ترجمة كمال الملاخ، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٦٠م)، ص١٢.

فبعد استقرار الهكسوس في الشرقية لم يلبث الشرقاويون الأقدمون الذين يجري في عروقهم الدم المصري الذي لا تشوبه شائبة أجنبية أن رجعوا لأنفسهم يتهمونها بالجبن والتفريط في حق الوطن مما أدى إلى سريان الحمية في نفوسهم وإذكاء نار الحماسة فيهم فثاروا على الأجنبي المغتصب، لكن شتان بين الهكسوس الأجلاف المخشوشنين والمصريين المترفين، ومع هذا فقاتلهم المصريون حتى خانهم المجال فوطئتهم العربات الحربية - المصنوعة من الحديد والبرنز والتي تجرها الخيول - هذه النوعية من التسليح لم تكن معروفة بعد في مصر و التي جاء بها الهكسوس أول مرة فلم يتعود المصريون لقاءها في حروبهم قبل ذلك.

ولما تم للهكسوس إخضاع مصر الثائرة بعد إن ابتلعوها، وظنوا أنهم قادرين على هضمها ألقوا السلاح جانبًا وركنوا إلى حياة الدعة والترف ونشئوا أبناءهم تنشئة غير تنشئتهم، فشبوا في أحضان النعيم وبدأ الهكسوس يقلدون المصريين في عاداتهم وطرق حياتهم، ويعتنقون الثقافة المصرية، بل ويؤمنون أيضًا بالديانة المصرية حيث جعلوا عبادة الإله المصري (ست) وهو إله الشر، هي الديانة الرسمية للدولة التي أقاموها في الدلتا والتي اختاروا لها أرض الشرقية لتكون مركزًا للحكم، ومن ثَمَّ فقد فقدوا مع الترف كثيرًا من صفات آبائهم العسكرية. أما المصريون الذين غلبوا على أمرهم وقد حرموا مما كانوا فيه ينعمون، فاخشوشنوا مضطرين وأتقنوا صنع العربات الحربية وتدربوا على الكر والفر، وبدأ المصريون يرفعون رؤوسهم بعد طول تنكيس، وتذكروا ملكهم المسلوب فاجمعوا أمرهم على طرد المغتصب الدخيل ... وتمر الأسرة الخامسة عشر، كثيفة البال.. تحت سحب الهزيمة. ومن بعدها الأسرة السادسة عشر.. ويحكم القطاع الذي استعمروه ٣٢ من ملوكهم.. ووطأة الضرائب وخزي عار الانكسار يئن منهما كل مواطن شرقاوي ومصري حر شريف. وما أكثر الأحرار في بلدي.. إنهم يبحثون عن بطل.

تأتي الأسرة السابعة عشر.. وكأنها الضربة الثالثة لمسرحية الأمل.. الأمل في الانقضاض على العدو في الجناح الشرقي. بدأ ظهور حكام مصريين يجرأون على أن يسموا أنفسهم ملوكًا.. يضعون قبل أسمائهم ألقابهم الفراعنة. إذن هي بادرة القوة بدأت تتفتح... ولكن حكام المستعمر كانوا يحكمون في ذات الوقت الأرض التي انتزعوها بحد السيف وبالارتكان إلى الخيانة والضعف والتفكك. وقيل إن ملوكهم بلغوا ٤٣ حاكمًا وقتها في هذه الأسرة التي أصبح نصفها الثاني مسرحًا لمعركة التحرير.. وبدأ المصريون يزمجرون... وبدأت حروب التحرير وطهر المصريون أرضهم من الاحتلال الأجنبي وظلت (أواريس) (تل الضبعة مركز فاقوس)[1] بالشرقية التي استخدمها حكام الهكسوس كعاصمة لهم ذات طابع حربي مهم.

كما دلت الحفريات الأثرية على أن الشرقية من أكثر مناطق الدلتا ثراء في الآثار المصرية وإذا كان هذا الثراء لا يبدو للعيان فإن مرجع ذلك إلى الزحف العمراني الذي جار على الكثير من المناطق الأثرية بالإضافة إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية والعوامل البيئية والبشرية الأخرى، ولقد شهدت أرض الشرقية عاصمتين من عواصم مصر القديمة هما تانيس (صان الحجر) أسرة ٢١، و(تل بسطة) أسرة ٢٢، ثم هناك مدينة (بررعمسو) التي أنشئت في بداية عهد (الرعامسة) ومكانها الآن (قنتير)[2] مركز فاقوس. بالإضافة إلى (أواريس)،

(١) تل الضبعة، وهي على بعد ٤٥ كم من مدينة الزقازيق وهي تابعة لمركز فاقوس وتبعد عن مركز فاقوس ١كم وقد قد كانت مقرًا لحكم الهكسوس في مصر خلال (١٥٧٠-١٧٧٨ قبل الميلاد) وتقع على مساحة ٧كم شمال مدينة فاقوس، يوجد بها العديد من الآثار تزيد عن ٨ آلاف قطعه أثرية.

(٢) قرية قنتير (الوحدة المحلية بالسماعنة): قرية تابعة لمركز فاقوس يوجد بها آثار من عصر سيتي ورمسيس الثاني شيد فيها الملك سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشر قصرًا له ثم تبعه ولده رمسيس الثاني الذي أمر بتشييد مدينة له هناك واتخذها مقرًا لحكم مصر ليشرف منها على مصر وعلى الأراضي التي فتحتها الجيوش المصرية في بلاد الشام. ويوجد بها العديد من القطع الأثرية المهمة المصنوعة من الفخار مختلفة الأحجام والأشكال. وجد بها بلاطات صغيرة من القيشاني الأزرق =

وكانت الشرقية منذ عصور ما قبل التاريخ موطنًا للإنسان المصري وظلت تمارس دورها البارز طوال العصور الفرعونية واليونانية والرومانية. وقد دلت الحفريات الأثرية عام (١٩٩٩م) على بقايا قصر ضخم للملك أحمس الأول الذي طارد الهكسوس حتى أجلاهم عن مصر عام (٥٨٠ق.م) في منطقة الضبعة بالشرقية وتعد أقدم الشواهد الأثرية حتى الآن للدولة الوسطى، حيث عثر على آثار من عهد الملوك منتوحتب الرابع وأمنمحات الأول وسنوسرت الأول وأمنمحات الثاني.

وقد شهدت منطقة تل الضبعة وبعض المناطق المجاورة لها كالختاعنة، تل البركة، تل الفلوس، عزبة حلمي وتل إبراهيم عوض[(١)]، وعزبة رشدي[(٢)]. أحداثًا مهمة خلال عصر الانتقال الثاني تمثلت في قدوم الهجرات الآسيوية (الهكسوس)[(٣)]، برغم ذلك فقد أفاد الهكسوس الشرقية ومصر بكونهم أول

= عليها كتابات هيروغليفية عن طريق التطعيم بالمرمر عليها اسم وألقاب الملك رمسيس الثاني ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشر الفرعونية نحو ١٢٩٠-١٢٢٣ قبل الميلاد، ويبدوا أن الجبانة الحالية للقرية والأراضي المحيطة بها تقع على بقايا قصر بناه الملك (سيتي الأول) ثاني ملوك الأسرة ١٩ والآثار التي عثر عليها تجعل من المرجع وجود عاصمة أكبر إمبراطورية في الشرق القديم والتي أقامها رمسيس الثاني.

(١) تل إبراهيم عوض يقع هذا التل بمركز فاقوس قرية أم عجرم وترجع الآثار التي استخرجت من هذا التل لعصر بداية الأسرات والدولة القديمة والدولة الوسطى وبه العديد من القطع الأثرية. انظر:عبد الحليم نور الدين:كنوز أثرية في طي النسيان جريدة الأهرام ٢٠٠٢/٤/١٤م

(٢) عزبة رشدي وحلمي الوحدة المحلية بالديدامون. عثر بها على بعض التماثيل وكذلك بوابة معبد قديم ترجع جميعها إلى العصر الفرعوني. انظر:عبد الحليم نور الدين:كنوز أثرية في طي النسيان جريدة الأهرام ٢٠٠٢/٤/١٤م

(٣) دخل الهكسوس عن طريق فاقوس واستوطنوا فيها واتخذوا صان الحجر عاصمة لهم وكان اسمها آفاس ويرى بعض العلماء أن العاصمة كانت قنتير التابعة لها كما قاد أحمس أهل فاقوس ومصر لطرد الهكسوس ونجح في ذلك وعاش بها تحتمس الثالث بعض الوقت أثناء إنشائه للإمبراطورية المصرية في العصر الوسيط، وفي أكتوبر عام ١١٦٨ استولى الصليبيون على مدينة فاقوس تحت رئاسة عاموري الأول ملك أورشليم إلا أن صلاح الدين الأيوبي تمكن من تحرير المدينة من أيديهم. =

من أدخلوا استخدام الخيول في البلاد فكان أمرًا له وزنه ودلالته[1] في أمور الحرب والقتال.

وفي المقابل فإن قبيلة قيس العربية والتي هاجرت إلى الشرقية في عام (١٠٩هـ) أحدثت نقلة اجتماعية كبيرة في البناء الاجتماعي لسكان الشرقية؛ حيث جاءت هجرتهم وفقًا لرغبات رجال الإدارة في الإكثار من القبائل التي ينتمون إليها في البلاد التي يديرونها، فلم يأتوا مسلحين مثلما جاءت هجرة الهكسوس بسلاحهم[2]، وتركوا آثارهم في منطقة الشرقية، ومقابل ذلك نجد أن قيسًا أمرت بشراء الخيول وتربيتها وتدريبها خاصة مع انخفاض تكلفة تربيتها لجودة مراعي المنطقة[3]، ولم تكتف قبيلة قيس بشراء الخيول وتربيتها فقط بل إن الأمر تعدى ذلك إلى تجارتها مع باقي القبائل العربية الأخرى فضلًا عن إمداد القوات العسكرية بالفسطاط بها أيضًا. وذكر الكندي والمقريزي أن الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهر حتى يركب[4]، وتشتهر الشرقية إلى الآن بخيولها العربية الأصيلة والتي صارت رمزًا لها، وأشار ابن عبد الحكم إلى أن أصل خيل مصر يعود إلى خيل سمي (بن عفير) وبعضها من خيل «أشقر» قبيلة

= في العهد المملوكي شهدت فاقوس عودة السلطان قطز المملوكي عام ١٢٦٠م عندما كان عائد من دمشق وفي العصر الحديث تمركز نابليون في مدينة فاقوس بعد فوزه على المماليك في الصالحية في ١١ أغسطس ١٧٩٨م وهرب قائدهم إبراهيم بك إلى الشام وانطلق منها لغزو الشام عبر سيناء. امتدت حدود مدينة فاقوس لتصل حتى بحيرة المنزلة شمالًا ثم نقطة ثرابيوم شرقًا والواقعة بين البحيرات المُرّة وبحيرة التمساح وتمتد غربًا حتى بلبيس. انظر: جريدة الأهرام ١٩٩٩/٩/٣. وانظر: عبد الحليم نور الدين: كنوز أثرية في طي النسيان، جريدة الأهرام ٢٠٠٢/٤/١٤م.

(1) Ammar. Abbas. M, Racial Elemnents in the North - Eastern Province of Egypt, Journal of the Royal African Society, (1941-1942) P. 7

(٢) أحمد السيد شحاته: الحوف الشرقي من الفتح العربي حتى نهاية الدولة الفاطمية، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب الزقازيق، ص٣٥٨. وصفحات متنوعة.

(٣) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) (ت٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، الجزء الأول، طبعة مكتبة الثقافة الدينية، ص٨٠ وصفحات متنوعة.

(٤) المقريزي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص٨٠، ٨١.

الصدف وغيرها من خيول رجالات القبائل العربية، واشتهر فرس يسمي «الأبلق» في قبيلة جذام[1]، وكانت بلبيس من أهم مناطق سباق الخيل؛ حيث تتمركز قبيلة قيس واستمرت حلبة السباق على عادتها وازدهرت في بعض الأحيان غير أنه حدثت محاولات لإيقافها بسبب دورها في نشوب عدد من المنازعات، غير أنها سرعان ما عادت لسابق مجدها نظرًا لجلبها المنافع إلى جانب وظيفتها الترفيهية.

وهكذا تقف الشرقية بخيولها اليوم شامخة لكونها تنحدر من تلك الأصول العربية العريقة لأسلافها لتتسع أمامنا الرؤيا وتضيق العبارة، فالاتساع بحجم التاريخ وعبقرية الجغرافيا وقراءة الأنثروبولوجيا والضيق بقدر المخزون الموروث منذ آلاف السنين والذي تختزله الثقافة الشعبية في طيات الجيولوجيا الإنسانية لتعيد إنتاجه في اختزال شحيح[2].

تلك البيئة الكريمة المعطاءة ما زالت ترفد الإنسان بزاد لا ينتهي وتسقيه من كوثر جنة الثوابت القيمة - العربية والإسلامية - وتطبع على بطاقته الجينية أبرز الصفات المنتقاة من سلالة الفراعين البنائين المحاربين والسمات المصطفاة من مجد قبائل عرب الشمال ... وسؤود وجسارة عرب الجنوب، ونفحة المجاهدين الأوائل في فتوح الإسلام ... وطهارة خطي العذراء وروحانية معجزات السيد المسيح «ليعرف المصريون الرب في ذلك اليوم»[3] (إشعيا ٢١:١٩) وليعلنوا بفخر عن انتمائهم لهذه الأمة ولكن ليس من ذلك النوع من الفخر الذي يقعدهم

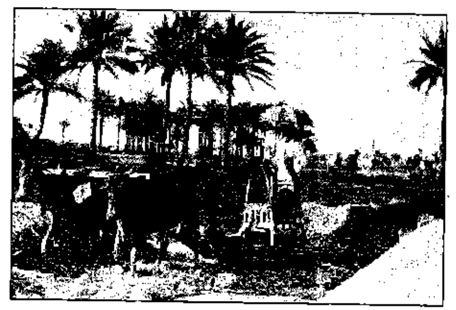
(١) ابن عبد الحكم (ت٢٥٧هـ): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: علي محمد عمر، طبعة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م، ص١٤٤.

(٢) عزازي علي عزازي: قضايا الإبداع والرؤى المعاصرة، مطبوعات مؤتمر الشرقية الأدبي ٢٠٠٢م. وانظر: نبيل مصيلحي: زهور في بستان الإبداع مقال ضمن كتاب «التراث بين القطيعة والتواصل» إصدار هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٥م.

(٣) «ليعرف المصريون الرب في ذلك اليوم» قالها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تل بسطة حين دخلها فانهارت تماثيل الوثنية والإلحاد في المدينة تعبيرًا عن تطهرها واحتفائها لمجيء المسيح وأمه البتول في طريق الفرار المر من بطش الطغيان وقوى الشر والإنكار.

متغنين بمجدها الغابر، أو بماضيها الذهبي أو البكاء على أطلالها وإنما بالبحث عن الحي في الأمة في عالم أفكارها وموروثاتها الشعبية وحياتها وفاعليتها وبالبحث عن ضرورات الإحياء ومساراته فيها والانكفاء على الذات والنبش في تراثنا المصري الثري لنقف مع أنفسنا ونعرف بالتحديد «مَن نحن .. وإلى أين»؟!.

فلنفتح صفحات من الماضي، فلنعد لتاريخنا الروح ليبوح بأسراره ويكشف لنا عن خبايا أرضنا فيضيء حاضرنا.





الفلاح الشرقاوي يعتلي النورج لدرس القمح



الباب الأول

رحلة الشرقية عبر الزمان والمكان

• الشرقية في مواكب النور

«أصبح القبط بعد الإسلام في مأمن من الخوف وعادت الحياة إلى مذهب القبط في الجو الجديد - جو الحرية الدينية».

(من كتاب الفريد.ج. بتلر: فتح العرب لمصر).

✍ فارس عربي يظهر في الأفق قادمًا من عمق الزمان، متدثرًا بشجاعته وإقدامه، يلفه سحر غامض، يشع من عينيه صلابة وقوة تشحذ عزائم الرجال تتصاعد ذرات التراب من تحت قوائم فرسه الأشهب يلمع سيفه البتار تحت أشعة الشمس الساطعة، تؤسر هيئته المفعمة بالحياة القلوب يدوي صدى صوته في الفضاء مكبرًا فيحرك المشاعر والوجدان يبث حكمته في كل الآذان، ينشر الحب فتتحول الرياح العواصف إلى نسمات وصرخات المستغيثين إلى دعوات والأحجار الصماء إلى أزهار، وينبثق نور الصباح من قلب الظلمات ... كانت فترة من أشد وأحلك فترات التاريخ المصري[1].. في السابع من إبريل عام ١٩٩٨م. الموافق العاشر من ذي الحجة في العام ١٤١٨هـيكون قد مضى أربعة عشر قرنا كاملة على الدخول مواكب العرب إلى مصر وقد توافق هذا الحدث المهم في تاريخ العالم مع حلول عيد الأضحى المبارك في العاشر من ذي الحجة من عام ١٨هـ/٦٣٩م، فاحتفل العرب بالمناسبتين معًا في العريش[2].

---

(١) جيهان مأمون، مرجع سابق، ص٢٣٧ بتصرف.

(٢) بتلر (الفرد - ج): فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٦، الجزء الأول، ص١٧٥.

يهب علينا عبق التاريخ من الشرقية حين نلمح عمرو بن العاص وهو يواصل مسيرته إلىٰ منطقة الصالحية[1] ملتزمًا جانب الصحراء ومخالفًا في ذلك أكثر من عداه من فاتحي مصر مثل قسبيز الذي سار من الفرما متجهًا نحو الغرب إلىٰ سنهور وتانيس (صان الحجر بالشرقية) ومن ثَمَّ إلىٰ بوباستيس (بالزقازيق)[2]، وواصل عمرو بن العاص مسيرته حتىٰ بلغ بلبيس، وواجه العرب حامية بيزنطية وجري بينهما قتال نحو الشهر، وانقض الروم علىٰ جيش العرب،ولكن دارت عليهم الدوائر وطاش سهمهم وتمزق جيشهم علىٰ أرض الشرقية شر ممزق. وفي بلبيس أقيم أول مسجد قبل جامع عمرو إذ يعتبر جامع السادات ومسجد أمير الجيوش في مدينة بلبيس بالشرقية من المساجد الأولىٰ التي أقيمت في مصر عند فتح العرب لها، وأنها أسبق من حيث التاريخ من مسجدي الرحمة بالإسكندرية وعمرو بن العاص بالفسطاط.

وقد ذكر المؤرخون أن جيش عمرو بن العاص كان مكونًا من أربعة آلاف مقاتل وجاء إلىٰ رفح من العريش واستولىٰ عليها بسهولة رغم حصونها القوية. وقد سلك الجيش طرق بلدة القنطرة ملازمًا جانب الصحراء حيث كانت مياه بحيرة المنزلة قد طفت علىٰ ما حولها وكان الجيش من الفرسان ولم يكن معهم وسائل لبناء القناطر علىٰ الترع والأنهار. ثم سار إلىٰ القصاصين واجتاز وادي الطميلات حتىٰ وصل إلىٰ بلبيس حيث تقابل مع جيش الرومان ودارت معارك كبيرة هزم فيها الجيش الروماني شر هزيمة. ولبث الجيش العربي عند بلبيس لمدة شهر قتل خلاله عدد غير قليل من سادات قريش والعرب. وكانت خسائر الرومان ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير، وكان بين الأسرىٰ ابنة المقوقس حاكم

(١) الصالحية: أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب بالشرقية، وأنشأ بها قصرًا وجامعًا وسوقًا سنة ٦٤٤هـ (المقريزي، الخطط، الجزء الأول، ص١٨٤).

(٢) بتلر (الفرد - ج): فتح العرب، مرجع سابق، ص١٨٩، ١٩٠.

مصر، فأرسلها عمرو بن العاص إلى أبيها معززة مكرمة فكسب حب المصريين وأهل الشرقية.

ويذكر الطبري وابن الأثير أن القبائل العربية التي استقرت في بلبيس ولم تتابع مع الجيش إلى حصن بابليون، أقامت في المكان الذي استشهد فيه سادات قريش مسجدًا أسمته (جامع السادات). وقد بلغ عدد الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين وفدوا مع عمرو ابن العاص وقاتلوا معه ما يقرب من مائة وعشرين صحابيًا من مختلف القبائل والأجناس. وكان في مقدمة الجيش (شريك بن سمي العطفي المرادي) إذ كان قائدًا لمنطقة بلبيس ومات فيها.

ومن المرجح أن يكون المسجد الأول الذي أقيم تخليدًا لذكري سادات جيش المسلمين الذين شهدوا فتح مصر هو أول مسجد أقيم في مصر الإسلامية، وقد توالت على هذا المسجد يد التعمير والتجديد خلال العصور وكان آخرها في العصر العثماني فقد أعاد بناء المسجد الأمير مصطفى الكاشف سنة ١٠٠٢هـ. أما ضريح أمير الجيوش الصحابي (شريك بن سمي العطفي) فقد أقيم في الضلع الشرقي له مسجد بسيط ويتكون من مستطيل به صفان من الأعمدة وفي وسطه فتحة مربعة بها نوافذ صغيرة للإضاءة والتهوية والمسجد الحالي من المباني الحديثة[1].

وبعد أن أمضي العرب في بلبيس قرابة شهر، هبطوا منها إلى (أم دنين) لاستكمال التوسع حتى تم لهم ما أرادوا وأصبحت مصر قطرًا عربيًا إسلاميًا جزءًا مهمًا وفاعلًا في تاريخ دولة العرب الجديدة، يجري عليها ما يجري على غيرها من أحكامه وظروفه، وتستشعر أن لها مسئولية خاصة في الدفاع عن كل ديار العروبة والإسلام في فترات التحدي الحاسمة، ونجد ذلك في تأملنا لموجتين

(١) محمد مصطفى البرادعي: أماكن وشخصيات في تاريخ الإسلام، جريدة الأهرام يوم ٢٠٠٧/٤/٨م

استعماريتين من أخطر الموجات التي تعرض لها العالم العربي المسلم وهما الموجة الصليبية وموجة التتار[1].

وأصبحت مصر ولاية عربية، واستقرت أحوال مصر علىٰ يد عمرو بن العاص واستتبت أمورها، فأقام المسلمون فيها حكومة عاملت المصريين معاملة مبنية علىٰ العدل والتسامح حتىٰ شعر المصريون بالفارق الكبير بين حكام الرومان وحكام المسلمين الذين امتاز أغلبهم برعاية قبط مصر والحدب عليهم[2] ولم يشذ من هؤلاء الحكام سوىٰ نفر قليل، ولكننا نجد أن المصريين علىٰ طول تاريخهم الضارب بجذوره في فجر الضمير الإنساني كانوا بالمرصاد لكل الطغاة الذين فرضوا سطوتهم عليهم إما بالثورة الشعبية أو بالسخرية والتهكم والهجاء والتي كانت من أهم الأسلحة التي استخدموها بمهارة فائقة في هذا المجال خاصة إذا كانت شخصية الحاكم نفسه تدعو لذلك، وكان مظهر هذا جليًّا في الشرقية.

وحيث إن الشرقية قد أشْرِبَتْ نفوس أهلها شجاعة حقة بما وقر فيها من مظاهر البسالة الرائعة لامتزاج الأهليين بالعرب الوافدين علىٰ مصر، وقد توالت وفودهم علىٰ مصر واستوطن أغلبهم الشرقية وصاهروا أهلها وارتبطوا بهم بوسائل مختلفة حتىٰ زالت من نفوس الكثيرين منهم النعرة العربية إلا قليلًا من القبائل حافظت علىٰ صبغتها العربية في المصاهرة والعادات دون اللغة وأسباب النفع والحضارة[3] وتجلىٰ مظهر الشجاعة فيهم حين هب أبناء الشرقية بأول ثورة شعبية في العهد الأموي بعدما استشري الفساد لبعض الولاة والحكام الذي وصل

---

(١) عمرو عبد العزيز منير: العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة في كتابات الرحالة، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الزقازيق، ٢٠٠٤، ص٦٨؛ عمرو عبد العزيز منير: الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٨م، ص١٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، الجزء الأول، ط ١٢، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩١، ص١٩٢.

(٣) إبراهيم والي: مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية سنة ١٩٤٠، ص١١٥وصفحات متنوعة.

إلى حد قبـول الرشـاوى مثلما حدث في عام (٨٧هـ) حين ارتشي عبد الله بن عبد الملك (وإلي مصر) بأخذ الأموال لنفسه من الخراج، وفي ولاية الحر بن يوسف انتفضت عامة الشرقية عام (١٠٧هـ/٧٢٥م) فأخضع الحر بن يوسف الثورة الشعبية بعد قتل عدد كبير من الثائرين أبناء الشرقية[١] كانت هذه الثورة بداية دور جديد لأبناء الشرقية خاصة وللمصريين عامة، فهذه أول مرة يتركون سبيل المقاومة السلبية إزاء ثقل الأعباء المالية عليهم، ويقاومون الحاكم في مصر مقاومة ايجابية، والباع الأكبر في ذلك يعود لسكان الشرقية الذين قاموا بتلك الانتفاضات، غير أنهم تحملوا في سبيل ذلك الكثير من الآلام، ولكن الثورة الشعبية في الشرقية سرعان ما أنبتت شجرتها وامتدت فروعها خارجها وصار (الحوف الشرقي)[٢] من حينئذ مركزًا دائمًا للثورة طوال العهدين الأموي والعباسي.

واستتبع ذلك قيام عبيد الله بن الحباب عامل الخراج في عهد الحر بن يوسف باستقدام قبيلة قيس من الجزيرة العربية وتوطينها بلبيس وما حولها وذلك لتقوية جانب المسلمين من أهالي الشرقية وزيادة قوة القيسية مقابل القبائل العربية الجنوبية (اليمنية) لإحداث التوازن العددي بين قاطني المنطقة للحد من الثورة والعصيان في تلك البؤرة الساخنة[٣]. والتي كانت تمثل خطًا دفاعيًا أول يحمي الفسطاط ضد كل من تسول له نفسه محاولة إقصاء الحكم الأموي عنها مثلما حدث حين نازعهم لفترة ما.. العلويون والزبيريون، لهذا انتشرت حامياتهم وعيونهم علي مداخله.كما قام الحوف الشرقي في تلك الفترة بدور حيوي مهم، في الفتوحات الأموية في الشمال الأفريقي وبلاد المغرب حيث كانت المنطقة تمثل رأس جسر وقاعدة انطلاق القوات الفاتحة إلى تلك المناطق

(١) المقريزي: الخطط، ج ١، ص٣٠٢، الكندي: الولاة، ص٧٤.

(٢) اصطلاح جغرافي يقصد به الجزء الشرقي من الدلتا.

(٣) الحوف الشرقي: مرجع سابق، ص١٢٧.

وغيرها بهدف استخلاصها من أعداء الدولة الإسلامية، كما كانت الشرقية طريق وصول الإمدادات والدعم لتلك الحملات.

وبالرغم من ذلك فقد ظلت الشرقية أرضًا خصبة للكثير من القلاقل والاضطرابات التي وصلت إلىٰ حد الثورة ضد ولاة مصر وعمال خراجها حتىٰ أن بعضهم لم يتمكن من دخول الفسطاط مقر الولاية وعادوا أدراجهم من حيث أتوا، فقد كانت الشرقية بؤرة ساخنة للتمرد والثورة في مصر، لهذا كانت لها أهميتها واعتبارها بالنسبة لولاة الأمر فيها، وكانت مواقف الشرقية متباينة فرحبت ببعضهم وتشددت مع الآخرين منهم، مثال ذلك الوالي عبد الرحمٰن بن أم الحكم الذي ولاه معاوية بن أبي سفيان علىٰ الكوفة عام (٥٨هـ)وطرده أهلها لسوء سيرته، فولاه علىٰ مصر، لكن سيرته سبقته إلىٰ مصر فخرج إليه معاوية ابن جديج علىٰ مرحلتين من الفسطاط[١]، وقال له: «ارجع إلىٰ خالك فلا تسر فينا سيرتك في أهل الكوفة، فرجع إلىٰ معاوية..»[٢].

والتهبت الثورات الشعبية لأهل الشرقية مع زوال الدولة الأموية، وكان لهم دورًا مؤثرًا في مساندة العباسيين خاصة بعدما أُشيع عن اتجاه مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية) الذي فر إلىٰ مصر بعد هزيمته في واقعة الزاب الأكبر بإحراق بعض القرىٰ الشرقية لمصر ويبدو أن تأييد أهل الشرقية وقبائلها للعباسيين وللمناوئين لمروان بن محمد قد أثار حنقه وغضبه، فأمر بإحراق مدن الحوف الشرقي وقراه وتم بالفعل إحراق بعض المدن والقرىٰ في الشرقية، كما عاثت قواته فسادًا في الأرض لتحرق الحقول والأعلاف والغلال، غير أن قوات العباسيين لحقت بها حيث تمكنت منها وأسروا بعض تلك القوات وقدموا بها إلىٰ الفسطاط لتنتهي حياة مروان بن محمد علي أرض مصر سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م)

---

(١) أحمد شحاتة سرحان: نفس المرجع السابق، ص١٢٥ وصفحات متنوعة بتصرف.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١، ص١٥٠، ١٥١.

حيث دفنت مع رفاته راية العهد الأموي بمصر وصارت مصر ولاية عباسية تابعة للخلافة العباسية تبعية مباشرة وهكذا قدر الله للشرقية أن تكون أول من يرفع راية السواد (شعار العباسيين) وتخلع راية البياض شعار الأمويين، وبدا أن ذلك التحول كان مقدمة لها لما بعدها في مصر عامة والحوف الشرقي خاصة. ورغم ذلك لم يكن العهد العباسي عصرًا للوئام والوفاق الدائم بين الحكومة العباسية وأهالي الشرقية لنجد اشتعالًا للثورات الشعبية في الشرقية على الشاذين من ولاة مصر.

ففي عهد الخليفة العباسي المهدي ثار أهل الشرقية بمن فيهم القبائل العربية القيسية واليمنية لقتال وإلى مصر موسي بن مصعب (١٦٧-١٦٨هـ) الذي تشدد في جباية الخراج وفرض خراجًا على الدواب والأسواق، وقتلوا عامل المهدي الذي ندب لقتالهم وإلى مصر الجديد الفضل بن صالح بن على العباسي الذي تولاها من قبل الخليفة المهدي في عام (١٦٩هـ)، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدي وانشغل بالقضاء على ثورة شبت في الصعيد أيضًا[١].

ولم تخب ثورة أهل الشرقية في عهد هارون الرشيد، فتذكر المصادر التاريخية أن وإلى مصر مسيلمة بن يحيى (١٧٢-١٧٣هـ) الذي قدم إلى مصر بصحبة عشرة آلاف جندي في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد امتلأت فترته بالفتن والاضطرابات، وتكرر الأمر في عهد وإلى مصر عبد الله بن المسيب (١٧٦-١٧٧هـ) وفي ولاية إسحاق بن سليمان العباسي (١٧٧-١٧٨هـ) ثار أهل الشرقية بعد قيام الوالي بزيادة الخراج زيادة كبيرة أجحفت بهم وثار أهل الشرقية وقاتلوا الوالي مما استدعى الوالي إلى طلب المعونة من بغداد، فأرسل هارون الرشيد جيش قوامه عشرة آلاف جندي حتى استطاع قائد الجيش (هرثمة بن أعين) إخماد الثورة، وتولى الليث بن الفضل (١٨٢-١٨٧هـ) واستخدم العنف والقهر في جمع الخراج،

(١) المقريزي: الخطط، ج ١، ص٣٠٨ وما بعدها.

وتمكن الليث من قتل الكثير من أبناء الشرقية من العرب في بلدة غيتة بالقرب من بلبيس، وبرغم ذلك لم يذعن أهل الشرقية لاستبداد الوالي إلىٰ أن تحمل محفوظ بن سليمان عبء جمع الخراج دون عنف وعمل علىٰ مهادنة أهل الشرقية باللين والملاطفة، وانتهت الثورة بخلع الليث بن الفضل عن مصر وولىٰ مكانه احمد بن إسماعيل الذي توجه مع محفوظ إلىٰ مصر فدخلاها في ٢٥ جمادي الآخرة عام ١٨٧هـ[1].

تتابعت ثورات الشرقية الواحدة تلي الأخرىٰ حتىٰ وصل الأمر بأحد الثائرين إلىٰ منابذة الخلافة العباسية وقطع الطرق، وتولىٰ (الحسين بن جميل) (١٩٠-١٩٢هـ) مصر من لدن الرشيد وتشدد في جباية الخراج مما دفع أبو الندي مولىٰ قبيلة بلىٰ في نحو ألف رجل وأخذ يقطع الطريق وانضم إليه نفر من جذام، فأرسل الخليفة العباسي (بيحيىٰ بن معاذ) علىٰ رأس جيش كبير من بغداد للقضاء علىٰ تلك الثورة، وتوجه (يحيي بن معاذ) إلىٰ بلبيس في (١١ من شوال ١٩١هـ) وأخمد الثورة وجمع الخراج وكان يحيي بن معاذ هذا هو صاحب الخديعة التي تمكن بها من الإيقاع برؤساء القبائل القيسية واليمانية بالحوف الشرقي والقبض عليهم، وتقييدهم في السلاسل وخرج بهم إلىٰ العراق في منتصف رجب عام (١٩٢هـ)[2] ولما ولىٰ حاتم بن هرثمة مصر عام (١٩٤هـ) قدم في ألف رجل ونزل بلبيس فصالحه أهل الحوف علىٰ أداء الخراج ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا صلحهم وثاروا عليه فبعث إليهم جيشا قاتلهم وأخمد ثورتهم وأسر مائه من الرهائن من أهل الحوف الشرقي.

وعلىٰ أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عادت ثورات الشرقية القديمة لأن الأمين قد تحبب إليهم بأن عهد ببعض الوظائف

(١) المقريزي: الخطط، ج ١، صفحات متنوعة.

(٢) المقريزي: الخطط، ج ١، ص٨٠، ٣٠٩، ٣١٠.

الكبرىٰ إلىٰ رؤسائهم فضمن بذلك ولاءهم له حتىٰ ثاروا في وجه نائب المأمون عليهم وتغلبوا عليه وقتلوه، ولما استتب الأمر للمأمون عين عبد الله بن طاهر واليًا علىٰ مصر وكان عظيم الهيبة حسن المذهب شجاعًا يعدل بين الرعية، واستطاع أن يقف ثورات المصريين عامة ويعيد الهدوء إلىٰ ربوع مصر[1]، وعندما نقل عبد الله بن طاهر إلىٰ خراسان عادت الشرقية إلىٰ ثوراتها حين تعسف صاحب الخراج صالح بن شيرزاد وظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم.

ووصل الأمر إلىٰ أن جاء الوالي الجديد المعتصم (أخي الخليفة) ومعه قرابة أربعة آلاف من جنوده الأتراك وهاجم الشرقية، ولكن أهلها استطاعوا حرق أمتعته واختبئوا وراء جدران الفسطاط فاستطاع المعتصم أن يفتك بكثير من زعماء الثورة ونجح في تفريقهم والقبض علىٰ عبد الله بن حليس زعيم القيسية وعبد السلام الجذامي زعيم اليمانية بالشرقية وتم للمعتصم ما أراد وقبض عليهما في بداية رمضان، فقيدهما وسجنهما ثم قتلهما فيما بعد، ودخل المعتصم إلىٰ الفسطاط منتصرًا علي أهالي الشرقية في (٨ رمضان عام ٢١٤هـ) وأقام بالفسطاط حتىٰ تم له ما أراد، ثم خرج عائدًا إلىٰ بغداد عبر الشرقية، برفقة جنوده الأتراك، وجمع عددًا من أسرىٰ الشرقية أخذهم معه في مسيره إلىٰ العراق مشاة حفاة أمام خيالته[2] برغم ذلك لم تهدأ الثورة الشعبية علىٰ النظام الحاكم، فبعد مرور أربعة أشهر فقط من ولاية عيسي بن منصور (٢١٦-٢١٧هـ) علىٰ مصر ثار عليه جميع أهالي مصر السفلىٰ من القبائل العربية والأقباط بسبب فساد السلطة في مصر وبطشها بالأهالي واستخفاف النظام بالناس في مصر حتىٰ قرر الخليفة المأمون أن يحضر بنفسه إلىٰ مصر ليقمع الثورات المتأججة التي لم تكن لتقف عند حد.

---

(١) مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية،العدد السنوي ١٩٣٩م، مرجع سابق، ص٨١. وصفحات متنوعة.

(٢) المقريزي: الخطط، ج ١، ص٨١، ٣١١.

والملاحظ أن الخليفة المأمون تفهم دوافع الأهالي ومعاناتهم فوجه اللوم للوالي وأخيه صاحب إقطاع مصر قائلًا: «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد»[١]. وبرغم أن المأمون قتل الكثير والكثير من أبناء الشرقية، فلم تذهب أرواح الشهداء من أهل مصر في مهب الرياح بل أتت ثورتهم ثمارها بعزل الوالي وعماله وولى آخرين.

كان من نتيجة هذه المعاناة التي عاشها المصريون في ظل سياسة العباسيين في استغلال موارد مصر أن أصبح المصريون يتوقون إلى وضع اقتصادي أفضل، خاصة وأن السياسة الضريبية كانت عاملًا مهمًا في كراهيتهم للحكومات الأجنبية التي حكمتهم قبل العرب مثل الفرس والإغريق والرومان الذين اعتبروا مصر بقرة حلوبًا تدر الرخاء لهم في أثينا وروما والقسطنطينية بينما يتضور المصريون جوعًا، فلما جاء الإسلام إليهم أحسوا بعدالته خاصة في السياسة الضريبية التي اتبعها الولاة في عهد الراشدين، لكن سرعان ما انقلبت الأمور وبدأ بعض الولاة في التشدد في الأمور المالية مما أثار حفيظة المصريين بعدما أصبح الخلفاء يعتبرون مصر سلة للخبز[٢].

وفي غضون القرن الثالث الهجري انقطع ما بين مصر ودولة بني العباس لنمو الأفكار الاستقلالية، وتربع على عرش مصر آنذاك أحمد بن طولون (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م) الذي أنشا في مصر دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى، وهنا يجيء ذكر التاريخ للشرقية ويبرز اسم (العباسة) التي تقع على الطريق بين بلبيس والصالحية والتي اعتبرها المقدسي عاصمة الريف بأجمعه، وتروي المصادر التاريخية أن العباسة بنت أحمد بن طولون قد خرجت لتوديع أسماء بنت أخيها

(١) المصدر السابق، ذات الصفحات.

(٢) أحمد سرحان: الحوف الشرقي، مرجع سابق، ص١٧٠.

خمارويه المشهورة بقطر الندي، وضربت خيامها عند بلدة العباسة بالشرقية وأقامت مع وصيفاتها وصديقاتها مدة على أرض تلك القرية لتلقي نظرة الوداع على سفيرة مصر لدي قصر الخليفة وزوجته، وترجح بعض المصادر التاريخية أن اسم بلدة العباسة اشتهر لإقامة شقيقة خمارويه في تلك المناسبة السعيدة وتذكر الروايات أن البلدة أسميت على اسم العباس بن أحمد بن طولون[1]؛ إذ بها ولد العباس بن أحمد بن طولون فسماه لذلك أبو العباس نسبة لها وولد بها أيضًا الملك الأمجد تقي الدين عباس ابن العادل، وإليها ينسب الشيخ عبد الرازق بن محمد بن أحمد العباسي الشافعي وفي زمن الوالي محمد علي باشا كان مرتب لهذه الناحية عساكر من الخيالة لخفر الطريق المارة في الصحراء الموصلة إلى الشام والسويس[2].

وقد أدرك الطولونيون أن المنطقة الشرقية هي صمام الأمان لحكمهم واستقلالهم بمصر حين أدركوا أن الخطر المحدق بهم سوف يكون شرقي الهبوب وبصفة خاصة بعد أن ظهر تصدي الموفق - ولى عهد الخليفة المعتمد - لنزعتهم الاستقلالية في مصر وجهوده المضنية في سبيل تقويض دعائم هذا الاستقلال، لذلك كان على الطولونيين تأمين المدخل الشرقي لمصر، فقام خمارويه بن أحمد بن طولون بضم مجموعة جديدة من أبناء مصر دعم بهم قواته الثائرة واستعان بأبناء القبائل العربية في منطقة الشرقية وأسماهم (المختارة).

وبعد وفاة خمارويه (٨٩٥م-٢٨٢هـ) ولى أمر مصر ابنه أبو العساكر في (السابع عشر من ذي القعدة ٢٨٢هـ) فرأى فيه فقهاء مصر وقضاتهم سفاكًا للدماء لاستحلاله دم عمه (مضر بن احمد بن طولون) فأفتوا بعزله وخلفه شقيقه (هارون بن خمارويه) في (العاشر من جمادي الثاني ٢٨٣هـ)، ولم يكن هارون هو

(١) محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية، مكتبة الأسرة ١٩٩٨، ص٩٧.

(٢) سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص٥٥.

رجل الساعة فطمع القرامطة في بلاد الشام، وحاصروها (٢٩٠هـ/٩٠٣م) مما يدل على مدى الضعف الذي آلت إليه حال مصر(حيث كانت الشام تحت الحكم المصري آنذاك) على يد أحفاد أحمد بن طولون ووقف الخليفة العباسي المكتفي في بغداد على جلية الأمر في مصر فأرسل أسطولًا ليعيد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية ويظفر الأسطول العباسي بنصر ساحق على الأسطول المصري عند تنيس (التي كانت مدينة عامرة أمر الملك الكامل محمد بهدمها وتخريبها سنة ٦٢٤هـ حتى لا ينزل الصليبيون بها وبذلك زالت من الوجود مدينة كانت من أكبر المدن الصناعية في مصر الإسلامية). وزالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر ثمانية وثلاثين عامًا عادت بعدها إلى مكانها القديم من الدولة العباسية.

ولما بلغ أمر الهزائم الطولونية مسامع الأمير الطولوني «هارون بن خمارويه» فر هاربًا إلى بلدة العباسة بالشرقية حيث لقي حتفه على يد عماه (عدي وشيبان) اللذان اتفقا على قتله لاستمراره في لهوه وسكره فتم ذلك في ليلة (٢٠ من صفر سنة ٢٩٢هـ)[1]، ولقد جاء هروب الأمير الطولوني (هارون) إلى بلدة العباسة دليلًا على ما كان لتلك البلدة من منزلة في نفوس أحفاد ابن طولون حتى في أيام محنتهم ومن هناك أخذ يكاتب العمال والقادة مذكرًا إياهم بجده أحمد ووالده خمارويه، طالبًا وقوفهم معه، ولكن عبثًا ما حاول.

وأثارت أعمال التخريب والتدمير والحرائق التي أشعلها محمد بن سليمان الذي ولاه الخليفة العباسي مهمة القضاء على الطولونيين حفيظة الشعب المصري وامتلأت صفحات الكتب بالأشعار التي ترثي الدولة الطولونية وأعمالها وتحسر الشعراء على أيامها الغابرة[2]، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الأشعار

---

(١) المقريزي: الخطط، مصدر سابق، نفس الصفحة.

(٢) الكندي: مصدر سابق، ص٢٥٠.

الشعبية صدىً في نفوس المصريين فحاول بعضهم أن يعمل علىٰ عودة الروح في أوصال الدولة الطولونية.

فقامت ثورة شعبية قادها أحد أبناء مصر ويدعىٰ (ابن الخليج) الذي ما لبث أن وجدت دعوته كثيرًا من الأنصار المصريين وتوجه نحو الشرقية قاصدًا العباسة[1]، واستمر (ابن الخليج) علىٰ عرش مصر سبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا[2]. ولا يمكن أن تفسر هذه الانتصارات السريعة والمتلاحقة لجندي مصري صغير مثل (ابن الخليج) إلا بدعم الشعب المصري له وتحمسه لفكرة الثورة التي أعلنها ضد الدولة العباسية التي قضت علىٰ دولة لها في مصر طابع قومي[3].

وبعد أن أُقصِيَ (ابن الخليج) عن حكم مصر، اختلف عليها ولاة من قِبَل العباسيين استبد بهم الجند وأصحاب الخراج وضاع سلطان أولئك الولاة بين جشع الجند في طلب المال وضن عمال الخراج به علىٰ الولاة، فلا عجب أن تكون مصر أثناء هذه الفترة نسيًّا منسيًّا تغط في سبات عميق إلا من الدسائس التي يدبرها الجند وأعوانهم فيقع في حبائلها الولاة الذين ظلت أمورهم معلقة بيد رجال الجيش إلىٰ أن ولِيَ مصر من قِبَل الخليفة العباسي «الراضي» محمد بن طغج الإخشيد والذي بدأت علاقة الشرقية بالإخشيديين في أثناء تولىٰ محمد الإخشيد حكم الحوف الشرقي مضافًا إليه الحوف الغربي (اصطلاح جغرافي للأراضي الواقعة إلىٰ الغرب من فرع رشيد)، ولقد أصبح واليًّا للحوفين في عهد والي مصر تكين[4].

---

(١) أحمد شحاتة: مرجع سابق، ص١٨٢.

(٢) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، ج ٢، ص٤٩٨.

(٣) حسن محمد وسيدة كاشف: مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، طبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠، ص١٢٧، ١٢٨، وانظر احمد شحاتة: مرجع سابق، ص١٨٣.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٣٧

وبعد أن آل أمر مصر للإخشيديين أنشأ محمد الإخشيد حكومة مستقلة قوية مهيبة الجانب يخشي الخليفة بأسها لدرجة أثارت حفيظته وغضبه على الإخشيدي فعين له منافسًا بمصر وهو (محمد بن رائق) الذي وهب له الخليفة مصر على الرغم من وجود الإخشيد بها، وبينما يهم ابن رائق بالحضور إلى مصر لتسلمها خف الإخشيد لملاقاته واتخذ لنفسه ولجيشه من الشرقية قاعدة انطلاق نحو العريش حيث هزم ابن رائق ومن التف حوله.

وبعد وفاة الإخشيد تولى بعده ابنه (أنوجور) ولما كان لا يزال صغير السن صار أستاذه (كافور) مدبر مملكته والذي ما لبث أن أصبح حاكم مصر الفعلي بعد موت أخر أبناء محمد الإخشيد، وقلده الخليفة العباسي حكم مصر (بلقب أستاذ مصر وممتلكاتها) وما هي إلا سنوات قلة ويتوفي كافور سنة (٩٦٨ م) ومصر آنذاك تمر بدور من أحلك أيام تاريخها بسبب انخفاض النيل واستمرار القحط واشتداد الغلاء وكثرة الموتى وشيوع الفوضى فقد تعرضت الشرقية مثل باقي أجزاء مصر في أواخر العهد الإخشيدي إلى الكثير من الضائقات الاقتصادية، فقد وقع الغلاء في سنوات (٣٣٨هـ، ٣٤١هـ، ٣٤٣هـ)، ثم أصاب البلاد الغلاء الشديد الذي استمر تسع سنوات ابتداء من عام (٣٥٢هـ) بسبب نقص فيضان النيل وأدى ذلك إلى القحط والجدب واختفاء القمح واضطربت الأحوال وكثرت الفتن ونهبت الضياع.وقد أهملت الشرقية مثل باقي أجزاء مصر التي كانت تنتهكها الفتن والاضطرابات الداخلية التي عصفت بالأسرة الإخشيدية وأركان الدولة في أواخر عهدهم والتي رافقتها الشدة الاقتصادية التي كانت سببا في ضعفها والتعجيل بسقوطها.

وأحكم التاريخ خطته وفرض حكمه فاستولى الفاطميون على مصر، ولم تأت جيوشهم عن طريق الشرقية كما فعل أغلب الغزاة والفاتحين قبلهم،

ولكن جاءوا عن طريق الصحراء الغربية[١]، حيث كان من آثار ما حل بالعلويين من اضطهاد بعد قيام الدولة العباسية أن لجأ بعضهم إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة وتتجه أنظارهم فيما بعد إلى مصر بعد أن استقام أمرهم في المغرب الأقصى.

وهكذا بدأ العهد الفاطمي لمصر (سنة ٣٥٨هـ/٩٥٩م)، وما لبث الفاطميون في مصر ينافسون العباسيين في بغداد أبهة وثراء حتى نمت القاهرة وذاع صيتها كما شهدت الشرقية أحداثًا مهمة في تاريخ الدولة الفاطمية؛ حيث كانت بلبيس شاهد عيان على انتقال السلطة من الخليفة العزيز لابنه الحاكم بأمر الله فقد تقلد الخلافة بها يوم الثلاثاء ٢٨ من رمضان عام ٣٨٦هـ؛ حيث توفي الخليفة العزيز بها، وظهر اهتمام العزيز بالشرقية في إنشاء عدة قصور بها، وإليه تنسب بلدة العزيزية بمركز منيا القمح بالشرقية، وكذلك عزيزية الكفور بناحية الكفر القديم بمركز بلبيس كما ينسب إليه أيضًا الجامع العزيزي بمدينة بلبيس.

وتنكر الزمان لخلفاء الدولة الفاطمية في النصف الأخير من حياة دولتهم فضعف سلطانهم وأصبحت نهبًا لمن ولِيَ الوزارة ممن قست قلوبهم وأصبحت الوزارة شبه وراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء، وجرت هذه الظاهرة الغريبة في أذيالها كثيرًا من الدسائس والمؤامرات والثورات والفوضى في مصر[٢].

واستمرت أحوال مصر كذلك حتى الفصل الأخير من الرواية الذي أُسدل بعده الستار على عهد الفاطميين، وتألق نجم صلاح الدين بعد ذلك على مسرح السياسة المصرية، وإنما نقصد بالفصل الأخير من الرواية التي مثلت الفوضى والاضطراب ذلك النزاع بين الوزيرين المصريين شاور وضرغام الذي امتد لظاه خارج حدود مصر إذ عول كل منهما - إمعانًا في الكيد لخصمه - على إن يستعين

---

(١) سعيد عاشور وعبد الرحمن الرافعي: مصر في العصور الوسطى، ط ١، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٩٠، ١٩١.

(٢) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، مرجع سابق، ص٥٩١.

بجيوش غير مصرية للفتك بمنافسيه، وما هم في الواقع إلا عشيرته وذوي قرباه وبني جلدته ووطنه متناسيًا كل مصريته ضاربًا بكل ما أمامه عرض الحائط سوى كرسي الوزارة والحكم حتى دفع كل منهما - ثمنًا لذلك العقوق - حياته رخيصة على سيوف من طلب العون منهم، وتنهار الخلافة الفاطمية لتصبح مصر نقطة تحول محورية في حياة قائد من الأكراد يدعى: صلاح الدين الأيوبي ليؤكد التاريخ أن مصر قد صنعت لهؤلاء الحكام جميعًا أكثر مما صنعوا لها وأن هؤلاء الذين أتوا من الخارج لم يصنعوا تاريخ مصر كما يقال بل مصر صنعت تاريخها وصنعتهم هم أيضًا.وقد رأينا كيف دخل (عمرو بن العاص) مصر قائدًا عاديًا وخرج منها من بناة الدول ومصر جعلت من الكثير منهم من صناع التاريخ وماذا صنع أحمد بن طولون - مثلًا - لمصر؟ وماذا كان يستطيع محمد بن طغج الإخشيد أن يصنع لها بدونها؟ وصلاح الدين الأيوبي من كان يسمع به قبل أن يدخل مصر؟ ويخرج منها قائدًا يخشى بأسه العالم!!

- **الناصر صلاح الدين في الشرقية (٥٧١-٦٤٨هـ/١١٧٥-١٢٥٠م)**

بينما مصر ترسف تحت نير الشهوات الشخصية، وبينما الحكام في ضلالهم بضعفهم يعمهون، إذ بشبح الحروب الصليبية الذي كان قد لاح في الشرق يتهدد مصر وينذر بالويل والثبور ويرى في مناجزة الوزيرين شاور وضرغام خير فرصة لأن يدمغ انتصارات الفرنجة في الشرق بوضع أغلالهم في أعناق مصر، فيؤكدون بذلك نجاح أغراضهم في تسويغ قتلنا.

ولولا أن للكنانة ربًا يحميها لأدى ذلك النزاع بين وزراء مصر إلى أسوء العواقب، ولتغير وجه التاريخ في مصر والأمة، لذا يجب أن نسهب بعض الإسهاب في هذا الدور من تاريخ مصر لأهمية النتائج التي ترتبت عليه من جهة، ولأنه من جهة أخرى يلمس بشدة الموضوع الذي نحن بصدده في كثير من نواحيه.

استعرت نيران الحروب الصليبية علىٰ أثر صيحة البابا أربان الثاني(اليهودي الأصل) (بمجمع كليرمون) في السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م[١] الذي أثار في الأمم الغربية روح الحرب الدينية، وكانت شواهد التاريخ آنذاك مليئة بانقسامات حادة بل متعارضة بين الشعوب علي كل المستويات الإنسانية والثقافية والحضارية والدينية، هذه الانقسامات التي وصلت أحيانًا إلىٰ درجة من درجات الصدام أمام صراع القوىٰ والمصالح، وأخذت هذه الانقسامات أشكالًا وألوانًا كثيرة شملت الجوانب الثقافية والحضارية، وكان أشدها خطرًا الانقسامات العقائدية وما تركته من رواسب صليبية لا تزال قائمة علي فكرة الصراع بين الإسلام والنصرانية عضدتها سياسة الغرب بمحاولاته في تغيير واقعنا قبل أن يغير فكرنا وتصوراتنا ثم يتهم فكرنا وتصوراتنا بالتخلف والهمجية.

كل هذه الشواهد التاريخية كانت تؤكد أن هذه الانقسامات كانت عبئًا علي المسيرة الحضارية للإنسانية، وأن العالم دفع ثمنًا باهظًا لتلك الانقسامات خاصة بعد أن جنحت ودخلت في مناطق الصدام العسكري المسلح بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية فيما يسمىٰ بـ (الحروب الصليبية) التي تعد أخطر مناطق الانقسام في تاريخ الإنسانية خاصة أنها أخذت طابعا دينيًا هي أبعد ما تكون عنه فتكأكأ الجميع حول راية واحدة هي راية الصليب، وشخصت جموعهم نحو الأراضي المقدسة، حتىٰ كان لهم ما أرادوا وانتزعوا بيت المقدس وكثيرًا من مدن الشام، واقترفوا من الجرائم والآثام بمسلمي تلك الأصقاع ما لا يصدق مثله إلا في قصص الخيال مما جاء في الواقع درسًا مريرًا يتلقاه الأمراء المسلمون والعرب في الشرق علىٰ مذبح الحروب الصليبية، فكتبوه بدماء أشلائهم علىٰ قراطيس هي في الواقع البلاد التي أصبحت في حوزة أعدائهم

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٣، ص١٠٣، ١٠٤.

في حركة استعمارية واستيطانية، وما كان ذلك إلا نتيجة الفرقة تسعي بينهم، والدسائس تمزقهم إربًا، فما أشبه اليوم بالبارحة.

وكانت دولة عماد الدين زنكي التي ارتكزت على محور الموصل، حلب هي السابقة التاريخية، أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه في ميدان الحرب[1]، ثم ابنه «نور الدين محمود» فأخذ الواحد منهما يسدد ما في جعبته من سهام إلى صدر الصليبيين حتى ذهب ريح الحملة الصليبية الثانية، وهنا اشرأبت الأعناق إلى مصر كنانة الله في أرضه، لا سيما أن حبل الأمور فيها قد اضطرب في يد الخليفة العاضد آخر خليفة فاطمي بين نزاع الوزراء على تولى الوزارة.

وما لبث أن شهدت الشرقية صراعًا حادًا بين عموري الأول (ملك بيت المقدس الذي تولى سنة ١١٦٢م) والدولة النورية (دولة نور الدين محمود) حيث كانت مصر قد وصلت إلى حالة من الفوضى السياسية بعد أن سيطر الوزراء على الحكم بها فمهد ضرغام (الوزير المصري الفاطمي) للصليبيين طريق الاتجاه إلى مصر بأن طلب إليهم الحضور إليها ليضمنوا له الوزارة دون شاور غريمه الذي استعان بدوره بسلطان حلب «نور الدين محمود» لنفس الأمر، فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى كانت جيوش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي على أبواب مصر تحارب جيوش ضرغام عند بلبيس[2].

فقد سلك شيركوه طريقا معروفا باسم (طريق الفوقانية) أو (طريق البدرية) وهو طريق صحراوي يمتد من أيلة إلى الصدر إلى السويس في وسط سيناء ويبدو أنه سلك به السويس الطريق المؤدي إلى وادي السدير (الطميلات)حتى وصل

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٨.

(٢) على السيد على بالاشتراك: الأيوبيون والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري، (عين للدراسات)، الطبعة الثانية ١٩٩٦، ص٢٣.

إلى تل بسطة (شرقي الزقازيق) بقواته وهناك التقى أسد الدين شيركوه بشقيق ضرغام ووالي بلبيس وحدثت معركة بينهما (أواخر جمادي الآخرة عام٥٥٩هـ) في (تل بسطة) أدت إلى انسحاب (والي بلبيس) إلى القاهرة منهزمًا حيث وصلها في خامس جمادي الآخر وهو مصاب بجرح بينما أسر شيركوه عددا من الأمراء ودخل بقواته مع شاور إلى مدينة بلبيس حيث اختفي والي بلبيس داخل المدينة، فدلهم عليه بعض عرب كنانة فأسره شيركوه.

ولم يلبث ضرغام أن قُتل في آخر جمادي الآخرة من نفس العام، وفاز شاور بما كان يبغي ولكنه بدأ يتنكر لحلفائه وناصريه ولم يف بما تعهد لهم به من الاضطلاع بنفقات حملة «نور الدين» وتخصيص ثلث إيراد مصر لسلطان حلب كجزية سنوية وتناسي وعوده المعسولة لنور الدين ورفض أن يدفع المال المتفق عليه لشيركوه، بل طلب منه سرعة الخروج من مصر[1]، ويا ليته اكتفي بهذا الموقف السلبي بل إنه مد يده إلى الصليبيين واتخذ من أعدائه بالأمس أصدقاء ضد شيركوه الذي كان قد احتل بلبيس ردًا على موقف شاور الناكر للجميل، واستمر شيركوه في فتح باقي البلدان المجاورة، وأرسل صلاح الدين نائبًا عنه في تلك البلاد؛ يجمع منها الخراج النقدي والعيني، وتمكن صلاح الدين من السيطرة على الحوف الشرقي «إقليم الشرقية»، بينما ظل شيركوه محاصرًا للقاهرة وشاور بها. وبهذا تعتبر الشرقية أول إمارة نورية تابعة لإمارة نور الدين محمود تأخذ بالمذهب السني، في حين أن باقي الإقليم المصري كان لا يزال على المذهب الشيعي الفاطمي[2].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥.

(٢) محمد فتحي الشاعر، الشرقية في عصري السلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، ط١٩٩٧، ص٢٦، ٢٧، وللمزيد انظر: نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية (القاهرة، ١٩٥٣م)، ص١٤١ وما بعدها.

تقدم عموري ملك بيت المقدس نحو بلبيس أواخر شعبان وأوائل رمضان (سنة ٥٥٩هـ)، وضيق الخناق على شيركوه في بلبيس، حيث أخذ شيركوه يقوي دفاعاته عن مدينة بلبيس، وساعده عرب كنانة - الضاربون بالحوف الشرقي - مساعدة كبيرة بالأموال والسلاح، وانضموا لصفوف قواته[١].

وتمكنت قوات الصليبيين من محاصرة شيركوه داخل بلبيس لمدة ثلاثة أشهر، ولم يرفع الحصار إلا بعد أن جاءته الأنباء بأن نور الدين أخذ يهوي بجنوده على أملاك الصليبيين في الشام، فصمم عموري على العودة سريعا، وفاوض شيركوه في الصلح - ولم يكن يدري أنباء انتصارات نور الدين- فقبل واتفقا على أن تغادر جيوش الطرفين مصر. (وفي أكتوبر سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م) غادر جيش شيركوه وتلاه جيش عموري.

ولقد تحدث المقريزي عن مقتل عدد كبير من بني كنانة بالشرقية الذين ساعدوا شيركوه في صد حصار عموري له، وهذا يدل على المعاناة والآلام التي لقيها سكان الحوف الشرقي وعاصمته بلبيس[٢]. ولم تقف مطامع الصليبيين والدولة النورية عند هذا الحد نحو مصر بل نرى الرواية لم تتم فصولها، فقد عول نور الدين على أن يرسل جيشه هذه المرة غازيًا بعد أن تكشفت أمام رجاله مواطن الضعف في مصر، كما طلب شاور (وقد خاف مغبة مجيء قوات نور الدين محمود) من الصليبيين أن يرسلوا حملة إلى مصر لتمنع هجمات جيوش نور الدين، ولم يلبس الجيشان السلجوقي (جيش نور الدين) والصليبيين أن هبطا مصر معًا في وقت واحد وعاد شيركوه إلى بلبيس وأخذ يقوي دفاعاته استعدادًا للمقاومة ضد الخطر الصليبي المحدق بها وساعده أهل الشرقية مساعدة كبيرة بالأموال والسلاح، فضلًا عن انضمامهم إلى صفوف قواته

(١) علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك، مرجع سابق، ص٢٥.
(٢) أحمد شحاته سرحان، دراسات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية الدولة الفاطمية، ط. جامعة الزقازيق، ١٩٩٨/١٩٩٩م، ص٣٧١.

وبينما كانت قوات الحملة الصليبية بقيادة عموري، تحث الخطىٰ في أراضي الشرقية حتىٰ وصلت إلىٰ فاقوس في نفس الوقت كان شاور قد خرج بقواته إلىٰ بلبيس حين علم أن عموري وقواته قاربوا المدينة، والتقت القوتان علىٰ أبواب بلبيس في مواجهة شيركوه وبرغم ذلك فقد صمد شيركوه في الدفاع عن بلبيس مدة الثلاثة أشهر في قتال دائم صباح مساء، وهناك دخل اليأس نفس عموري وبدأت المفاوضات بينهما وانتهي الأمر بأن تصالح الطرفان علىٰ إخلاء مصر منهما معا، واتفقا علىٰ عدم التدخل في شئون مصر أو الاعتداء عليها[1]. وعاد الفرنجة إلىٰ فلسطين أشد ما تكون نفوسهم تحرقا إلىٰ مصر وخيراتها، وعاد شيركوه إلىٰ الشام، ولم يمض عام واحد علىٰ الهدنة حتىٰ نقض عموري عهوده ليغزو مصر من جديد ناسيا ما أبرمه من مواثيق بحجة أن لا عهد عليه لكافر (يقصد أسد الدين شيركوه). وغادر عموري عسقلان في (٣٠ من يناير سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م) بقواته، متوجها إلىٰ الشرقية ومصر للمرة الرابعة، وفي أيام قلائل كانت جيوش الصليبيين عند بلبيس حيث استراح عموري بها شهرًا وحمل إليه شاور الأموال والهدايا ثم غادرها في طريقه إلىٰ القاهرة حيث نزل حولها ويبدو أن شيركوه قد اتخذ طريقه نحو الجيزة ثم توالت الأحداث حتىٰ وصل إلىٰ الإسكندرية ليجد العون والمساندة ومرة أخرىٰ ينتهي الأمر بعقد اتفاق علىٰ أن يغادر الطرفان مصر في وقت واحد.

وفي جولة الصراع الأخير بين عموري وقوات نور الدين للاستيلاء علي مصر خرج عموري الأول (ملك بيت المقدس) وأسد الدين شيركوه (قائد قوات نور الدين محمود صاحب دمشق) وكلاهما يمني النفس بالاستيلاء عليهما ولكن أسد الدين شيركوه كان أكثر تحرقًا إلىٰ مصر لما رآه من تعاون شاور مع أعداء

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧٤. وللمزيد: انظر: أحمد السيد: الحوف الشرقي، رسالة دكتوراه، آداب الزقازيق، ١٩٩٥، ص١١١-١٤٥.

الأمة وهنا يضرب (الكامل) ابن الوزير شاور المصري المثل والقدوة للشاب العربي المصري الذي يقف ضد مطامع والده - ليس عقوقًا له - بل لصالح الأمة الإسلامية والعربية وجاهر والده بذلك حين عزم شاور علىٰ قتل شيركوه مدعيًا أنه إن لم يقتله فسوف يقتلهم شيركوه. فقال لوالده: «لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج»، وهذا أبلغ دليل علىٰ أن هذا الشاب المصري (الكامل بن شاور) كان مدركًا للخطر الصليبي المحدق بالمنطقة وببلاد الإسلام.

وفي (منتصف المحرم سنة ٥٦٤هـ) اتجه عموري إلىٰ الشرقية ووصل إلىٰ أطراف بلبيس في أول صفر، غير أن عموري لاحظ تغييرًا في موقف المصريين من أهل الشرقية منه، فقد أغلق الأهالي المدينة، ولكنه استطاع فتح بلبيس بالقوة وأمعن في أهلها فتكًا وقتلًا ولم يفرق بين مسلم ومسيحي[١]، وتمت مجزرة هائلة كان أبطالها ممن يدعون أنهم جنود المسيح وفرسانه الذين ذبحوا كل من وقع في أيديهم من الرجال والنساء والأطفال، وبعدما رأي شاور فظائع الفرنجة، بهت بما حدث عول علىٰ أن يصد تيار عموري فأحرق الفسطاط في وجهه وظلت بها النيران أربعة وخمسين يومًا حتىٰ تركها قاعا صفصفا ثم أخذ في مفاوضة عموري وعرض عليه المال بقصد كسب الوقت ريثما تأتي النجدة من لدن نور الدين الذي استعان به الخليفة العاضد بنفسه حتىٰ أرسل إليه خصلًا من شعور نساء قصره داخل خطاب رقيق جاء فيه: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الإفرنج». فلم يسع نور الدين إلا أن أرسل جيوشه تحت إمرة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين فوصلوا مصر في (ربيع الأول ٥٦٤هـ)، وفي نفس الوقت اتخذ عموري خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس، ثم التقدم نحو بلبيس، ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة قوات شيركوه وهي قادمة متعبة من

---

(١) نفسه، ص٣٧٨. مع صفحات متنوعة.

الطريق قبل التحامها مع القوات المصرية، ولكن أعلمه جواسيسه بأن شيركوه قد تقدم في طريقه للقاهرة، وفي (٣ يناير ١١٦٩م) (ربيع الأول ٥٦٤هـ) سار الجيش الصليبي في طريقه لفلسطين، بعد أن غادر فاقوس[١].

وقد ذكر أبو شامة أن عموري قد قسم أسرىٰ بلبيس إلىٰ فرقتين بعد إخراجهم إلىٰ ظاهر المدينة، وأخذ نصفهم لنفسه وأطلق النصف الباقي لجنوده، وقيل إن عدد الأسرىٰ الذين خرج بهم عموري من مصر أثناء عودته بلغ اثني عشر ألف أسير، وقد ورد أن أسرىٰ بلبيس هؤلاء ظلوا في أسر الصليبيين طوال أربعين عاما، وأن أكثرهم مات في الأسر، وحيث تولىٰ صلاح الدين مصر أوقف موارد بلبيس والشرقية علىٰ افتداء أسراها، كما سامح أهالي بلبيس من دفع الخراج المقرر عليهم حتىٰ آخر أيامه. وهذا يدل علىٰ مدي تقدير صلاح الدين لدور أهالي بلبيس واستبسالهم في التصدي للهجمات الصليبية الشرسة[٢].

ويبدو أن عموري حين سار بقواته البرية نحو مصر قادما من عسقلان أرسل قوة بحرية قوامها ثلاثون مركبا حربيا، للمعاونة في الاستيلاء علىٰ مصر وأن هذا الأسطول انحدر إلىٰ بحيرة تنيس (وهي مدينة مندثرة)[٣] واستولىٰ علىٰ المدينة ونهبوها، ثم استمر انحداره في النيل باتجاه القاهرة، لكنه لم يتمكن من التقدم أكثر مما وصل إليه بالقرب من ناحية «منية زفتي» مقابل «منية غمر» الواقعة علىٰ الشاطئ الشرقي لفرع دمياط وذلك بسبب العراقيل التي وضعها المصريون من أهالي الحوف الشرقي في مجري النهر وتمكنوا بذلك من إجبار الأسطول الصليبي

---

(١) محمد فتحي الشاعر، مرجع سابق، ص٣٦-٣٧.

(٢) أحمد سرحان، دراسات في تاريخ مصر، ص٣٧٩، ٣٨٠.

(٣) كانت تنيس كورة الشرقية في العصر الإسلامي من أكثر كور مصر السفلىٰ ازدهارًا من الناحية الصناعية فقد مورست الصناعات فيها خلال هذا العصر في أربعة مراكز مهمة هي تنيس وتونة وبلبيس والفرما. انظر: عاصم محمد رزق: مراكز الصناعة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتىٰ مجيء الحملة الفرنسية. (سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٦٨، القاهرة ١٩٨٩م)، ص١٦٢.

على العودة بمراكبه فرارا، وقد أكد ذلك المؤرخ وليم الصوري[1].

وهكذا أثبت أهالي الشرقية تحديهم لجحافل الصليبيين حيثما حلوا – في البر أو البحر – وكان من نتيجة ذلك أن نصب الصليبيون لهم المذابح حيث تمكنوا منهم كما سبق ذكرنا. وحين دخل شيركوه القاهرة وقابله المصريون بالترحيب إلا شاور الذي عاوده مكره القديم ففكر في أن يبيت النية لجيش المسلمين، ولكن الله رد كيده في نحره فقبض عليه صلاح الدين وأسره. ولما أحاط الخليفة العاضد بالأمر علما أرسل من يطلب رأس شاور ثم تابع الرسل خشية أن يفر وجيء برأسه إلى الخليفة الفاطمي العاضد الذي جن فرحًا للتخلص من غدار أثيم في (أواخر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/يناير ١١٦٩م).

وعهد العاضد بعد ذلك بالوزارة إلى شيركوه، ونظرًا لحرص شيركوه على الدفاع عن الشرقية، جعلها بأسرها إقطاعًا لقراقوش (كان خادمًا لأسد الدين شيركوه وكان خصيًا أبيض اللون)[2] – وجنوده البالغ عددهم ٣٠٠٠ جندي في مقابل حماية المدخل الشرقي للبلاد ضد الصليبيين. ومن بعد شيركوه تولى صلاح الدين الوزارة الذي قاد انقلابًا سياسيًا في (عام٥٦٧هـ/١١٧١م) للقضاء على الخلافة الفاطمية وأعاد الخطبة للخلافة العباسية في بغداد، وأمر الخطباء بالدعوة للخليفة العباسي «المستضيء» في السابع من المحرم وأعاد ارتداء السواد شعار العباسيين وخطب لصلاح الدين علي المنابر بعد الخليفة العباسي ونور الدين وتوفي الخليفة الفاطمي «العاضد» بعد هذا الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال ملكه وسقوط دولته.

وظلت الشرقية طوال عصر الأيوبيين مركزًا للنشاط الحربي والسياسي، ففي (عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م) خرج صلاح الدين من بلبيس محاولًا تحرير عسقلان من

(١) نقلًا عن: أحمد شحاتة سرحان: الحوف الشرقي، ص٣٨٢.

(٢) محمد فتحي الشاعر، مرجع سابق، ص٣٧.

الفرنجة ولكنه لم يستطع، وعاد ثانية إلىٰ مصر، وفي نفس العام أغار الصليبيون علىٰ بلد فاقوس لكنهم لم يحتلوها، وأغار الفرنجة علىٰ إقليم الشرقية (عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) وخاصة بلبيس مما اضطر الأهالي هناك إلىٰ الجلاء عن المدينة وعرف ذلك باسم «الهجة الكبرىٰ» غير أن الصليبيين لم يدخلوا بلبيس وإنما أسروا مائتين وعشرين رجلًا واستولوا علىٰ عدد من الأغنام.

وتكرر خروج القوات المصرية من بلبيس، لمساعدة صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين، كما حدث سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م - بقيادة الملك العادل، وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م بقيادة الأمير حسام الدين أبي الهيجاء، وعام ٥٨٨هـ/١١٩٢م بقيادة ملك الدين شقيق الملك العادل وهي القوات التي خرجت لنجدة بيت المقدس[1].

وفي السابع من يناير عام (٥٨٩هـ/١١٩٣م) يسجل فيضان النيل بمقياس الروضة (٨قيراط و١٨ذراع) وكان صلاح الدين بدمشق آنذاك علىٰ أكمل ما يكون من الصحة وكأن الدنيا قد جمعت في يده والقدر يخدمه بانطلاقه من مصر لبلوغ مرامه ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. فإذا بالعافية قد شمرت الذيل والمنية قد دنت وإذا حضر أمر الله فلا مرد لقضائه وعجز الطب عن شفائه بعد أن لحق به كسل عظيم ورعشة شديدة لينتقل إلىٰ جوار ربه في يوم (١٦صفر ٥٨٩هـ/١١٩٣م) وبعد عصر صلاح الدين.. شهدت الشرقية النزاع الذي حدث بين الملك العادل (شقيق صلاح الدين) وابن أخيه (الملك الأفضل صاحب دمشق) ضد السلطان (الملك العزيز عثمان) سلطان مصر عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) ويرجع سبب ذلك، لخروج الأمراء الأسدية عن طاعة السلطان الملك العزيز الذي كان قد حل أقطاعاتهم لإقامتهم بدمشق، فحرضوا العادل والأفضل علىٰ غزو مصر وانتزاعها من الملك العزيز، ويبدو أن الملك العادل وافق علىٰ ذلك لشدة قوة الأمراء الأسدية وخشيته من أن يستأثروا وحدهم بمصر في حالة

(١) أحمد عبد الرازق، مصر الإسلامية، ص١٦٥.

إسقاطهم لحكم الملك العزيز. وحاصر الملك العادل بلبيس[(١)] بعد تحصن العزيز بها إلى أن تم الصلح بينهما.

ثم شهدت الشرقية معركة بين العادل وابن أخيه الأفضل وذلك بعد وفاة الملك العزيز عثمان سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) وتحصن الأفضل في بلبيس ولكن بعد علمه بوصول عمه العادل إلى قطيا سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) أسرع لملاقاة عمه عند الخشبي - على مدخل وادي السدير - ولكن تخلى عن أفضل بعض جنوده، الأمر الذي جعله ينسحب إلى بلبيس ثم تمركز في منطقة السائح - عند فاقوس - والتقى مع عمه في معركة سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م)، انتهت بهزيمة جنوده وهروبه للقاهرة ليلًا واستسلم لعمه وترك مصر[(٢)].

وعلى أرض الشرقية أيضًا جرت إرهاصات ميلاد الدولة المملوكية، وعند سفح

---

(١) بلبيس: فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ أو ١٩هـ، وجاءت في قاموس أقلاديوس Plebes، بلبيس أو مدينة الخندق مدينة بمصر السفلى بقرب سلسلة جبل العرب منفصلة عن الصحراء المؤدية إلى البحر الأحمر كائنة بالشرقية الآن وكانت دار الأسقفية وآثارها قليلة وهي توجد شمال شرقي بلبيس الحالية، وذكر المقريزي في خططه أن بلبيس في التوراة هي أرض جاشان وهي من بلبيس إلى العلاقمة وفيها عدة بساتين وأهلها ذوو يسار ونعم سنية، وورد في قوانين ابن مماتي وفي تحفة الإرشاد من أعمال الشرقية وردت في معجم البلدان بلبيس (بفتح الباء) وقال العامة وبلبيس مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. وجاء ذكرها في التوراة «أرض مصر قدامك في أفضل الأرض أسكن أباك وأخوتك ليسكنوا في أرض جاشان» (سفر التكوين إصحاح ٦/٤٧): «يقول ابنك يوسف قد جعلني الله سيدا لكل مصر انزل إلى لا تقف فتسكن في أرض جاشان وتكون قريبًا مني أنت وبنوك» (سفر التكوين إصحاح ١٠/٤٦). ويقال أن كلمة بلبيس تتكون من لفظين أو كلمتين هما: بعل وبس، وكانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقي أيام العرب ثم قاعدة الأعمال الشرقية من أيام الدولة الفاطمية إلى آخر الحكم الجركسي (دولة المماليك) ثم قاعدة الولاية الشرقية إلى (سنة ١٨٣٢م) وفي تلك السنة أصدر محمد علي والي مصر أمرا بنقل ديوان الشرقية والمصالح الأخرى إلى مدينة الزقازيق لتوسطها بين بلاد المديرية.انظر: السيد عاشور: بلبيس بلد الأنبياء والرسل دراسة تاريخية تأصيلية (مكتبة الغد، القاهرة، دون تاريخ)، ص٣٣.

(٢) محمد فتحي الشاعر، مرجع سابق، ص٣٩، ٤٠.

الشرقية وفي ذات الوقت عُزف لحن الختام وجرت آخر حلقة من حلقات نهاية الدولة الأيوبية (٥٧١-٦٤٨هـ/١١٧٥-١٢٥٠م). وذلك في معركة وادي السدير يوم (الخميس ١٠ ذي القعدة ٦٤٨هـ)، فبعد خلع شجر الدر نفسها من سلطنة المماليك لرفض الخليفة العباسي لتولي امرأة أمر المسلمين، ولثورة الرأي العام المصري ضد شجر الدر ورفض حكام بلاد الشام من بني أيوب الاعتراف بها تولى سلطنة الدولة المملوك المعز أيبك في (ربيع الآخر ٦٤٨هـ/يوليو ١٢٥٠م) وأصبح الأيوبي الأشرف موسى شريكًا للمعز أيبك في الحكم.

ولكن نادي بعض الناس وعلى رأسهم الأمراء في غزة بطاعة الملك (المغيث عمر بن العادل) حاكم الكرك وحضر بعض أمراء الشام إلى الصالحية بالشرقية وأقاموا الخطبة للملك المغيث يوم (الجمعة الرابع من جمادي الآخر ٦٤٨هـ/ ٣سبتمبر١٢٥٠م)، بالإضافة أنه قد سبق ذلك ثورة قبائل الشرقية والبحيرة ضد المماليك بزعامة «حصن الدين بن ثعلب» واستطاع المماليك القضاء على ثورة حصن الدين بن ثعلب.

واستعد المماليك للقاء الملك الناصر عند الصالحية اعتقادا منهم أنه سيمر عليها، فإذا بالملك الناصر يحتل قطيا يوم (السبت ٢٨ يناير ١٢٥١م) وواصل السير إلى كراع[1]، وهي قريبة من السدير فوصلها في (٣٠ يناير ١٢٥١م)، ثم قام الملك الناصر بنقل قواته من الصالحية إلى سموط[2]، وأصبحت القوات الأيوبية في مواجهة جيش المماليك وانتهت المعركة بهزيمة المماليك وبقي الناصر

---

(١) كراع: قرية من توابع مركز أبي حماد بمحافظة الشرقية وقد اندثرت ومحلها عزبة السملوني، انظر القاموس الجغرافي لمحمد رمزي، ص٣٥٦

(٢) سموط: قرية اندثرت ومحلها عزبة تل سمامود غربي محطة القصاصين وعلى بعد ٤ كيلومترات منها. انظر محمد رمزي، القاموس الجغرافي، ص٣٥٦

بكراع وتقدم جنوده نحو العباسة[1]، وبعد عدة مناوشات انتصر المعز أيبك، وحين حاول دخول العباسة لم يستطع لوجود جنود الناصر يوسف بها فاتجه نحو العلاقمة[2]، ثم ذهب إلىٰ بلبيس ودخل القاهرة وحبس الأمراء المأسورين من بني أيوب بالقلعة، ورغم انتصار المعز أيبك في معركة وادي السدير. وتدخل الخليفة المستعصم العباسي لإنهاء الخلاف بين الملك الناصر والمماليك، وكان الصلح (سنة ١٢٥٢م)، وهكذا كانت معركة (وادي السدير) لحن الختام الحزين للدولة الأيوبية وثبتت أقدام المماليك أكثر من قرنين ونصف من الزمان.

- **شرقاويات مملوكية (٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)**

يتوقف إيقاع الزمن علىٰ مشارف الشرقية التي تحمل ملامح العصور المولية نتلمس أصداء العابرين والغابرين، والمعتدين، والمنتصرين، نخطو بداخل القصور التي شيدها سلاطين المماليك وأمراؤهم ومماليكهم بقرب سرحات الصيد بالصالحية، والعباسة، والعزيزية، نبحث عن عروشهم، وقدور المطابخ النحاسية الكبيرة الحجم كدليل علىٰ رفعة قدر صاحبها ودليل كرمه، نسمع صدىٰ كاسات شراب الليمون المضاف إليه السكر، وشراب التفاح، وشراب الورد العطري، وشراب الخوخ، وشراب العناب، وشراب الفقاع الذي يصنع من

---

(١) العباسة: سميت بهذا الاسم نسبة إلى عباسة بنت أحمد بن طولون حين خرجت تودع بنت أخيها قطر الندي لتزف للخليفة المعتضد العباسي فضربت عباسة خيامها بهذا الموضع ثم بنت قرية سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وسميت عباسة باسمها. وولد بها الملك الأمجد تقي الدين عباس بن العادل أبي بكر بن أيوب. انظر: محمد عبد الله عنان مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، ص٩٦.

(٢) العلاقمة: وردت في معجم البلدان بأنها بليدة (بلد صغير) في الحوف الشرقي في أرض مصر دون بلبيس وكانت العلاقمة قاعدة لمركز الصوالح وفي سنة ١٨٩٦ نقل منها ديوان المركز إلىٰ ههيا لوجودها علىٰ السكة الحديدية، انظر القاموس الجغرافي لمحمد رمزي.

الشعير الشرقاوي بمذاقه المميز، فنجدها قد اندثرت بين ثنايا الدهر، وأخمدت نيران المطبخ السلطاني، وأغلقت حوانيت الطباخين أبوابها وولى هذا العالم الساحر بين طيات الزمان[1]، نقتفي خطي ابن الشرقية الشهم ببنيته القوية، وعمامته المطوية فنجده تواري بين طيات الزمان، يرنو بصرنا بلهفة داخل سرحات صيد الغزلان والحقول والبساتين بحثًا عن المزارعين والحرفيين المبدعين فلا نقف لهم على أثر فنمضي في طريقنا لنشهد مع المماليك سنوات الانتصار والانكسار.

كانت البداية مع أحداث الحملة الصليبية السابعة التي انتهت سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) بأسر الملك لويس التاسع وتبدد زهرة فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وجريح وأسير عقب الهزيمة المخزية التي أوقعها به الجيش المصري في المنصورة وكانت بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك التي حكمت مصر في الفترة (٦٤٨هـ/٩٢٢هـ-١٢٥٠/١٥١٧م)[2] لتدخل مصر حقبة جديدة من تاريخها تحت حكم هؤلاء الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامي لا سيما في مصر والشام ليؤسسوا دولة بدأت بلعبة تولت خلالها شجر الدر السلطنة وتلقبت بعصمة الدين أم خليل واستمرت حتى وصلت إلى طومانباي الذي يعد آخر السلاطين.

ماتت أول سلطانة لهم بالقباقيب وظلت ملقاة في خندق القلعة حتى سرق اللصوص ملابسها الداخلية ومات آخرهم حين اهتز جسده في مشنقة على باب زويلة فما أشبهه البداية بالنهاية[3].

---

(١) جيهان مأمون، سيرة المماليك، ص١٦٢ بتصرف.

(٢) على السيد على، الأيوبيون والمماليك، مرجع سابق، ص٨٦. وانظر:عمرو عبد العزيز: العمران في مصر، رسالة ماجستير سابقة، ص٧٥.

(٣) فتحي الشاعر: مرجع سابق، ص٤٠-٤١.

في سنوات الغليان تلك قامت الشرقية بدور مهم في الحياة السياسية والحربية في عصر سلاطين المماليك، إذ كانت هي مركز الثقل بالنسبة لباقي القبائل العربية بمصر، ولكثرتهم العددية في هذا الإقليم (ومن المعروف أن صلاح الدين أقطع عرب الشرقية أقطاعات بالشرقية في مقابل القيام بالخدمات الحربية في الجيش السلطاني، حيث تعهدوا بتقديم عدد محدد من الفرسان، كاملي العدة للمشاركة في المجهود الحربي)، وعلى ذلك يمكن القول أنهم اشتركوا في الحملات التي خرجت من بلبيس أعوام (٥٧٣هـ/١١٧٧م)، (٥٨٢هـ/١١٨٦م) (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م)[١].

وقد كافأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب عرب الشرقية بأن منح لقب أمير لـ(معبد بن منازل)، من قبيلة جذام، كما تعهدت القبائل العربية بالشرقية بتقديم الإبل والخيول لمراكز البريد، والسهر على حراسة الأدراك (جمع الدرك وهو الطريق)، ونقل الغلال[٢].

ولكن منذ مقتل توران شاه وقيام الدولة المملوكية، اتصل عرب الشرقية بالملك الناصر يوسف صاحب دمشق وطلبوا منه الحضور إلى مصر للقضاء على حكم المماليك، ويذكر أن الناصر يوسف استطاع الهروب - بعد فشل معركة وادي السدير - بمساعدة شخص عربي من الشرقية يدعي نوفل البدري. وقد كان (عرب الشرقية وأهلها) يتعاونون تعاونا مخلصا عندما تتعرض البلاد للخطر، فقد اشتركوا مع زملائهم عرب وأهل الغربية مع المماليك ضد التتار في موقعة عين جالوت (سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، في عهد السلطان(سيف الدين قطز)، وقدموا الكثير من الأموال، وكانت الصالحية مركزا لتجمع الجند الذين انطلقوا للقاء العدو أغسطس ١٢٦٠م[٣].

(١) نفسه، ص٤٣.
(٢) السيد محمد عاشور: بلبيس بلد الأنبياء والرسل، دراسة تاريخية تأصيلية، مكتبة الغد، ١٩٨٩، ص٣١.
(٣) محمد رمزي، القاموس الجغرافي، جـ١،القسم الثاني، ص١٠٠.

وقد ظل عرب الشرقية يمثلون ثقلًا سياسيًا وحربيًا مهمًا طوال عصر المماليك، ولذا نجد أن المماليك كانوا يطلبون مساعدتهم عندما يشب الصراع بين بعضهم البعض، فعند ما نشب الصراع بين بلبغا الناصري وبين السلطان برقوق(سنة ٧٩١هـ/١٢٨٨م) لجأ الأول لمساعدة الأمير (شمس الدين محمد بن عيسىٰ) كبير إحدىٰ قبائل الشرقية حيث أكرم بلبغا أثناء وجوده بالصالحية، وحين هرب الناصري إلىٰ الزنكلون[١]. وحدث بها قتال بين بلبغا الناصري ومعه خمسون فردا من المماليك ضد منطاس انضم عرب قبيلة العايد ليلبغا لكنهم هزموا[٢].

واشترك عرب الشرقية مع المماليك ضد تيمورلنك حيث قدم (شيخ بني وائل) ألفًا وخمسمائة فارسًا وتم إعدادهم للحرب (سنة ١٤٠٠م)، وأبدىٰ شيخ العرب (أحمد بن بقر) تعاونًا مع السلطان قايتباي عندما نفذ رغبة السلطان وذلك بقتل خمسة عشر أميرًا من المماليك الأسرىٰ الذين تم أسرهم في خان يونس وكانوا في عهدة (الأمير الدوادار) وكانوا مكبلين في الحديد في أرجلهم، ولما وصلوا إلىٰ الخطارة استلمهم (أحمد بن قاسم بن بقر وذهب بهم جميعًا إلىٰ فاقوس وقتلهم جميعًا تحت جميزة، وقطعت أرجلهم للحصول علىٰ القيود الحديدية ثم رماهم في بئر خربة (١٤٩٥م)، بعد وصولهم للخطارة[٣]، وتعاون عرب الشرقية مع إخوانهم عرب الغربية والصعيد مع المماليك في عهد قانصوه الغوري حين ذهب لحلب إبان الصراع الدائر بين إسماعيل الصفوي وابن عثمان حتىٰ يمكن الدفاع عن البلاد.

---

(١) الزنكلون: من أعمال مركز الزقازيق الآن واسمها الأصلي سنكلوم ووردت في مباهج الفكر وفي تاج العروس بأن اسمها علىٰ لسان العامة زنكلون وعرفت بالزنكلون في العهد العثماني فوردت ضمن دفتر المقاطعات سنة ١٠٧٩هـ؛ محمد رمزي، القاموس الجغرافي، جا،القسم الثاني، ص٣٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥٦.

(٣) الخطارة: تتبع مركز فاقوس، عرفت بخريطة الحملة الفرنسية باسم الخطاطر (انظر محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جا ، قسم ٢، ص١١٢).

وفي عهد المماليك قام العرب في الشرقية وغيرها بثورات كثيرة وقتل منهم عدد كبير ففي (سنة ١٢٥٤م) أيام سلطنة المعز أيبك أنف (حصن الدين بن ثعلب) وهو من كبار العرب وقوادهم من سلطنة المماليك، وثمة عبارة ينسبها المؤرخون إلى هذا الرجل وهي: (نحن أصحاب البلاد، بل وإنا أحق من المماليك بها، وقد كفي إنا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا على هذه البلاد. فأشعلوا نيران الثورة على إثر مقتل (توران شاه) (وهو ابن الصالح نجم الدين أيوب) على يد المماليك ولكنهم انهزموا شر هزيمة[١].

قام المماليك (سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) بتسمير (صلب) أمير العرب بالشرقية (علي بن نجم) بالإضافة إلى عشرين شخصا من أكابر قومه لقتلهم اثنين من أبناء أحد كبار موظفي الشرقية. كما فرض بعض سلاطين المماليك غرامات مالية كبيرة على زعماء القبائل بالشرقية، كما فعلوا مع (ابن بقر) من قبيلة جذام و(ابن عبس العائذي) كوسيلة للقمع (عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م)[٢].

واتبع المماليك أسلوب العنف أحيانًا حين هاجموا عرب (بني زهير) من قبيلة جذام وتم إشهارهم (تجريسهم) على ظهور الجمال، لكن (بني زهير) تمادوا في أعمالهم التخريبية، ولذلك قام السلطان برقوق (عام ٧٩٣هـ) بالقبض على ابن فضالة شيخ عرب بن زهير وضربه بالمقارع وشملت حركة القمع أيضًا عرب بني وائل بالشرقية حيث تم تسمير نحو ٣٠ منهم ووضعوا الباقين في سجن الخزانة (عام ٨٠٠هـ/١٤١٥م)، وحاول السلطان المؤيد شيخ مقاومة عرب الشرقية وأرسل إليهم عددًا من الأمراء في العام التالي (٨١٩هـ/١٤١٦م) ونجحوا في ذلك،

---

(١) فتحي الشاعر، مرجع سابق، ص١٣، وللمزيد انظر أبو الفدا: تقويم البلدان ص١٠٨.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص١٥. عمرو عبد العزيز منير: رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص٨٦، عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور، ص٤٣.

واتبع السلطان جمقمق أسلوب الملاينة مع عرب الشرقية وأرسل سنة (١٤٤٥م) زين الدين الاستادار[١] إلى بلبيس للنظر في شئون العرب بالشرقية[٢].

وفي عهد السلطان قايتباي أصدر أمر بشنق (قاسم بن بقر) أمير عرب جذام فشنق(سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، وقد قام المماليك بتعليق أمير العرب (سليمان بن قرطام) على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام (عام ٩٠٥هـ/١٥٥٠م)، ولجأ السلطان قانصوة الغوري لأسلوب الردع والسلخ والشنق لزعماء بعض القبائل، كوسيلة لإخماد ثوراتهم، حيث شنق (عمر بن موسى النفعي) من عرب تعلبة، وسلخ (أحمد بن شكر) وتم حشوه تبنًا وأرسل للقاهرة، وسلخ جلد (صالح بن قرطام) من بني حرام، فقام أهل قبيلته بقلع (جسر الحفاية) فساح على الأرض، واستطاع السلطان قانصوة السيطرة على الشرقية بعد أن زود واليها بخمسمائة من المماليك[٣]، وفي عهد الحكم العثماني قام عرب الشرقية وغيرهم من الفلاحين بثورات كثيرة تحت قيادة (ابن بقر)، وكثيرًا ما كانوا يهربون إلى فلسطين والشام. وتواتر هروب أبناء الشرقية ومصر في مدونات التاريخ حيث يقول ابن إياس في أحداث سنة (٩٢٧هـ/١٥٢٠م): «وأشيع أن الديوان مشحوت غاية الانشحات وأن ملك الأمراء عليه نحو ستين ألف دينار دينًا .. فحصل للفلاحين غاية الضرر من ذلك ورحل بعض الفلاحين من البلاد السلطانية من الظلم والجور» وذكر الرحالة (فولني الفرنسي) أنه شاهد المصريين في سوريا سنة (١٧٨٥م) أفواجًا

(١) الاستادار: هو لقب للذي يتولى تحصيل مال السلطان أو الأمير وصرفه وتمثيل أوامره فيه وهو لفظ فارسي أحدهما (استد) ومعناها الأخذ، ومعناها «المتولي للأخذ».

(٢) محمد فتحي الشاعر، مرجع سابق، ص٤٧. وانظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، مصدر سابق، ص١٢٧، وانظر: عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠، ص١٢٩. وانظر: كمال مغيث: مصر في العصر العثماني، الطبعة الأولى، مركز الدراسات القانونية، القاهرة ١٩٩٧، ص٧١.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٥٦.

وجماعات وقال إن أزقة صيدا وحيفا وسائر مدن وقرى فلسطين كانت تعج بالمصريين وقد توغل نفر منهم في اتجاه الشمال حتى (حلب وديار بكر). وفي عصر المماليك أصبحت بلبيس مركزًا تجاريًا مهمًّا إذ وجد بها عدة فنادق للتجار الأجانب[1]، وكان الفندق في بلبيس يتكون من طابقين وملحق به عدة حوانيت ومن فنادق بلبيس أحد الفنادق الموقوفة على «الرباط العلائي» نسبة للملك علاء الدين بن علي بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[2].

وكان خط سير القوافل عبر الشرقية إلى بلاد الشام زمن المماليك كما يلي: «بلبيس إلى القرين (القرين تتبع مركز أبي حماد شرقية) إلى الصالحية، إلى بئر الدويدار إلى قطيا. ومن قطيا (وهي آخر حدود الشرقية) إلى بئر المساعيد فالعريش»[3].

وهكذا لعبت الشرقية دورا بالغ الأهمية من الناحيتين السياسية والحربية في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك لتواصل دورها الفاعل في العهد العثماني وتلك قصة أخرى.

• العثمانيون والشرقية.. فتح أم غزو!!

ما أصعب الخيانة عندما تأتي من المقربين! ما أشد غدر الزمان وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان! كم هي مؤلمة صيحات الندم! كم هي قاسية قلوب البشر! هل يستطيع الزمان أن يمحو آثار الظلم ويزيل شروره؟ هل يستطيع

(١) محمد فتحي الشاعر، مرجع سابق، ص٤٨، ١١٢. وانظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٨٦.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص١١، ١٢.

(٣) فتحي الشاعر، مرجع سابق، ص٥٠، ٥١؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ط١٩٨٣، ص١٣. وانظر: ابن إياس: بدائع الزهور ج١، ص١٥، ج٢، ص٢١٧.

الإنسان أن يسبح عكس التيار بدون أن ينجرف إلى قاع النهر؟ بطل الأحداث ترك حكاية شعبية تمتلئ بالمفارقات المذهلة والمشاعر الإنسانية المتداخلة والآلام التي تنصهر وتتوحد في لحظة واحدة عند نهاية الطريق الذي بدأ، في معركة مرج دابق التي عكست مدي تردي الأحوال في دولة سلاطين المماليك حين دب الخلاف الشديد بين طوائف جيش السلطان الغوري، ولعبت الخيانة دورها المعهود إلى جانب التشرذم والتنازع، في هزيمة المماليك وسقوط السلطان نفسه صريعًا تحت سنابك الخيل في ميدان المعركة، واختفت جثة السلطان الصريع لتترك للمؤرخين مجالًا خصبًا للتكهن بمصيره، على حين تركت للصراع بين السلطان الأشرف طومانباي (آخر سلاطين المماليك) أن يكتب الصفحات الأخيرة من تاريخ تلك الدولة التي قطعت رحلة طويلة نسبيا في رحاب الزمان.

رفض طومانباي الخضوع للسلطان سليم العثماني وقرر أن يموت بشرف في ساحة المعركة.. ومضت القصة كما تمضي قصص الأبطال المأساويين في كل زمان ومكان، كانت الصفات التي تحلى بها طومانباي كفيلة بأن تجعل منه بطلًا تاريخيًا مهمًا؛ بيد أنه كان بطلا خارج عصره فقد كانت الدولة التي يقودها قد سقطت بالفعل حتى قبل معركة مرج دابق في الشام ومعركة الريدانية على مشارف القاهرة آنذاك (في موضع العباسية حاليًا) وقد بذل ذلك السلطان التعس الذي قدر له أن يكون آخر سلاطين الدولة المملوكية - خلال سلطنته التي امتدت ثلاثة أشهر فقط - جهودًا مضنية للدفاع عن الدولة، ولكن تلك الجهود ذهبت سدي لأن الدولة الرخوة كانت قد انتهت فعلا، وبذل طومانباي خلال سلطنته القصيرة التي استمرت ثلاثة شهور جهودا مضنية للدفاع عن مصر - التي كانت دارًا للخلافة الإسلامية منذ أن أحياها السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) وظلت بالقاهرة حتى دخول العثمانيين القاهرة سنة

(٩٢٢هـ/١٥١٧م). وحين اهتز جسد طومانباي في مشنقة على باب زويلة كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التي تحملت عبء التصدي للمغول والصليبيين ومهمة إحياء الخلافة الإسلامية[١]. وبهذا وقعت مصر في قبضة العثمانيين بعد هزيمة المماليك في معركتي مرج دابق (١٥١٦م) والريدانية (١٥١٧م).

وبدأ الغزو التركي لمصر، واتخذ الجيش العثماني طريقه بقيادة السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م). ودخل سليم الحدود المصرية ووصل إلى بئر العبد، ثم إلى قرية قطيا، وفي يوم الجمعة ٢٣ ذي الحجة (١٦ يناير) وصل إلى الصالحية، وفي اليوم التالي وصل إلى قرية الخطارة ثم إلى بلبيس في يوم (الأحد ٢٥ ذي الحجة). مكث السلطان العثماني فترة وجيزة في بلبيس، قدم له خلالهما بدو بني بقر المسيطرون على الشرقية الطاعة، وفي هذا السياق يذكر د. أحمد فؤاد متولي: «أن ولاء بدو الشرقية كان عاملًا مهمًا في نجاح العثمانيين لدخول مصر والسيطرة عليها؛ لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثماني في قتالهم وتهديدهم للقوافل المحملة بالمؤن للجيش العثماني». وفي (يوم الخميس ٢٩ ذي الحجة الموافق٢٢ يناير ١٥١٧ م) تلاقي الجيشان المملوكي والعثماني في الريدانية أمام قبر السلطان قايتباي قرب العباسية[٢]. لتنتهي أيام الحكم المملوكي ويبدأ الحكم العثماني لمصر الذي تسلم شهادة اعتماده من إقليم الشرقية.

وجدير بالذكر أن السلطان سليم الأول قبل وصوله إلى بلبيس أصدر منشورًا أن مدينة بلبيس ستكون في أمان وسلام ولن يصيبها أذي ولكن السلطان

---

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، مرجع سابق، ص١٥٥؛ جيهان مأمون، مرجع سابق، صفحات متنوعة بتصرف.

(٢) أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، مرجع سابق، ص١٨٣.

طومانباي كان قد تحقق من أن العثمانيين علي وشك دخول بلبيس أمر بحرق كل ما فيها من مؤن حتى لا يستفيد منها الجيش العثماني، وهكذا وقع ضرر الغزو العثماني كله على كاهل الشرقية وأهلها وبخاصة بلبيس[1]. وخاصة أن الكثير من عرب الشرقية قد وقفوا لفترة طويلة بجانب (طومانباي) ضد العثمانيين وبخاصة عربان الشرقية وبلبيس فكانوا يقبضون على من يلقونه من العثمانية ويقطعون رؤوسهم ويحضرونها بين يدي السلطان الذي يأمر بتعليقها على باب النصر أو باب زويلة[2].

وبعد الغزو العثماني «عقد العثمانيون مع القبائل العربية بالشرقية اتفاقيات أقروا فيها سيادة شيوخ تلك القبائل على المناطق التي كانت لهم السيادة فيها من قبل في العصر المملوكي، وتعهد الشيوخ بحفظ الأمن وتنمية الزراعة وجمع الضرائب من أراضيها، غير أن تلك الاتفاقات لم يكن من الممكن احترامها لوقت طويل وبدأت سيطرة القبائل العربية على الأقاليم الزراعية المتاخمة لمضاربهم مثل بنو بقر في الشرقية»[3].

وهدد العربان مدينة القاهرة نفسها وطرق التجارة مثلما هاجم عربان الصوالحة بالشرقية طريق القوافل على السويس[4]، ولم يهدأ أهالي الشرقية تجاه الحكم العثماني نتيجة العسف والظلم الواقع عليهم، ولعل ذلك أدى لقيام سلسلة من الثورات كانت نتيجة لسلسلة طويلة من الثورات والانتفاضات على الظلم والاستغلال المملوكي والتركي، كما عبرت عن وعي قومي ناجح وعن وعي سياسي مهم، وتمثل ذلك في ثورة أهل الشرقية بجانب سكان القاهرة ضد الحكام،

---

(١) السيد محمد عاشور، مرجع سابق، ص١١١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥، ص١٤٢.

(٣) كمال حامد مغيث، مصر في العصر العثماني (١٥١٧ -١٧٩٨م)، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، (ط الأولى، القاهرة، ١٩٩٧)، ص٨٠.

(٤) المرجع السابق، ص٨٢.

ويصفها بعض المؤرخين بأنها أول ثورة تطالب بالدستور في التاريخ المصري، ففي (سنة ١٢١٠هـ - ١٧٩٥م) جاء للقاهرة عدد كبير من فلاحي الشرقية يشكون ظلم أتباع محمد بك الألفي وطلبهم من الفلاحين ما لا قدرة لهم عليه، واستغاثوا بالشيخ عبد الله الشرقاوي[١]، ويسهب الجبرتي في الحديث عن أحداث تلك الثورة وتداعياتها[٢]، وجمع عبد الله الشرقاوي الشيوخ والعلماء وأغلقوا أبواب الجامع وأرسلوا إلى مراد بك وإبراهيم بك فلم يهتما وفي اليوم الثالث للثورة حضر الباشا في منزل إبراهيم بك، وكذلك الشيخ السادات والشيخ عبد الله الشرقاوي والبكري والشيخ الأمير، وانتهي النقاش إلى إبطال المظالم المحدثة والمكوس وكان القاضي حاضرا فكتب حُجة عليهم وقر عليها الباشا وختمها إبراهيم بك ومراد بك وهدأت الثورة وسمي هذا العام (بعام الحُجة)[٣].

وبانتقال السلطة الفعلية إلى أيدي الأمراء المماليك في القرن الثامن عشر وبتغليب نفوذهم على نفوذ البكوات العثمانيين لعب العربان دورًا كبيرًا في الفتن السياسية والصراعات العسكرية التي كانت تثور بين البيوت المملوكية مع استغلال تلك الصراعات لصالحهم.

ورغم ذلك فقد قام بعض العربان بدور سلبي في الحياة السياسية بمصر ومن هؤلاء العربان: عرب أولاد عبد الدايم وهم يسكنون الشرقية، وهم صورة من

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم، الشافعي المذهب، ولد كما يقول الجبرتي (في حدود سنة ١١٥٠هـ) في قرية «الطويلة» من إقليم الشرقية (تبع مركز فاقوس الآن) ولهذا لقب بالشرقاوي، حفظ القرآن في قرية «القرين» ثم قدم للأزهر لتلقي العلوم، وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ العروسي سنة ١٢٠٨هـ، وكان عمره سبعا وخمسين سنة، وكانت حادثة عام الحجة تنطق بما كان للشيخ من نفوذ ومكانة وحب للبلاد في عهد المماليك واشترك في تولية محمد علي باشا عرش مصر في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي- عجائب الآثار، جـ٤، ص٢٥٤.

(٣) نفسه، ص١٨٣ (وللمزيد انظر: محمد البهي، حسن إبراهيم حسن، محمد جمال الدين سرور، الأزهر تاريخه وتطوره، القسم الأول، مطابع الشعب، ١٩٦٤، ص٥٧، ٥٨).

صور الجانب السلبي للعربان في الريف فكان شيخهم عبد الدايم أحد أسباب الفساد في الشرقية، عمل من المفاسد في الشرقية ما لا يسمع بمثلها على حد تعبير المؤرخ ابن إياس. وقد تجمع طوائف من العربان وتحالفوا على التمرد ومنهم بنو عطية وبنو عطا وبنو حرام. وقد خرج الأمير قايتباي بنفسه وبصحبته عدد كبير من الجند من الجراكسة والعثمانية وقاتل القبائل المجتمعة[1].

وعلى جانب آخر شهدت الشرقية نهاية الحركة الاستقلالية لعلي بك الكبير عن الدولة العثمانية، على يد خادمه وخائنه محمد بك أبو الدهب عام ١٧٧٣م؛ حيث اتفق محمد بك أبو الدهب مع الدولة العثمانية على أن يعود إلى القاهرة ويتخلص من مخدومه علي بك الكبير الذي فر إلى سوريا وأصبح محمد بك أبو الدهب شيخًا للبلد عام ١٧٧٢م، وعندما تمكن على بك من تكوين جيش جديد وحين وصل إلى الصالحية في (٢٨ أبريل سنة ١٧٧٣م) حرك محمد بك قواته من العادلية نحو الصالحية وبدأت المعركة وانتهت بهزيمة على بك، وفي الثامن من (مايو عام ١٧٧٣م) مات على بك الكبير متأثرًا بجراحة، وخلصت مصر بكاملها لمحمد بك أبو الدهب بعد انتصاره بمعركة الصالحية[2].

ولم يمر قرن من الزمان على الفتح العثماني حتى أدى تصاعد نفوذ أمراء المماليك على سلب الوالي العثماني، أي سلطة حقيقية وتثبت العديد من الحوليات التاريخية ما أصبح للمماليك من نفوذ على الوالي العثماني[3]. ففي أحداث سنة (١١٣٤هـ/١٧٢٢م) يذكر أحد المؤرخين كيف تمكن المماليك من إجبار الوالي العثماني على الموافقة على محاربة عربان الشرقية فيقول: «ثم إن

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٢٢٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن، محمد جمال الدين سرور، الأزهر تاريخه ونفوذه، مرجع سابق، ص٣٢٧.

(٣) دانيال كريسيليوس، جذور مصر الحديثة، ترجمة عبد الوهاب بكر (نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٥)، ص٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩.

إسماعيل باك عمل جمعية في بيت عبد الرحمٰن أغا[١] وأجمعوا علىٰ إنهم يرسلون تجريدة إلىٰ سالم بن حبيب»، والعرض علىٰ الباشا وطلبوا علىٰ موجبه فرمانًا فأبىٰ ثم إنهم أخذوا الفرمان منه بالقهر عليه وعينوا علي بك وعبد الرحمٰن أغا باش التجريدة»[٢].

وهكذا كان الحال في عهد مراد بك وإبراهيم بك[٣]، حيث وصلت البلاد إلىٰ حالة سيئة اقتصاديا وسياسيا ترتب علي ذلك اهتزاز ثقة الناس في رموز الحكم وخلق حالة من الخوف لدىٰ الناس من التعامل معهم ولا تتواني قريحتهم في تغذية هذا الشعور بمجموعة من الأمثال مثل: (فرمن العسكري فرارك من الأجرب)، (جبناك يا سلطة تحمينا حميتي النار وكويتينا)، (لو كان دراعك عسكري اقطعه)، (يارب يا متولي مصيبة تاخد العثمانلي) .. ليدل ذلك علي وجود شحنات مكتومة من الغضب لدىٰ عامة الناس ضد رموز الحكم وسياسة النهب والقمع التي أتقنوها ليساهم ذلك في تعميق الروح الثأرية بين الناس والسلطة الحاكمة وتجلىٰ ذلك في الشرقية حين حدثت حوادث نهب قام بها الأصبهانية وهم فرقة من عساكر الأتراك ونهبوا بلبيس والصالحية فثار الفلاحون مما اضطر الأمراء لإحضار الجنود وتوبيخهم علي ذلك، هذا وقد بلغ عدد سكان بلبيس - حاضرة الشرقية في ذلك العصر - ما يقرب من ٣٠٠٠ نسمة[٤]. ورغم ذلك العسف والجور إلا أن الشرقية لم تفقد قدرتها علي العطاء

---

(١) أغا: الأغا تركية من المصدر أغمق، ومعناه الكبر وتقدم السن، وقيل إنها من الكلمة الفارسية «أقا» وتطلق علىٰ الرئيس والقائد وشيخ القبيلة، وعلىٰ الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. عبد المنصف سالم: مساجد مدينة الزقازيق، ص١٨١.

(٢) كمال حامد مغيث، مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص١٠٢.

(٣) السيد محمد عاشور، مرجع سابق، ص١١١.

(٤) عبد الرحمٰن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨، ص٦٤.

والمهارة في الصناعة والتجارة فيتحدث المؤرخ محمد أحمد بن إياس: «وأن المنسوجات الحريرية انتشرت في المناطق الشمالية من الوجه البحري نظرًا لسهولة استيراد الحرير من سوريا ولملائمة تلك المناطق للتصدير إلى أسواق الأقطار المجاورة، وقد أصبح لبعض البلاد شهرة واسعة في هذه الصناعة مثل: أنشاص»[1].

ولسوف نجد أنه رغم تعسف الحكم المملوكي التركي إلا أن الشرقية كانت من الأقاليم الأولى التي جادت بكل تضحية واحتملت صنوف العنت وضروب الأذى الذي احتملته سواء من المماليك أو الأتراك ونجدها وسط ذلك كله تشارك بصدق لتتخلص من الاحتلال الفرنسي (١٧٩٨-١٨٠١م) الذي جثم على أنفاس مصر في تلك الفترة لأن مصر لم تكن بلد المماليك أو الأتراك ولكنها بلد كل أبناء مصر.

• بونابرت في الشرقية

«في كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأسًا أكثرهم لزعماء الثورة، وفي اعتقادي أن هذا درسًا نافعًا»
(من مراسلات نابليون إلى رينييه)[2].

عبر تاريخ الشرقية الطويل الممتد لم تكن الأمور دائما سهلة ممهدة، تعرضت الشرقية وأهلها في فترات كثيرة للظلم والاستبداد، ولكن الروح الناس لا تهن والهمم لا تفتر، ففي أحلك الأوقات تنطلق الجذوة الكامنة ويتكاتف أهلها كالجبل الشامخ فيتصدون للبغي والعدوان بروحهم الثورية التي تأبي القهر، وفي العصر العثماني خضعت الشرقية كما خضعت مصر بأسرها

(١) كمال حامد مغيث، مرجع سابق، ص٣٤.

(٢) محمد عبد العزيز، بين احتفالات ثلاث، حولية قضايا العالم الإسلامي (أمتي في العالم) (١٤١٨-١٤١٩هـ)، (مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص٥٩ وما بعدها.

لحكم فرنسا مدة قصيرة لا تزيد على ثلاث سنين وشهرين. وعلى الرغم من قصر هذه الفترة كانت ذات شأن عظيم في تاريخنا القومي لأن هذا الاحتلال تمثل فيه أول دور من أدوار حركتنا القومية وأشعل أول شرارة من المقاومة الوطنية، وإن المتصفح لمؤلفات هذا الدور من أدوار مصر ليجد أن الشرقية كانت في طليعة الأقاليم التي جادت بكل تضحية واحتملت صنوف العنت وضروب الأذى لتتخلص من الاحتلال الغاشم الأجنبي.

ضمت الشرقية إذ ذاك بين أحضانها زعماء القوم الذين فروا من العاصمة بعد هزيمة إنبابة (إمبابة) فلجأ إليها إبراهيم بك ومعه نحو ألف وخمسمائة من المماليك وصحبهم وإلى مصر العثماني وهو بكر باشا ونقيب الأشراف وزعيم الشعب السيد عمر مكرم. وحمل أولئك الفارون ما أمكنهم حمله من أموال وتحف وذخائر وعسكروا في مدينة بلبيس فتطلعت إليهم أنظار المصريين وأصبحت الشرقية أحد مراكز المقاومة ضد الفرنسيين لما فيها من مقاومة لم تصل إليها مدافع الفرنسيين[1] أضف إلى ذلك أن الشرقية كانت في ذلك الوقت تفخر أن أحد أبنائها وهو (الشيخ عبد الله الشرقاوي) كان متوليا منصب مشيخة الأزهر - تولاه بعد الشيخ العروسي سنة (١٢٠٨هـ إلى ١٢٢٧هـ) (١٧٩٣-١٨١٢)[2] - فتقرب إليه الفرنسيون واستمالوه بشتى الطرق لاعتقادهم أن كلمته هي العليا وأن لها قيمة في تصريف الأمور، فآلت إليه رياسة الديوان الوطني وكان يشارك نابليون في إدارة شئون البلاد المختلفة وفي الوقت ذاته نجد كثيرًا من أبناء الشرقية قد رفعوا راية العصيان مع إبراهيم بك وبكر باشا فالتفوا حولهما وأخلصوا للسلطان العثماني أمير المؤمنين[3]. ورمز إقامة شرع الله في أرضه.

(١) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم (سلسلة الأعمال الفكرية مكتبة الأسرة ١٩٩٨م ص٢١٤، ٢١٥، ٢٤٩.

(٢) أحمد شلبي، أحمد الحوفي، الأزهر تاريخه وتطوره، مرجع سابق، ص٣٢٧.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص١٠٦ وما بعدها.

وكثيرًا ما حمل أعراب الشرقية منشورات أولئك الزعماء التي كانت تفيض ثورة وتثير حماسة المصريين ضد الغاصبين، يدلنا على ذلك ما قاله الشيخ الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار» في حوادث سنة ١٢١٣هـ (سبتمبر سنة ١٧٩٨م) «إنهم نبهوا على الأغراب من أعراب الشرقية وغيرهم والخدامين والبطالين ليسافروا إلى بلادهم»، ويقول في موضع آخر من نفس حوادث السنة «أنهم قتلوا شخصين من الشرقية وطافوا برأسيهما ينادون ويقولون: هذا جزاء من يأتي بمكاتيب من عند المماليك أو يذهب إليهم بمكاتيب»[١]. وقد ظهر تعاون عربان الشرقية مع المماليك جليًّا في مقاومة الحملة وآوي العربان الأمراء المماليك في المناطق النائية والمختلفة وقدموا لهم المؤن، كما كان العربان يقومون بحمل المكاتبات السرية بين المماليك وأنصارهم في القاهرة[٢].

وقد حاول نابليون الاستفادة من عرب الشرقية فلم تكن وسائل النقل ميسورة في ذلك الوقت فكثير من الخيل كانت في حالة سيئة مما اضطر معظم الفرسان إلى السير على الأقدام وقد أثقلتهم العدة والسيوف التي يحملونها، وعلاجًا للموقف اجتمع بونابرت بشيوخ ثلاث عشرة قبيلة من قبائل العربان في مقر قيادته وتم الاتفاق على أن يدفع ثمنها نقدًا وأن يؤجروا منهم ألف جمل وجمال ويردوا الأسرى الذين أسروهم أثناء زحف الفرنسيين على الإسكندرية، غير أنه لم يتم تنفيذ أي جانب من جوانب الاتفاق إلا فيما يتعلق برد الأسرى، وذلك أنه قبل تسليم الخيل والجمال وصلت رسالة إلى عرب الشرقية من علماء القاهرة ومشايخها تدعوهم إلى الجهاد ضد الغزاة وعدم التعاون معهم[٣].

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي، المختار من تاريخ الجبرتي (سلسلة روائع التراث)، مكتبة الأسرة ١٩٩٥-١٩٩٦م، ص٢٥. وانظر (كرستوفر هيرولد)، ص٢٠١.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص١٥٦.

(٣) هيرولد: مرجع سابق، ص٨٤، ٨٦؛ إيمان محمد: العربان، ص٢١.

وهكذا وجه رجال الحملة جهدهم للانتقام من العربان الذين لا يبدون روح التعاون معهم، وقدم اقتراح بتخصيص سلاح الهجانة الذي أنشأه قائد الجيش الفرنسي في مصر لمقاومة تلك القبائل التي تهدد أمنهم[1].

وقام الفرنسيون بقتل بعض مشايخ العربان مثل الشيخ الشواربي شيخ قليوب، وثلاثة من مشايخ الشرقية بحجة أنهم اطلعوا على كتابات لهم فيها تحريض على الحملة، كما أنم وجدوا كثيرًا من الأسلحة والأمتعة التي نهبت منهم لدي العربان. وتم قتل هؤلاء بصورة بشعة فقطعوا رؤوسهم ومثلوا بجثثهم. وقد بلغ من كراهية بونابرت للعربان وموقفهم من الحملة أنه أذاع في منشور عقب عودته من الشام أن من أسباب عودته رغبته في تأديب العربان بالشرقية وقبائل العبابدة وبلي وغيرهم الذين ناصروا المماليك ويحركون الفتن في الأقاليم في غيابه ويعيثون في البلاد فسادًا ونهبًا[2].

وعلى العموم فحركة العصيان ضد نابليون ولدت في صحراء الشرقية ثم أخذت في النمو والتطور شأن الكائن الحي وتعاقبت عليها الأدوار المختلفة فحينًا كانت تقوى وآونة تضعف وطورا تشتد وتنشط وتارة وتخمد وتفتر على أنها طوال هذه السنين الثلاث كانت تسير قدمًا مجددة قواها منتفعة من التجارب طامحة في حركتها إلى المثل الأعلى.

وبعد موقعة إنبابة (إمبابة) قدم نابليون إلى القاهرة فاستقامت له الأمور فيها وبدأ يفكر في تتبع المماليك في الشرقية وفي الصعيد، فاكتفي بأن أرسل (ديزيه) خلف (مراد بك) ليقضي على أتباعه في الوجه القبلي أما إبراهيم بك فإنه كان موضع تفكير نابليون ومصدر الانزعاج للحملة إذ كانت قوته (سليمة

---

(١) هيرولد، نفسه، ص٧٠.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري في القرن الثامن عشر، مكتبة جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٤م، ص١٥٧.

وكاملة إلى حد كبير) كما كان على اتصال بسوريا والإنجليز في البحر الأبيض المتوسط، من أجل ذلك وجه نابليون معظم قواته لسحق إبراهيم بك في شرق الدلتا حيث كان مرابطا في بلبيس[1]. أضف إلى ذلك وصول قوافل الحجاج من الحجاز مما أدى إلى تخويف نابليون من تفاقم الخطر لأنه علم بأن معظم الحجاج رغبوا في الانضمام إلى أميرهم إبراهيم بك كما خشي أنه ربما يتهم بعدم تأمينه لطرق الحج فلم يجد نابليون بدا من الخروج للقضاء على هذه البذرة قبل أن تنمو وتتفرع كما أسرع إلى إعلان تأمين سبل الحج وفي ذلك يقول الجبرتي: «في عشرين صفر سنة ١٢١٣هـ(٣ أغسطس سنة ١٧٩٨م) حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة فذهب أرباب (أعضاء) الديوان إلى باش العسكر وأعلموه بذلك وطلبوا منه أمانا لأمير الحج (صالح بك) فامتنع، وقال لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتي في قلة ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر، فقالوا له ومن يوصل الحجاج فقال لهم أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر»[2].

ولكن بالرغم من هذا نجد أن أغلبية الحجاج بل أمير الحج نفسه (صالح بك) قد انضموا جميعا إلى جانب إبراهيم بك ولم يبق منهم إلا النذر اليسير في بلبيس قبض عليهم نابليون وأرسلهم محروسين ببعض جنده إلى القاهرة وفي ذلك يقول الجبرتي في حوادث ربيع الأول سنة ١٥١٣هـ«ملك الفرنسيون بلبيس من غير قتال ومن بقي فيها من الحجاج لم (يشوشوا) عليه فأرسلوهم إلى مصر ومعهم طائفة من العسكر»[3].

وقبل أن يجرد نابليون جيشا للقضاء على (إبراهيم بك) نراه يوزع القوات العسكرية على بقية مديريات الوجه البحري فكان حاكم الشرقية العسكري

(١) الرافعي، مرجع سابق، ص٢٤٩ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص٢٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥٣.

ضابطًا اشتهر بين أقرانه بالشجاعة والقسوة الشديدة يدعىٰ (لكلرك) الذي تلقىٰ بعد يومين من تعيينه الأوامر بالمسير صوب حاضرة الشرقية وكانت آنذاك مدينة بلبيس[1].

بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحف (يوم ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨) من القاهرة بقيادة الجنرال (لكلرك) فكانت أحيانا تجد المقاومة الشعبية وأحيانا لا تجدها ولكن علىٰ العموم كان سير الجيش محفوفا بصعوبات كبيرة بدليل وصول بعض قوات فرنسية للنجدة تحت قيادة الجنرال «دوجاي» و«رينييه». وأخيرًا كتب الجنرال «لوجيه» إلىٰ نابليون يقول: «ثارت القرىٰ في الشرقية ضد فرساننا الذين أرسلناهم إليها لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات وكل الدلائل تدل علىٰ أنه لا بد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات»[2].

لم يجد نابليون بعد ذلك بُدًا من الخروج بنفسه إلىٰ الشرقية (وهو الإقليم الوحيد الذي سار إليه بنفسه) لملاقاة إبراهيم بك ومماليكه فوصل بلبيس في صبيحة (يوم ٩ أغسطس سنة ١٧٩٨م) بعد أن أخلاها إبراهيم بك فاعتزم نابليون أن يتعقبه قبل أن يغادر حدود مصر إلىٰ الشام ولقي الفرنسيون في بلبيس من بقي من الحجاج كما ذكرت. والحقيقة أن نابليون لم يلبث في بلبيس طويلًا لرغبته في تعقب إبراهيم بك فأرسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس وصلت إلىٰ قرية (القرين) دون أن يلحق بقوة (إبراهيم بك) الذي غادرها إلىٰ الصالحية فتقدم نابليون إلىٰ هذه الجهة حيث اشتبك مع قوة المماليك في معركة عرفت بمعركة الصالحية (١١ أغسطس سنة ١٧٩٨م) وقد حمي وطيس القتال في هذه المعركة وكادت تدور الدائرة علىٰ الفرنسيين كما كانت هذه أول معركة وقعت بين فرسان الجيش واقتتلوا بالسلاح الأبيض فتحرج مركز الفرنسيين

(١) المرجع نفسه ص٢٥٠، عبد الرحمٰن الجبرتي، المختار من تاريخ الجبرتي، مصدر سابق، ص٢٨.
(٢) عبد الرحمٰن الرافعي، مرجع سابق، ص٢٥٢. وانظر: كرستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ص٣٦٨.

لبسالة المماليك ومهارتهم في الكر والفر ولانضمام بعض الأعراب إلى صفوفهم[1] ولم ينقذ نابليون من ورطته سوى الجنرال لكلرك الذي أجبر المماليك على الانسحاب باستعماله المدافع ومما يدلنا على تفوق المماليك في هذه المعركة جرح بعض خاصة رجال نابليون كالجنرال (سلكوسكي وديترس) ياور نابليون[2]. والحقيقة أن الصالحية كانت المكان الذي وصلت فيه أسوأ الأنباء وأشأمها على نابليون وضباطه فأكثروا من الندب والعويل، يدلنا على ذلك قول مينو في مذكراته عن الصالحية «كانت البلد السيئ الذي فقدنا فيه كل آمالنا وأمانينا وضحينا فيه بمجهوداتنا جمعاء» إلى أن قال: «يا رب كيف تنتهي هذه الحملة في مصر؟ وكيف نؤمل المساعدة وقد حيل بيننا وبين بلادنا؟ أنعيش في مصر بقية حياتنا بعيدين عن أولادنا وآبائنا وأزواجنا وخليلاتنا»..؟

وفي الصالحية أيضًا أصدر نابليون أمره بتعين الجنرال (دوجاي) قومندانًا لمديرية المنصورة والجنرال فيال دمياط وبعد أن جعل من الصالحية مركزا لتموين الجيش، وبعد خروج إبراهيم بك ومن معه من أرض مصر وتوجههم إلى غزة لم يبق أمام نابليون إلا الإسراع في العودة إلى القاهرة ليزيل بوجوده الأثر السيئ الذي أحدثته معركة أبي قير البحرية في نفوس المصريين وجنود الفرنسيين كما أنه أدرك تمام الإدراك أهمية موقع الصالحية من الناحية العسكرية فقبل خروجه منها أصدر أمره (للجنرال كافاريلي) بإنشاء القلاع والطوابي والشكنات اللازمة. كما عين الجنرال (رينييه) قومندانًا لحامية الصالحية ومديرًا لمديرية الشرقية وأصدر أمرًا له لإقامة الطوابي والشكنات بالصالحية وبلبيس. واهتم بتحصين الصالحية لحراسة برزخ السويس ولمراقبة حدود مصر الشرقية ومعنى ذلك أن الشرقية اتخذت مركزًا من أهم المراكز الحربية[3].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٣.

(٢) نفسه، ص٢٥٣.

(٣) نفسه، ص٢٥٥-٢٥٦.

أما عن روح الناس في الشرقية فإنها كانت تتدفق ثورة وتفيض كمدًا وغيظًا وذلك لكثرة اعتداء الجنود وجرائمهم؛ إذ كان الفرنسيون كثيرًا ما ينهبون القرىٰ والماشية فيضطر القوم إلىٰ الرحيل عن قراهم لتهريب مواشيهم في الصحراء كما امتنع الناس عن بيع ما يحتاج إليه الفرنسيون وحملوا السلاح ضد العدو وأخذوا يناوشون الحاميات الفرنسية ويقطعون طرق مواصلات الجيش مع القاهرة. ولقد اشتدت تلك الحركات العدائية عند بذر بذور الثورة التي اشتعلت نيرانها في القاهرة في (أكتوبر سنة ١٧٩٨ م). فتشجع الشرقاويون علىٰ مهاجمة المخافر الفرنسية مما أدىٰ إلىٰ قتل بعض كبار الفرنسيين فمثلا قتل أهل بلبيس وكفور العابد ترجمان الجنرال (رينييه) الخاص علىٰ بعد أربعين مترا من معسكر الفرنسيين العام في المدينة كما قاوم أهل «ببشة» الفرنسيين عندما شرعوا في مصادرة خيولهم وذلك بالبنادق والعصي (الشماريخ) فعادت الكتيبة أدراجها[1].

ولعل تحمس الأهالي ضد الفرنسيين وشدة مقاومتهم يرجع إلىٰ وصول الفيضان الذي عطل حركات الجنود وانتقالاتهم إلىٰ القرىٰ كما أن الأمراض كانت قد بدأت تظهر مع شدة الحرارة وبخاصة الرمد الذي فتك بالفرنسيين وانتشر بينهم كما أن الثورة الشعبية التي استطار شرارها من القاهرة إلىٰ الأقاليم زادت من حماسة الأهالي وشجعتهم علىٰ مهاجمة معسكرات العدو وبخاصة أهالي بلبيس ومعهم نحو مائة فارس من قبيلة العائذ هجموا علىٰ كتيبة فرنسية في فجر ٢١ أكتوبر وقتلوا معظم جنودها ولكن رد (رينييه) هجمة العرب بعد أن أنسحب إلىٰ بلبيس كما طلب المدد من القاهرة خوفا من حرج مركزه.

وهكذا استمرت الحرب سجالًا بين الشرقاويين وبين الفرنسيين بسبب عجز (رينييه) عن تجريد قوة كافية علىٰ الثوار تغزوهم في بلادهم وقراهم فأصبحت مواصلات الجيش الفرنسي مهددة مما حمل نابليون علىٰ أن يرسل رسالة مهمة إلىٰ

(١) المرجع السابق، ص٢٥٧، ٢٥٨.

رينيه بتاريخ (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨م) يأمره فيها بتوقيع العقوبات القاسية على القبائل التي تمردت أو شاركت في الحركات الأخيرة ويأخذ منها الرهائن ويقتل مشايخ البلاد لأنهم المسئولون مما يحدث في بلادهم.

ولما علم الأهالي بذلك أوغلوا في البلاد البعيدة وبعضهم أخلى القرى المجاورة وبهذا لم يستطيع رينيه تجريد حمله لتعقبهم وآثر أن يميل معهم إلى الملاطفة فلجأ إلى المفاوضة مع زعمائهم لإعادة السكينة ولكنه لم يوفق ولذلك استمرت الاضطرابات في الشرقية حتى قبيل خروج نابليون إلى سوريا فنراه في (شهر يناير سنة ١٨٩٩م) يمر على الشرقية بعد عودته من رحلته إلى السويس ويقسو على أهلها ويذيقهم المذلة والمهانة، وفي ذلك يقول الجبرتي: «وفي ليلة الاثنين غاية شهر رجب حضر ساري عسكر بونابرت من ناحية بلبيس إلى مصر ليلًا وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظة أخا سليمان أباظة (شيخ العبابدة) كرهائن وأخذ مواشيهم وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم رجالا ونساء وصغار»[1].

ولسوف نلاحظ أن ما قدمه الجبرتي يدل على أسلوب الفرنسيين في الاعتداء على الناس وأخذهم ماشيتهم ودوابهم التي يعيشون منها وخصوصًا الشرقية التي اعتبرها نابليون بمثابة مخزن المؤن ومستودع للماشية يأخذ منها كل ما يحتاجه وما تلزمه الضرورة كما أنها تأثرت بانتشار الوباء الذي عم الحملة الفرنسية في الشام[2] مما أدى إلى موت أبناء الشرقية متأثرين بهذه الأوبئة التي جلبتها الحملة معها من الشام.

---

(١) الجبرتي، المختار من تاريخ الجبرتي، مصدر سابق، ص٣٠، انظر: عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق ص٢٥٧.

(٢) للمزيد انظر: بونابرت في مصر، تأليف ج. كرستوفر هيرولد، ترجمة فؤاد اندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، دار الكتاب العربي بالقاهرة ص٢٩٠. وأيضًا: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، محمد فؤاد شكري دار الفكر العربي، ص١٢٧. وانظر: عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص٣٦٢.

ويذكر جومار أنه كانت لدي عرب الشرقية والعربان بصفة عامة معلومات دقيقة عن أعماق الوديان والصحراء وأن العديد منهم كانوا ينحازون إلىٰ المماليك ثم إلىٰ الفرنسيين كل بدوره من أجل الحصول علىٰ المال، كما كانوا في معظم الأحيان يرشدون الفرق الفرنسية إلىٰ طرق عكسية لتلك الطرق التي سار فيها المماليك حتىٰ لا يتمكنوا من اللحاق بهم[1].

أثبت الاحتلال الفرنسي لمصر أن هناك شخصيات يجب أن يتوقف عندها التاريخ يبعث فيها الحياة ويكشف نقاء سرائرها حتىٰ تظل نابضة في ذاكرة الزمان، وهناك شخصيات يجب أن يقف لها التاريخ بالمرصاد ليكشف مساوئها وزيف بواطنها حتىٰ يهوي نجمها ويخبو ذكرها وبطل الأحداث في الحملة الفرنسية كان الشيخ عبد الله الشرقاوي الذي وقف أمام جبروت رائد الاستعمار الغربي «نابليون» متحديا إياه بكل شجاعة، وذلك حين دعا نابليون أعضاء ديوان القاهرة إلىٰ بيته وأراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان، ووضع بيده الطيلسان علىٰ كتف الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان، تكريما له وتعظيما كما كان يدعي، فما كان من الشيخ إلا أن رمي به الأرض غاضبا؛ لأنه رأي في ذلك مسا لوطنيته وكرامته ثم استقال من الديوان، وضرب بذلك المثل الأعلىٰ لأعضائه في الشمم والشجاعة، وعبثًا حاول الترجمان أن يقنع المشايخ بأن إلباسهم هذا الطيلسان إنما هو تكريم لهم، فغضب نابليون علىٰ الشيخ وقال: «إنه لا يصلح للرياسة»؛ لأنه رفض أن يكون من زمرة النخبة الفاسدة الذين ظهروا علىٰ ساحة الأحداث، وخانوا ضمير الأمة، فانزلقوا إلىٰ الهاوية.



(١) جومار: العرب والعربان في مصر الوسطىٰ، وصف مصر، ج٢، ص٣٢٢، ٣٢٣.

الباب الثاني

الشرقية.. شوارع ومدن لها تاريخ

« ... ألم أقل لك إن أولياء نعمتي اثنان: أحدهما السلطان محمود والآخر الفلاح. وأن قصدي من هذه الحكاية عدم النظر إلى الفلاح بعين العداوة وإزالة ذلك من الوجود الآن، أخذنا وعطاءنا ونيلنا هذا الشرف هو من وجودهم أي بيهم فعليه - ولكون الفلاح ولي نعم الجميع - يجب النظر لما فيه أصول رفاهيته».

(محمد علي)[١].

✍ كانت الحملة الفرنسية على مصر في نظر الجميع وقت انسحابها، وبالنسبة لفرنسا بالأخص، حملة فاشلة من كافة الوجوه، قد وصفها البعض مثل تيير Thiers بأنها: «أكثر محاولة في التاريخ تهورًا، وأكثر تهورًا من حملة بونابرت على موسكو». ولا نكاد نجد في التاريخ مشروعًا بدأ بمثل ما بدأت به هذه الحملة من الطنطنة والمبادئ الرفيعة والأهداف واسعة النطاق، ثم إذ هو بعد بضعة أشهر يتدهور إلى حد أن يهجره صاحبه، بونابرت لمصيره، ولا يكاد خلفه كليبر يفكر إلا في كيفية تخليص رجاله من الورطة والرحيل[٢].

ومن رحم النهاية التعسة للحملة الفرنسية على مصر ظهرت على مسرح التاريخ شخصيات قيادية عديدة واعية بدورها في التغيير من حال إلى حال وفي مقدمتهم شيخ استرسلت لحيته وعظمت عمامته، تحفه المهابة ويعلوه الوقار هو الإمام وشيخ الإسلام والمسلمين عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر الشريف الذي ثبت على المبادئ التي شكلت وجدانه في مقاومته للظلم حيث كان.

---

(١) كريم ثابت، محمد علي، دار المعارف، بدون تاريخ، ص٢٥٣.

(٢) حسين أحمد أمين، مملوك في لندن، مجلة الهلال، يناير ١٩٨٦م، ص٨٢.

- **مصر الحضارة تجلت في وداعها لملك مخلوع!!**

ففي صباح يوم أسود لحاكم ظالم أراد الوالي التركي (خورشد باشا) فرض ضريبة جديدة على الشعب ليتمكن من دفع رواتب الجند (الدلاة) حتى يجلوا عن القاهرة إلى الجيزة كإخوانهم، تهدئه للخواطر، فأحدثت هذه الخطوة هياجًا شديدًا في الخواطر (١٢من صفر سنة١٢٢٠هـ) فاجتمع الزعماء في دار المحكمة الكبرى (بيت القاضي) وفي مقدمتهم أمام الجامع الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي، لاختصام الوالي. ولما علم الأهالي بذلك ثار منهم نحو أربعين ألفًا منادين بالسخط على الأتراك، ثم طلبوا من القاضي أن يرسل في استدعاء وكلاء الوالي فحضروا، وانعقد مجلس الشرع وعرض الزعماء مظلمة الشعب وحرروا مطالبهم وأولها ألا تفرض ضريبة على المدينة بداية من اليوم إلا إذ أقرها العلماء وكبار الأعيان ... ورأي الوالي أن هذه الخطوة خطيرة تكاد تقتلعه من منصبه. ولما وصلته رسالة القاضي أراد القبض على بعض العلماء، وأرسل إليهم، ففطنوا لمكيدته ولم يذهبوا، ورفض الوالي إجابة المطالب متجاهلًا الإرادة الشعبية وكان ذلك هو المسمار الأخير في نعش الوالي.

وتوالت الأحداث سريعًا واجتمع وكلاء الشعب من العلماء وفي مقدمتهم الإمام عبد الله الشرقاوي في (١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ) بدار المحكمة للتشاور في الموقف، واحتشدت الجماهير في فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم، وهناك اتفقت كلمة الشعب على عزل «خورشد باشا» وتوليه محمد علي، وأبلغوه بما اتفقت عليه إرادة الشعب المصري ونهض الشيخان الجليلان السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي وألبساه خلعه الولاية[1]، ومن عجب الأقدار أن

(١) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، مطبعة النهضة، ص٧٧.

يقوم الشعب ممثلًا في جيشه بعد ما يقرب من قرن ونصف باقتلاع أسرة محمد علي وخلع حفيده - فاروق الأول - وخروجه في (٢٦يوليو عام ١٩٥٢م)، من مصر محفوفًا بمظاهر التكريم والكرم المصري المعهود، حيث تفقد حرس الشرف وعزفت الموسيقى السلام الوطني، وتم إنزال العلم الملكي من سارية القصر، وتقدم الضابط الذي يحمل العلم فطواه وسلمه له كما تقضي التقاليد العسكرية، وحلقت أربع طائرات نفاثة مشاركة في التحية، وأطلقت المدفعية ٢١ طلقة، وأدى حرس الشرف التحية العسكرية. لفاروق لتتجلى حضارة مصر في وداعها لحاكم مخلوع بإرادة الشعب وجيشه المصري صاحب أعظم وعي في التاريخ العسكري.

ونعود لحديثنا عن الشيخ الشرقاوي إمام الأزهر الشريف، فنقول: إنه وقف مع العلماء ضد محاولات الباب العالي لخلع محمد علي، ووقف ضد محاولة هجوم المماليك على القاهرة في (أغسطس سنة ١٨٠٥م) ليستولوا عنوة على زمام الحكم ولم يمض شهران على توليه محمد علي باشا وبعد هجوم المماليك على القاهرة ودخلوهم (المماليك) من باب الفتوح وقصدوا دار السيد عمر مكرم لاستمالة القوي الشعبية ولكنه رفض مقابلتهم، فقصدوا دار (الشيخ عبد الله الشرقاوي) شيخ الجامع الأزهر فرفض الشرقاوي تقديم العون لهم باعتباره الرمز الديني والإسلامي في مصر وانتهت هجمة المماليك بالإخفاق[1].

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث عصر محمد علي، الطبعة الأولى، ١٩٣٠م، مطبعة النهضة، ص١٥، ١٦.

• الشرقية .. البداية مع محمد علي

وضع محمد علي بعد تثبت أركان حكمه في مصر خطة طموحه لتحديث مصر، وجعلها تلحق بركب الحضارة والمدينة والتقدم، وتضمنت خطة محمد علي وضع نظم جديدة ومتطورة للتعليم والزراعة والتجارة[1]، ولما غامر محمد علي بحروبه في بلاد العرب ساهم عرب الشرقية وسيناء في هذه الحملات إذ قدموا له الخيل ودربوا له الجند الأرناءوط على طريقة الكر والفر المعهودة في الحروب عند الوهابيين (البدو) ويذكر طارق البشري في كتابه: (المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية)[2] أنه: وجد محمد علي عرب البادية يعيشون على مشارف وادي النيل والصحاري في الشرقية (شرق الدلتا) وكذلك في البحيرة (غرب الدلتا) وفي (عام ١٨٢٧م) وجدت ست عشرة من هذه القبائل تضم أكثر من عشرة آلاف جندي من المشاة وسبعمائة وخمسين من الفرسان فاستمالهم محمد علي وجذبهم لحياة الاستقرار وأقطعهم الأرض في الأباعد وعامل شيوخهم بكرم ولين معاملة لإفراغ غضبهم وإرضاء كبريائهم الأشم وشكل منهم فرقًا في جيشه بأجر مرض وبلغ عددهم في جيشه نحو الخمسة آلاف يقومون بمهام الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومناوشة الأعداء ويقومون في السلم بمهام الحراسة وتأديب البدو المتمردة.

واستعان محمد علي بعرب الشرقية في حروب السودان والشام والحجاز واقترح محمد علي عليهم أن يدفع لهم الأجور إزاء خدمتهم على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته وكانت كل قبيلة ترسل عددا من رجالها الأشداء تحت إمرة رئيس منها يطلق عليه «الصاري» كان بمثابة قائد لهم وكان محمد علي باشا يجزل لهم العطاء لما كان يلمس فيهم من شجاعة وإخلاص وتضحية وقد منحهم

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون، كفاحنا ضد الغزاة، (النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧)، ص٢٧٦.

(٢) طارق البشري: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، (دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨م)، ص٢١.

أراضي شاسعة معفاة من الضرائب وقدرا من المحاصيل الزراعية وطلب من عرب المشارق حراسة حدود مصر[1].

واهتم محمد علي بإدخال نظام المدارس الابتدائية في الشرقية وغيرها من الأقاليم وأقام في الشرقية مدرسة الزقازيق ومدرسة العزيزية بمنيا القمح، ومدرسة بلبيس، ومدرسة كفور نجم، ومدرسة ميت العز[2]. كما أرسل بعض أبناء الشرقية إلى أوربا في خضم البعثات العلمية للغرب الأوربي لنقل النهضة الأوربية لمصر منهم أحمد بك السبكي بن أحمد بن سليمان عجيلة من عائلة تسمى العجايلة من بيت عجيل بالشرقية وهو من أعضاء البعثة الخامسة وكذلك مصطفى بك السبكي من أعضاء البعثة الرابعة وكان من مشاهير أطباء العيون ومدرس الرمد بمدرسة الطب[3]، وتوفي عام ١٨٤٤م.

وشرع محمد علي في شق ترع عديدة بالشرقية مثل ترعة الوادي والمسلمية، وبحر مشتول، وبحر الرمل وترعة بردين، ومصرف بلبيس[4]، كما شارك الشرقاويون في حفر ترعة المحمودية[5].

وفي عهده نشأت مدينة الزقازيق (عاصمة الشرقية الآن) على أثر بناء القناطر المعروفة الآن بالقناطر التسع، ومهمتها توزيع مياه بحر مويس لري أراضي الشرقية، وأقام قناطر المسلمية وبحر مشتول، والصفراء، والعلاقمة، وفاقوس بالشرقية. وحفر بالشرقية الآبار وغرس بها العديد من شجر التوت لتربية دودة الحرير.

---

(١) الرافعي، عصر محمد علي، مرجع سابق، ص٦١١.

(٢) المرجع السابق ص٤٥٠، للمزيد انظر: جمال بدوي (محمد علي وأولاده)، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.

(٣) المرجع السابق، ص٥١٩، ٥٢٦.

(٤) محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، الجزء الأول، القسم الثاني، مطبعة دار الكتب ١٩٥٤، ١٩٥٥، ص١٣٨.

(٥) الرافعي، عصر محمد علي، مرجع سابق، ص٥٤١، ٥٤٤.

• الصوة.. عبير البخور والحنة!!

وأنزل بها بعض الأسر النابهة في الزراعة بالصوة ومنهم الشيخ أيوب جد الأسرة الأيوبية التي تقطن بلدة (الصوة) الآن فاستقدمه محمد علي إلى (الصوة) وأقطعه أرضًا واسعة ونصح له بزراعة الحناء والاتجار فيها علي أن يؤدي للوالي نصيبه من الخراج مقابل الأرض الممنوحة، فاهتم بالزراعة اهتمامًا كبيرًا كان سببًا في نجاحها ورواج تجارتها، فراع هذا الأمر الجليل الوالي (محمد علي) فعمد إلى التوسع في الزراعة والإكثار منها واستحضر أحجار الجرانيت من أسوان لإنشاء المطاحن اللازمة.

ولقد كان من أطرف وأظرف مجاملات التاريخ (التي لا يزال تتردد إلى الآن في قرية الصوة) أن ينتهز (علي بك أيوب) الفرصة فيهدي حفيد محمد علي (فاروق الأول) في حفلة زواجه حناء من زراعة جده الأكبر ومطاحنه بعد مائة وعشرين عامًا. لتصبح (الصوة) بفضل مجهود الأهالي ودرايتهم بشئون الزراعة المختلفة عاصمةَ للحناء في مصر[١].

والصوة على ربوة ذات قرار ومعين، تحدق بها الحدائق والبساتين، في مثلث بين فرع النيل البلوزي القديم، وبين بحر تراجان العتيق الذي احتل مكانه الآن ترعة الوادي. وأما فرع النيل البلوزي فقد أصبح في مكانه اليوم ترعة الإسماعيلية نحو الجنوب، وبحر فاقوس من الشمال الشرقي. وكانت الصوة قديمًا من أقسام أرابيا ثم صارت كوربانا في القرون الوسطى. واعتزت بخصبها وحدائقها في عقدي الشياشقة والبطالمة. ولعل اسمها معرب من Iswi أمير مقاطعة أرابيا. ولما احتلها العرب صادف تعريب الاسم مطابقة في مكانها الذي هو على أطلال[٢] نجدية من العهد الروماني، كما ثبت من الآثار التي وجدت بها

---

(١) انظر: مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية للبنين عام ١٩٣٩م، ص٤٦.

(٢) في اللغة: الصوة المرتفع من الحصى ونحوه، ومأوى السباع.

سنة ١٩٢٩، ومن تلك الآثار نقود رومانية من البرنز وغيره، ودمىٰ صغيرة تعرف عند الأثريين باسم شوابتي وكان لها أثرها وقيمتها لدىٰ القدامىٰ. ونسبوا تلك الآثار للملك بينو ثم Pinûtem الذي استوىٰ علىٰ عرش زان (صان) وبوباستس (تل بسطة) وكانت الصوة وعمريط وضواحيها في جبهة الدفاع عن الحوف الشرقي (مديرية الشرقية وأجزاء من الدقهلية في عهد الرشيد كما هو معروف في المصادر التاريخية).

وفي القرن السابع وفد إلىٰ تخومها السناجرة مع السيد المسلمي العراقي وعززوا أهلها بشبابهم ضد المغيرين عليها. وفي عصر أسرة محمد علي حلت بها الأسرة الأيوبية بأمر من محمد علي باشا الذي اغتنم درايتهم بالحنا وشاركهم في زراعتها والاتجار بها في الخارج. واستمرت شهرة الصوة وصفط تدوي في البلاد الأجنبية إلىٰ عهد قريب. وكانت هذه الأسرة الأيوبية من غطارفة العرب بالوجه القبلي.

وكان زمام الصوة عام ١٩٤٩م ما يقرب من ٢٧٢٥ فدانًا جيدة التربة. وسكانها مع السناجرة نحو سبعة آلاف نفس كانوا ٦٤٠٠ نفس سنة ١٩٣٧، وقد زارها جاستون دومروج Doumergue gaston رئيس جمهورية فرنسا سنة ١٩٣٣ بدعوة من أصدقائه آل أيوب. وزارها جلالة الملك فاروق الأول في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٧[١].

وكان من أعلامها العلامة الأديب الشيخ مصطفىٰ الصوي المعروف بالصاوي ونسبته علىٰ غير قياس كما جاء في الجبرتي الذي ترجم له حياته في زهاء عشر صفحات.والمرحوم أيوب بك أيوب. وكان عضو مجلس النواب ومن اللجنة التي ردت علىٰ خطاب العرش الخديوي سنة ١٨٨٣. وعبد الله بك أيوب. وكان رئيس مجلس الدعاوي والمشيخة كما جاء في الخطط التوفيقية (ج٧). وصالح بك

(١) الوقائع المصرية، مجلد عام ١٩٣٧، عدد ٢٨ فبراير.

أيوب. وكان مديرًا بالوجه البحري فمحافظًا للإسكندرية وتوفي سنة ١٢٩٤هـ. ومحمد بك أيوب. وكان مأمور مركز العلاقمة فمفتشًا للوادي وتوفي سنة ١٣٠٩هـ. والسيد بك أيوب. وكان عضو الشياخات وعمدة الصوة وتوفي بها سنة ١٩٢٧م.

ومنهم محمد باشا محمد حسين وكان محافظًا للإسكندرية في العهد الملكي. وحضرة صاحب المعالي القانوني الأديب علي بك السيد أيوب وزير المعارف في عهد الملك المصري فاروق الأول، وقد أنجبت هذه الأسرة النابهة كثيرًا من النابهين والأشبال المعروفين بالعبقرية والجلال[١].

ويشير علي باشا أيوب في إحدى خطاباته الموجهة إلى منطقة الزقازيق التعليمية بتاريخ ١٩٤٨/١٠/٢٠م. إلى أن زراعة الحناء قد انتقلت من الصوة إلى بعض قرى مديرية الشرقية مثل كفور العايد والسعادات والطحاوية والعدلية وغيتة، بينما تناقصت المساحة المنزرعة حناء بالصوة في السنوات العشر الأخيرة، بسبب إقبال الأهالي على زراعة المانجو لما استبانوه من صلاحية التربة لهذا الثمر. وتنتج الصوة نوعًا من أفخر أنواع المانجو أصبح معروفة بالسوق باسمها. وقد اختار المغفور له الملك فؤاد الأول هذا الصنف لإرساله هدية لملك إيطاليا حين مروره، بقنال السويس في رحلة بالبحر الأحمر وشواطئ إريتريا.

ويشير علي باشا أيوب أيضًا إلى أن الصوة: اسم عربي وتعريفها في القاموس، (أنها ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلًا)، وهذه القرية تقع على أرض رملية مرتفعة عما يحيط بها من المزارع فالاسم على مسماه. ولا بد أن يكون قد أطلقه العرب بعد فتحهم لمصر[٢]. وقبلي ناحية الصوة مقام سيدي أبي مسلم، وفي عام ١٩٠٠م كان عمدتها السيد أفندي محمد أيوب[٣].

---

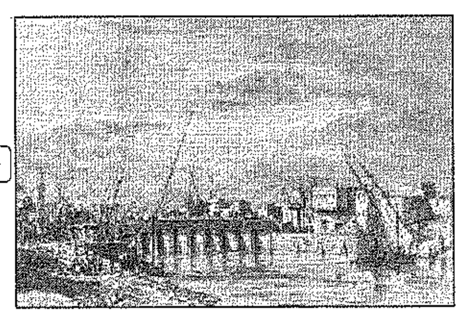
(١) صالح محمد فارس: إصدارات منطقة الزقازيق التعليمية عام ١٩٤٩م، ص١٠١.

(٢) خطاب من علي باشا أيوب وقد كان وكيلًا لمجلس نواب الأمة قبل أن يكون وزيرًا للمعارف. مرسل إلى صاحب العزة مراقب منطقة الزقازيق التعليمية في ١٩٤٨/١٠/٢٠م.

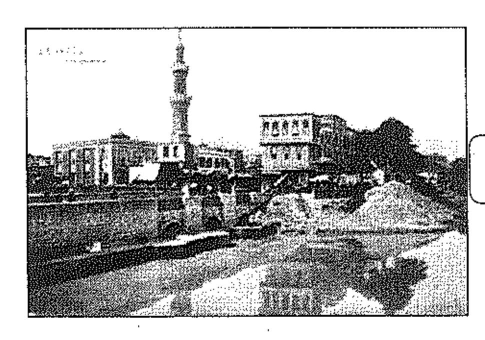
(٣) سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص٤٩.

• حيث طاف بالصندوق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!!

أما الزقازيق فهي من المدن الكبيرة في مصر الواقعة على (بحر مويس) وهو البحر الذي أطلق عليه الناس في الشرقية اسم (بحر مويس) نسبة إلى النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والذي يعتقد الناس أنه هو البحر الذي سار فيه الصندوق بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين وضعته أمه وهو رضيع فألتقطه فرعون موسى وزوجته ليربياه في قصرهما.



قناطر التسعة على بحر مويس ١٨٦٣م



قناطر التسعة على بحر مويس
وجامع محمد علي ١٨٣٢م

ويعتبر (بحر مويس) العمود الفقري لري أراضي الشرقية (ويبدأ من الرياح التوفيقي عند قرية جمجرة شمال بنها بسبعة كيلومترات)[1]، حيث يمد فرع

(١) الرافعي، عصر محمد علي، مرجع سابق، ص٥٤٩.

مويس عددًا من الترع التي ردم بعضها الآن والتي تتشعب كالشرايين في الأراضي التي ترويها. حيث تقع أول قناطر حجز عليه في الزقازيق وهي المعروفة بمجموعة التسعة (أمام سجن ومستشفى الزقازيق الأميري) فتستمد الماء من أمامها الترع الآتية وهي: ترعة الوادي الغربي والمسلمية وبحر بهنباي وبحر مشتول[1] وترعة القنايات والتي كان يطلق عليها الناس أحيانًا اسم (ترعة العوجة) وكانت تلك الترع تتفرع في اتجاهات مختلفة فكانت تري كأصابع اليد في شكلها - وقد تم ردم بعض تلك الترع الآن - ثم يستأنف بحر مويس سيره متجهًا نحو الشمال الشرقي ويمد بعض الفروع والترع حتى يصل إلى قناطر الصفراء عند الكيلو

(١) مشتول السوق: بالشرقية، كانت هذه المنطقة قديما ضمن مقاطعة (هك آت) الفرعونية وكانت مشتول قريبة من مجري قناة سيزوستريس الفرعونية وكان لنهر النيل بالمنطقة الفرع البليوزي ومكانه الحالي بالمركز جزء من البحر الشبيني وعاصرت المنطقة حكم البطالمة والرومان قبل الميلاد وسميت مشتول بهذا الاسم نسبة إلى حاكمها الروماني أشتولي كما اقترن اسم الطواحين بها لوجود عدة طواحين بها فوق تلالها المرتفعة وكانت تدار بقوة الرياح لطحن الغلال اللازمة للجيش وكان بكل بيت طاحونة صغيرة يدوية. وقد مر عمرو بن العاص بمشتول بعد أن فتح بلبيس وهو في طريقه للفسطاط عام ١٩ هجرية - ٦٤٠ميلادية وشيد بها مسجدًا صغيرًا وقد ظهر مكان هذا المسجد بخريطة بندر مشتول طبعة ١٩٥٠ باسم موقع العمري غرب مسجد الأربعين الحالي. ثم سميت بمشتول السوق نسبة إلى إنشاء أول وأكبر سوق بهذه المنطقة الواسعة منذ زمن بعيد وأصبح مكان هذا السوق حاليا عمارات السوق بجوار محطة السكة الجديدة وشيد محمد علي باشا الكبير بمشتول السوق عام ١٨١٥م مصنعًا كبيرًا للأسلحة والذخائر وكان على شكل أقبية بالمنطقة التي أطلق عليها الجبخانه (أي مكان السلاح باللغة التركية) ومكانها الحالي شمال مسجد أبو سالم ومازال كبار السن يعرفونها بهذا الاسم. مشتول السوق كانت مدينة تابعة لمركز بلبيس ثم تم فصله عن بلبيس في السبعينيات ١٩٧٩وتم تحويلها إلى مدينة ومركز مشتول السوق ولها قرى تابعة لها إداريًا وتشتهر بزراعة الغلال التقليدية وهي ملاصقة لحدود محافظة القليوبية وتبعد عن القاهرة ب ٣٣ كيلومتر تقريباء تعتبر مدينة مشتول من المدن القديمة بمصر حيث أن عمرها أكثر من ألف سنة وكان اسمها قديمًا مشتول الطواحين. ولقد ذكرت مدينة مشتول السوق في كثير من الكتب والمعاجم القديمة فلقد ذكرها كل من ياقوت الحموي في معجم البلدان وقال أنها مدينة حسنة العمارة تبعد ١٨ ميلًا عن عين شمس وبها طواحين تجهز الغلال وترسل للقاهرة. وكذلك ابن دقماق في كتابة الانتصار لواسطة عقد الأمصار وكذلك التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية لابن الجيعان وكذلك في المعجم الجغرافي لمصر وغيرها من الكتب. انظر إصدارات محافظة الشرقية عام ١٩٨٢م.

٥٦،٦٥٠ وهي قنطرة الحجز الثانية التي تتفرع من أمامها ترعة الصادي وحمودة والخضارية والأولى منها تروي مساحة كبيرة من الأراضي.

ثم يستأنف بحر مويس سيره متجها نحو الشمال لينتهي عند كفر صقر فتقع عليه قنطرة الحجز الثالثة. وأما الرابعة وهي الأخيرة فتقع عند قرية (تل راك) وعندها يتلاشي بحر مويس في الأراضي المجاورة لها بعد أن يقطع مسافة يبلغ طولها ٦٨ كيلومترًا تقريبًا قد ملأها خصبًا ونماءً. ولقد كان، ولا يزال، له الأثر العميق في حياة أهل الشرقية منذ عهد المصريين القدماء إلى الآن.

• مآذن وكنائس!!

جدير بالذكر أنه يرجع السبب في وجود مدينة الزقازيق لرغبة محمد علي في إنشاء الترع وتعميم طرق الري والصرف لأراضي الشرقية وذلك لإصلاح أراضيها الزراعية وتوسيع دائرة العمران فيها لزيادة إيرادات الحكومة من ضرائب الأطيان من جهة ولزيادة ثروة السكان ورفاهيتهم من جهة أخرى، وأصبحت الزقازيق فيما بعد مدينة كبيرة وصفها الرحالة المصري إسماعيل محمد مصطفى عام ١٩٢٧م بقوله: «مدينة عامرة ذات قصور شاهقة وأكثر مبانيها حديثة وتكسبها جمالًا، كثيرة أشجارها الباسقة على جوانب شوارعها المهمة ويخترقها ترعتان من الشرق إلى الغرب تستمدان مياههما من بحر مويس وهما ترعة الوادي، وترعة المسلمية (تم ردمهما الآن). وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم المنتزه، قسم الجامع، قسم النظام. وبها مكتبة البلدية القيمة لعشاق المطالعة وطلاب العلم وشيد بها معهد علمي ديني بكفر النحال جنوبي المحطة أنشأته وزارة الأوقاف وابتدأت الدراسة به يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٥م»[١]. وأنشأ المجلس البلدي بالزقازيق متنزهًا عموميًا

(١) رحلة إسماعيل في جميع محافظات وعواصم القطر المصري، ط١، مطبعة هندية بالموسكي، القاهرة ١٩٢٧م، ص٨٠.

يبعد عنها بثلاث كيلومترات تقريبًا، وفي داخله وابور الإنارة ولم يكن يسمح للأهالي بدخولهم، فيتنزهون حوله من الخارج في أيام الجمع والآحاد لسماع الموسيقى على حد شهادة الرحالة إسماعيل مصطفى قبيل عام ١٩٢٧م.

وتشير الوثائق التي وصلتنا عام ١٩٢٥م إلى وجود عدد من المدارس المدرسة الأميرية الثانوية(١) (وهي مدرسة الزقازيق الثانوية العسكرية حاليًا)، المدرسة الأميرية الابتدائية (مدرسة السادات الإعدادية بنين حاليًا)، مدرسة عبد المسيح بك موسى، مدرسة ولي العهد، مدرسة الأمريكان، مدرسة الأرمن الأهلية(٢).



معهد الزقازيق الديني الملكي
أنشئ عام ١٩٢٥م

وأشار الرحالة إسماعيل مصطفى إلى وجود عدد من الجوامع عام ١٩٢٧م، من أبرزها جامع الشيخ أبو خليل وبه ضريح الشيخ أبو خليل(٣)، ويقام مولد له كل عام، الجامع الكبير، جامع الديب (بقسم النظام حاليًا)(٤).

---

(١) كان ناظر المدرسة الأميرية عام ١٩٠٣ الأستاذ علي أفندي عمر.

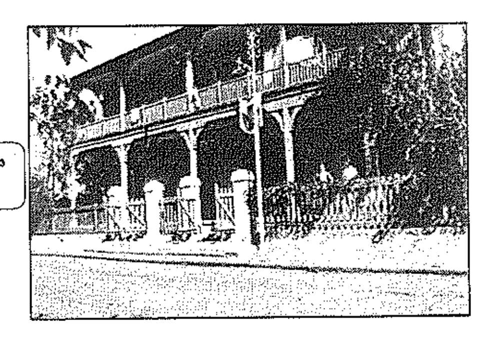
(٢) أشار إبراهيم عبد المسيح - دليل وادي النيل ١٨٩١ - إلى وجود مدارس للأفريقان وغيرهم للذكور والإناث، ص٢٩٣.

(٣) منذ أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر احتضنت الشرقية ضريح وجامع سلطان الذاكرين وإمام المقربين العارف بالله الشيخ (محمد أبو خليل الكبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بالزقازيق بمنطقة (كفر النحال) وهو كبير الطريقة الخليلية الصوفية بمصر، وينظر إليه الكثير من الناس باعتباره من كبار الأولياء وتقام له الموالد والاحتفالات برعاية حفيده العارف بالله إمام الزاهدين الشيخ (صالح أحمد الشافعي محمد محمد أبو خليل الكبير) نقيب الأشراف ورئيس الجمعية الخليلية الإسلامية في الفترة من ٣ يوليو إلى ١٠ يوليو من كل عام.

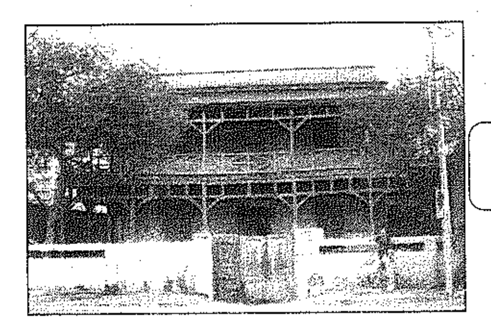
(٤) رحلة إسماعيل، ص٨٢.



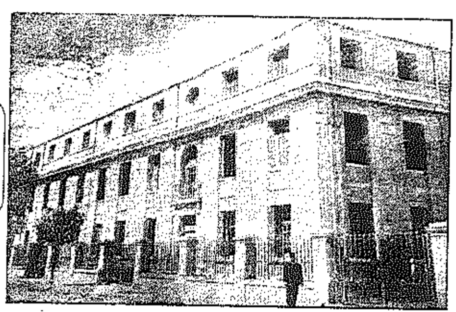
الشيخ صالح أبو خليل
شيخ الطريقة الخليلية في الزقازيق



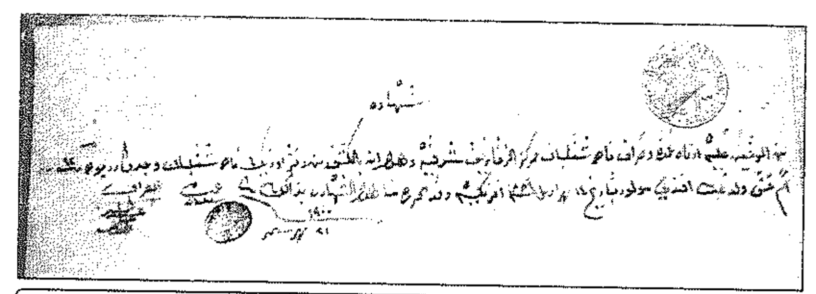
مبني المستشفي الميداني للجيش
الأسترالي بالزقازيق مارس ١٩١٩م



مبني المجلس البلدي بالزقازيق
ثم تحول لمقر الضرائب العقارية
ومهجور حاليًا



المدرسة الأميرية الابتدائية نشأت عام ١٩٢٤م (مدرسة السادات الإعدادية بنين حاليًا) بجوار مديرية الصحة بالزقازيق شارع الجلاء، قسم ثان الزقازيق، الشرقية



شهادة

١٩٠٠

شهادة صادرة من عمدة شقلبان الشيخ أحمد عطية (قرية الزهراء) قرب الزقازيق ١٩٠٠م



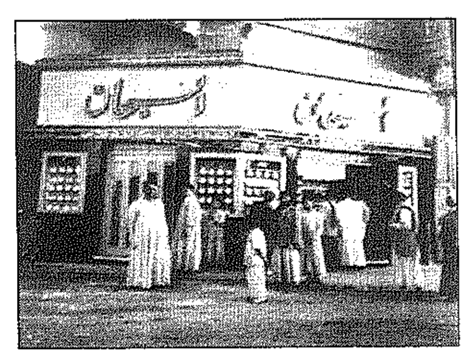
المدرسة الأميرية الابتدائية

بالزقازيق ١٩٢٨م

(فرقة الموسيقى)

مدرسة السادات الإعدادية

بنين حاليًا



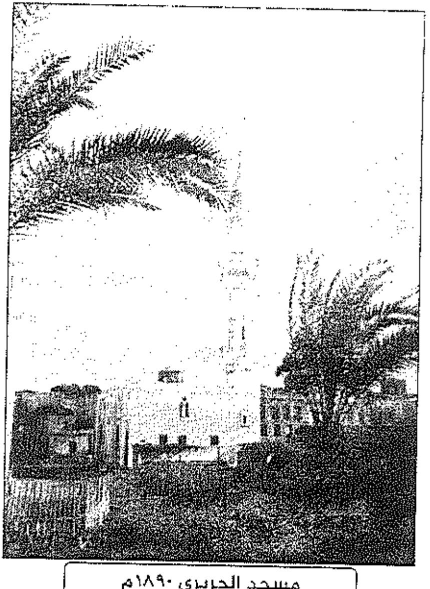
محل السجان للساعات بشارع الجناين بالزقازيق ١٩٢٠م

وقد كان في الزقازيق عددًا من المساجد مثل؛ مسجد العيدروس[١] (يقع في الجهة القبلية من ترعة الوادي، وهو الآن بشارع سليم شديد بميدان العيدروس لا يزال باقيًا) ومسجد الحاج سليمان الشربيني[٢] بشارع ترعة عبد العزيز (كان

(١) أنشأ هذا المسجد الحاج عيدروس سمره بن علي سمره، وهو من أشهر تجار مدينة الزقازيق، وقد تردد اسمه كثيرًا في وثائق محكمة الشرقية مما يدل على شهرته، وكان له العديد من الأبناء أهمهم حسن بك عيدروس سر تجار الزقازيق، وإبراهيم بك عيدروس، ومحمد بك عيدروس مدير الدقهلية الذي أوقف أملاكه في الدقهلية على الحرمين الشريفين. ويقع الجامع في ميدان العيدروس بالمنتزه بشارع الحدادين حاليًا (سليم شديد سابقًا) الشارع الذي تشغله الآن مديرية أمن الشرقية. وملحق بالمسجد سبيل ذو شباكين يقع بالركن الجنوبي الغربي لدورات المياه والميضأة وكانت تغطي مبنى هذا السبيل قبة بأسفلها رفرف بغدادلي ولكنه تخرب الآن، وهو السبيل الوحيد الملحق بمساجد مدينة الزقازيق التي شيدت في القرن التاسع عشر. عبد المنصف سالم: مساجد مدينة الزقازيق، ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) شيد هذا المسجد الحاج سليمان الشربيني بن موسى بن السعدني، وهو في الأصل من قرية بهنباي التابعة لمركز الزقازيق، وكان من أشهر التجار ببندر الزقازيق زمن الخديوي إسماعيل (١٨٦٢-١٨٧٩م) وكان الجامع قديما يقع بأراضي كفر الزقازيق البحري بحوض الجفجافي الكبير بمدينة الزقازيق، وكان يقع على شارع ترعة عبد العزيز، والآن على شارع الحمام عند التقائه مع شارع الجيش، وشيد المسجد على مساحة أربعة قراريط، وهدم المسجد القديم تمامًا سنة ١٩٦٣م، وشيد في موقعه مسجد آخر بدلًا منه عامي ١٩٦٣-١٩٦٥م، وشيدت في الجهة الجنوبية منه على الأراضي الموقوفة عليه مدرسة صغيرة في موقع منافع المسجد القديم، وكان موقفًا عليه عدد من الأراضي، وعقار عبد المنصف سالم: مساجد مدينة الزقازيق، ص١٦٩، ١٧١.

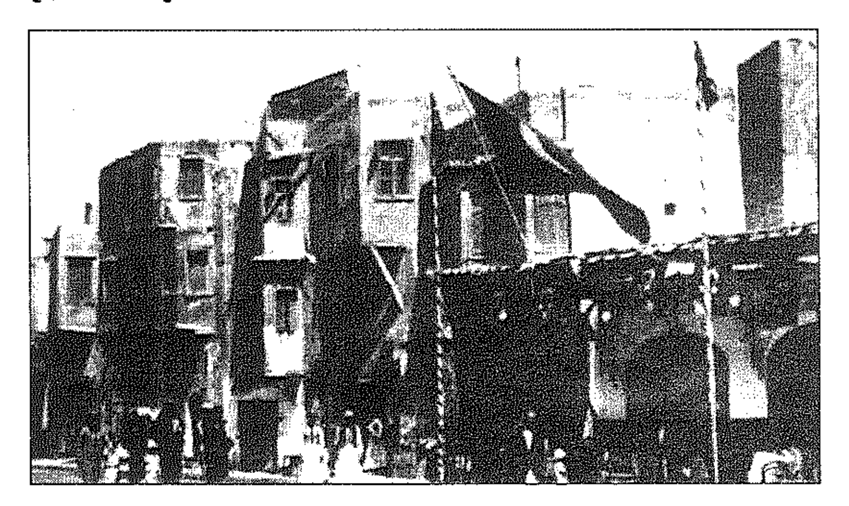
يقع قديمًا على شاطئ ترعة عبد العزيز وهو الآن عند ملتقى شارع الحمام مع شارع الجيش هدم المسجد القديم سنة ١٩٦٣م وشيد في موقعه مسجد آخر في الفترة من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٥م)، ومسجد الميري، والمسجد الصغير الذي بناه يوسف بك بالشاطئ الغربي لبحر مويس وكان يعرف بالمسجد الصغير (بمنطقة قسم يوسف بك بالزقازيق حاليًّا)، وجامع البهيج (ورد ذكره في دليل وادي النيل عام ١٨٩١م)، ومسجد الحريري الذي شيده أحمد وفا الحريري[1] سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م في عهد الخديوي توفيق، ومسجد علي أغا[2] (١٣١٨-١٣٢٠هـ/١٨٩٩-١٩٠٢م).



مسجد الحريري ١٨٩٠م

(١) أحمد وفا الحريري: هو في الأصل من عزبة الحريري وكان يعمل تاجرًا بالقاهرة، وكانت له العديد من الأملاك في الزقازيق، ويقع المسجد بشارع المنتزه عند التقائه مع شارع البوستة وله واجهة رئيسية غربية تطل على شارع البوستة، ويشغلها حانوت (دكان أقمشة) وواجهتان فرعيتان هما الشرقية والشمالية.

(٢) أنشأ هذا المسجد علي أغا عرب أوغلي بن محمد عشان، وكان مشهورًا بالعاجز، وقد أشارات إليه الوثائق بأنه «ذي حصار بعين قلبه» وكان يعمل تاجرًا بالزقازيق، ولعل من أهم أعماله هو بناء هذا المسجد ومات علي أغا قبيل إتمام البناء فقامت ابنته «فديسة الصغيرة» من وقف أرض ومنزل ودكان بشارع عباس بقسم المنتزه على مسجد سعيد أغا محمد الخربوطلي الكائن بقسم الإشارة وقف من الدرجة الأولى، ومسجد علي أغا والدها وقف من الدرجة الثانية. وقع هذا المسجد بمدينة الزقازيق بقسم المنتزه بشارع أحمد حسين الجبالي عند تقاطعه مع شارع الجلاء.



شارع فاروق بالزقازيق ١٩٣٩م

وكان بها ثلاث كنائس إحداها للأقباط والأخريان للشوام والروم الكاثوليك، وورد في دليل وادي النيل ١٨٩١م أن كنيسة بالزقازيق للطائفة المارونية مشيدة بنفقة عائلة الزند الشهيرة (وكان لهم كفر الزند الذي تحول اسمه في تسعينيات القرن العشرين إلى حي الزهور بالزقازيق)[١] - وتبع ذلك وجود مركز لبيع الكتب والخدمات للكنيسة الإنجيلية في خريف ١٨٨٤م وكانت الكنيسة الإنجيلية آنذاك تشغل مكانًا بمدرسة الأمريكان - كما وجدت كنيسة صغيرة بشارع المعهد الديني بالزقازيق بناها الكونت سليم بك شديد (وكيل قنصلاتو البورتغال)[٢] (كونت من أصل لبناني كاثوليكي؛ إذ كان له العديد من المشروعات الصناعية والزراعية في الشرقية وأملاك وأطيان زراعية توارت جميعها مع قوانين الإصلاح الزراعي بعد ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢م وعائلة شديد من العائلات المعروفة في مجال

(١) إبراهيم عبد المسيح: دليل وادي النيل لعامي ١٨٩١ و١٨٩٢م، ص٢٨٩.

(٢) رحلة سعودي شلبي، دليل الشرقية، ص١٤.

الزراعة والصناعة والاقتصاد في لبنان ومن أركانها سليم شديد ورزق الله شديد وهما مشهورين بالجود والكرم والعناية بالأيتام والأرامل والمرضي ولهما دور مهم في النهضة الصحية والتعليمية في الشرقية) كما وجدت كنيسة أخرىٰ للجالية اليونانية بالشرقية بمنطقة المعهد الديني بالزقازيق بجوار كنيسة الكونت سليم شديد تعرضت مع مقابر الجالية اليونانية بساحتها إلىٰ التخريب والعبث والهدم من قبل حارس الكنيسة الذي حاول وضع يده عليها بهدف الاستيلاء علىٰ الأرض التي تزيد مساحتها عن ٤٠٠٠م٢ ثم حسم الأمر بمساعدة الجهات الأمنية وتمكنت الكنيسة من استعادتها وحولت أرض المقابر إلىٰ حديقة وعيادات طبية ملحقة بالكنيسة بعد إعادة ترميمها وقد آلت ملكية أرض المقابر اليونانية والكنيسة اليونانية الخاصة بالجالية (كنيسة مار يوحنا) إلىٰ الكنيسة الأرثوذكسية عن طريق الهبة مؤخرًا.

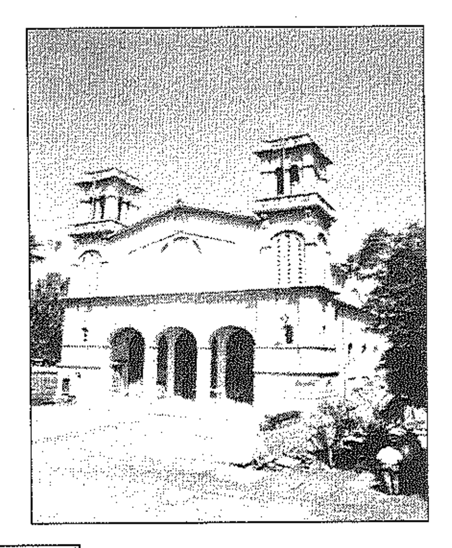
أشار الرحالة إسماعيل مصطفىٰ عام ١٩٢٧م إلىٰ أماكن وجود الكنائس بقوله: «أما الكنائس هي: كنيسة الأروام الأرثوذكس (مار يوحنا)[١] أنشئت حديثًا[٢] علىٰ الشاطئ الأيمن لبحر مويس، كنيستي الأقباط الأرثوذكس الكبيرة منهما بقسم الصيادين والصغيرة بكفر يوسف بك، كنيسة البروتستانت بدار مدرسة الأمريكان بقسم المنتزه، كنيسة الكاثوليك بدار مدرسة الفرير»[٣].

---

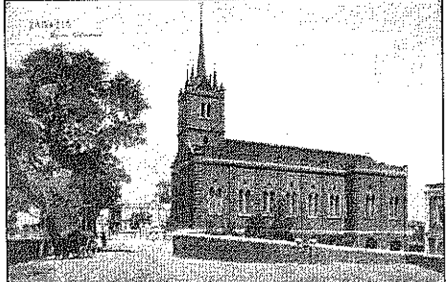
(١) تقع كنيسة العذراء ومار يوحنا بشارع طلعت حرب الموازي لبحر مويس بجوار بنك مصر، وقد أنشأت هذه الكنيسة طائفة الروم الأرثوذكس الجالية اليونانية في عام ١٩٢٥م حيث كانت تعرف باسم «ثلاثة أقمار القديسين وهم: القديس باسيليوس الكبير، والقديس غريغوريوس الثاولوغوس، والقديس يوحنا الذهبي الفم» اشتراها الأقباط الأرثوذكس في ١٩٩٥/٧/١٤م، وسميت باسم القديسة العذراء مريم والقديس يوحنا الرسول. انظر: أمينة أحمد منشاوي: كنيسة العذراء وما ريوحنا بالزقازيق، دراسة أثرية معمارية، مجلة جامعة القاهرة مج٧٦، ج٧، القاهرة ٢٠١٦م، ص١٤، ٥٠.

(٢) يقصد هنا أنها نشأت سنة ١٩٢٥ قبيل زيارته للزقازيق عام ١٩٢٧م.

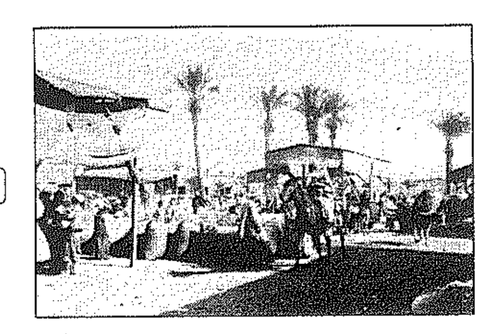
(٣) رحلة إسماعيل، مصدر سابق، ص٨٢، ٨٣.



كنيسة الأروام الأرثوذكس
(مار يوحنا) ١٩٢٥م



صورة توضح جمال عمران الكنائس
بالزقازيق على ضفاف بحر مويس



سوق الثلاثاء بالزقازيق - القرن الـ ١٩

• الزقازيق.. مدينة المشربيات والتكايا!!

وكان في الزقازيق كذلك عدّة أسواق ودكاكين مانيفاتورة رصد الرحالة سعودي شلبي أشهر التجار عام ١٩٠٣ مثل (الحاج محمد الباجوري، عبد السلام أفندي الحريري، نور الدين أحمد الدالي، أحمد أفندي سعودي، الشيخ خليل عفيفي الباجوري، الشيخ عطية سعودي، الخواجة هارون جباي وأخيه)، (الشيخ علي النمرسي وأولاده) ، إضافة إلى عدد من الخانات مشحونة بأنواع البضائع ومنازل تسمى «وكائل» لسكني الأغراب وإكرامهم وبها «بنوكات للتجارة» وجملة آلات بخارية بعضها لحلج القطن وبعضها للطحن ولصناعة الثلج ودكاكين للعطارة والفحومات[١] وراجت تجارة الملابس الأفرنكية[٢] والخردوات[٣] والورش[٤] وغير ذلك، وبحلول عام ١٩٠٥ نلمح التطور والحداثة بالمدينة حين نجد في الزقازيق إعلانات لأشهر محلات الملابس الأوربية وهي محلات الخواجة تودوري باباداكي في الزقازيق بشارع عباس وشارع ترعة الوادي لبيع جميع الملبوسات الإفرنجية وغيرها للرجال والستات، مستوردة من أوروبا وباريز ولندن بالإضافة لجميع أصناف الجزم والشنط الأمريكاني[٥]، بالإضافة لمحلات الخواجة لوانيدي ساوولي.

---

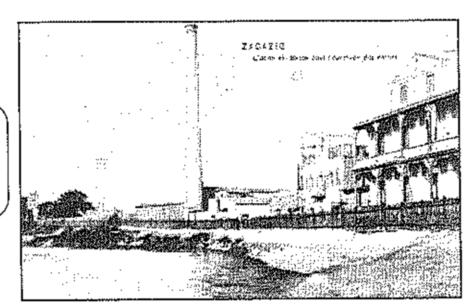
(١) أشهر التجار عام ١٩٠٣م الشيخ إبراهيم أبو أحمد، ومحمد أحمد، أحمد أفندي السلاوي، الشيخ علي بدر. راجع رحلة سعودي أفندي، ص٢٢.

(١) أشهر التجار الخواجة لوانيدي ساوولي، الخواجدة تودري بابادا كي. راجع رحلة سعودي أفندي، ص٢٢.

(٣) أشهر التجار سنة ١٩٠٣م حسن علي الهندي وأولاده.

(٤) أشهر الورش سنة ١٩٠٣م ورشة السيد أفندي حلاوة، وورشة الخواجة ماريوس توربيل.

(٥) ثابت وأنطاكي: دليل مصر والسودان، القاهرة ١٩٠٥م، ص١٠٥.



مصنع الغزل والنسيج في الزقازيق، مع مدخنة رائعة للغاية. الهندسة المعمارية الفرنسية الجميلة نحو عام ١٩١٠، المصور: كرونيكل

وقد أنشئ بها قصر للميري به مشربيات ساحرة، ومسجد بأعمدة وسقوف بلدية ومنارة رائعة وأقيمت فيه الجمعة[١] (يقع بسوق المدينة بقيسارية[٢] التجار أمام قناطر بحر مويس وبالقرب من سجن الزقازيق العمومي ويعرف باسم الجامع الكبير)، ثم جدد بها يوسف بك مسجدًا[٣] بالبر الغربي لبحر مويس يعرف

---

(١) بعد تزايد السكان صدر الأمر بالبناء وتجديد مسجد للصلاة على طرف الديوان وجعل هذا المسجد بأعمدة وسقوف ومنارة وأقيمت فيه الجمعة، وكان يقع بالبر الشرقي لبحر مويس أمام قناطر التسع، وكان يطل بواجهته الغربية على شارع قيسارية التجار (العطارين) وقد اندثر تمامًا سنة ١٢١١هـ/١٨٩٢م، وهدمه عباس حلمي الثاني وشيد مسجدًا في موقعه سنة ١٣١٢هـ، ومن أوقاف هذا المسجد حانوتين وقهوة ووكالة، أنشأهم محمد أفندي رشيد وكيل مديرية الشرقية، وأوقف ريعهم على المسجد، وقد هدمت القهوة واستبدلت بحانوتين من ريع الوقف، وأصبح موقوف على المسجد أربعة حوانيت ووكالة، ثم تصدعت جدران الحوانيت الأربعة فهدمت وشيد في موقعهم ثلاثة حوانيت سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م، وأصبح موقوف على المسجد ثلاثة حوانيت ووكالة بدلًا من أربعة. انظر: عبد المنصف سالم: مساجد مدينة الزقازيق في القرن التاسع عشر، ص١٦٨.

(٢) ورد هذا الشارع في الوثائق باسم قيسارية التجار أو قيسارية العطارين والقيسارية نوع من الأسواق تضم عددا من الحوانيت للتجارة، كما كانت تختص ببيع نوع من البضائع، وكان بالشارع قيسارية لبيع العطارة لذلك سمي قيسارية العطارين، وهو الآن يطلق عليه شارع «القسرية» أو «القسارية». عبد المنصف سالم: مساجد مدينة الزقازيق، ص١٨٠.

(٣) مسجد يوسف بك صدقي ١٢٧١هـ/١٨٥٤م (مندثر) أنشأ هذا المسجد يوسف صدقي بن عبد الله، وهو من الرقيق وكان مملوكًا لأحد البكوات الأتراك وكان يسمى أتو زبير خليل بك القوللي الذي أعتقه وقد ترقي في المناصب حتى تقلد وكيلًا لمديرية الشرقية في عام ١٢٧٠-١٢٧١هـ، ثم ضابطًا بالإسكندرية في عام ١٢٧٧هـ، وقد شيد هذا المسجد حينما كان وكيلًا لمديرية الشرقية وأوقف عليه أوقافًا عديدة =

بالمسجد الصغير وجدد بها مساجد وكنائس ومعاهد للعلم، وصادف في ذلك الحين أن جاء من الصعيد أحد كبار البنائين يدعي حسين عفاشة (له شارع باسمه في منطقة قسم النظام بالزقازيق)، فأمره الوالي ببناء قصر لنزوله به ومسجد للصلاة. وبعد مدة أصدر الوالي قرارا بتجديد مسجد الصلاة، وأخذ الناس يفدون إلى المدينة زرافات ووحدانًا[١]. ووصل عدد السكان بمركز الزقازيق (كان يحتوي على ٦٨ بلدة) سنة ١٩٠٣م نحو ١٩٨٨٣٧ نسمة[٢] وساهم في عمران المدينة عدد من المقاولين مثل: المعلم إبراهيم الرشيدي، وأحمد أفندي رمزي ونس، والمعلم حسين عفاشة، والخواجة خليل الخوري، شعبان أفندي ونس، ومحمد أفندي ونس، ومحمد أفندي علي يونس وأخوه، ومجاهد أفندي سيد أحمد، والشيخ محمود السلاوي، ومحمود أفندي حسنين، والمسيو وليم فلورلس[٣].

وفي تقرير دليل وادي النيل لعام ١٨٩١-١٨٩٢م أشار إبراهيم عبد المسيح إلى وجود عدد من الفنادق منها: أوتيل آل شديد، أوتيل اجبسيان، أوتيل الشرق، أوتيل ديكا فالا إخوان، أوتيل كوربيه، أوتيل الحاج محي الدين. وفي عام ١٩٠٣م يوضح لنا الرحالة والمهندس سعودي جلبي (شلبي) في كتابه عن الشرقية عام ١٩٠٣م إلى عدد اللوكاندات بالزقازيق منها: اللوكاندة المصرية (بشارع عباس)، لوكاندة الأهرام (بشارع عباس)، اللوكاندة الجديدة (بشارع عباس)، اللوكاندة

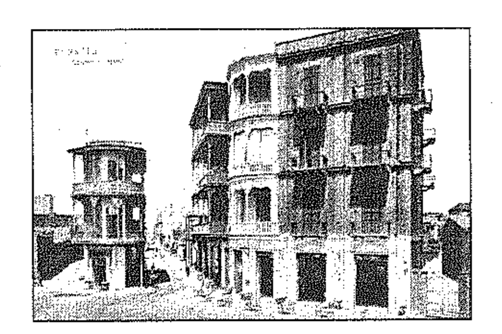
= بالإسكندرية والزقازيق. ويقع على الشاطئ الغربي لبحر مويس أمام قناطر التسعة على ناصية حارة الشمسي (المتولي حاليًا) وكان موقعه قديما وكالة أحمد الدخاخني التي آلت فيما بعد إلى ابنه مراد الذي باعها سنة ١٨٥١م إلى السيد حسن أباظة الذي باعها إلى يوسف بك صدقي عام ١٢٧١هـ لبناء المسجد وقد اندثر وشيد في موقعه الحالي مسجدًا آخر سنة ١٩٦٤/١٩٦٥م. انظر: عبد المنصف سالم: مساجد مدينة الزقازيق، ص١٦٨.

(١) يوسف عزب: إصدارات وزارة المعارف العمومية ١٩٤٩م، ص٨٧.

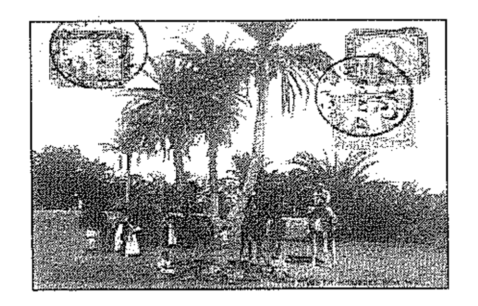
(٢) رحلة سعودي شلبي، ص٢٤.

(٣) دليل ١٩٠٥، ص٢٤٣.

العثمانية (بشارع الفراخة)[1]. وما أن نصل إلى عام ١٩٢٧م حتى يرصد لنا الرحالة إسماعيل مصطفى عدد الفنادق لاستقبال الوافدين منها: لوكاندة ادن بالاس، لوكاندة دار السعادة، لوكاندة باروخ، لوكاندة لفتيري، لوكاندة انستي (بشارع عباس البوستة حاليًا)[2].



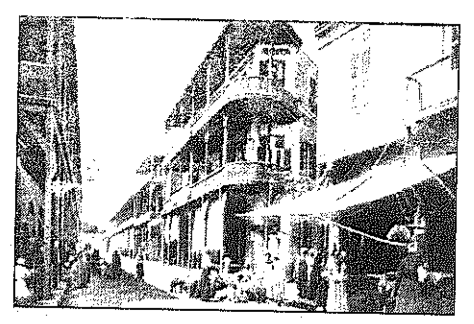
شارع الحريري بالزقازيق ١٩٠٤م



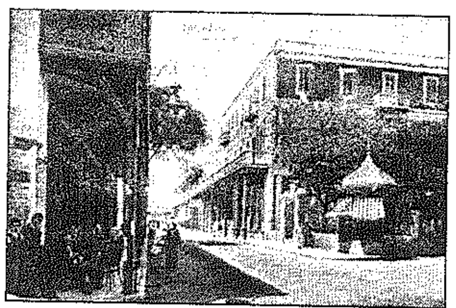
على ضفاف بحر مويس القرن الـ ١٩

(١) سعودي شلبي: دليل الشرقية في وصف بلاد المديرية (ط١، مطبعة على أحمد سكر بشارع محمد علي، القاهرة ١٩٠٣م)، ص٢٣.

(٢) رحلة إسماعيل، ص٨٢.



الزقازيق شارع عباس - البوستة
١٩١٠م



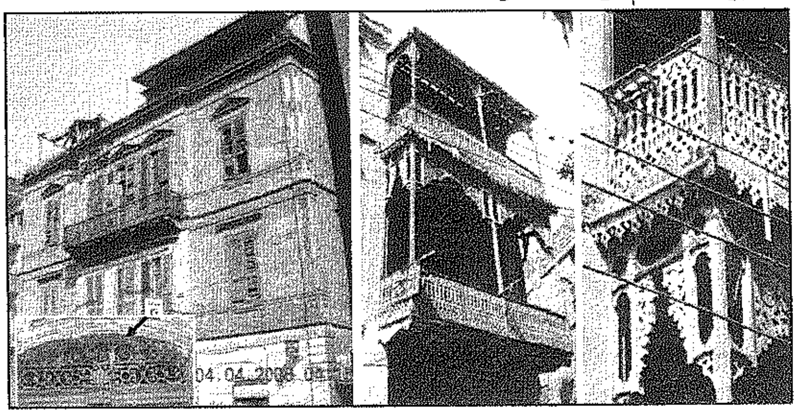
الزقازيق شارع عباس - البوستة
١٩١٠م

كما ترافق معها عدد من القهاوي الشهيرة التي كانت ملتقى المثقفين والعمال، والموظفين منها قهوة المثلث، قهوة البورصة (بشارع الجناين)، قهوة بلفي، قهوة بنايوتو، قهوة النيل، قهوة البسفور، القهوة التجارية، وكان يقع أمام الأولى منتزه صغير(١).

وتوسعت الزقازيق بعد ذلك ليقام فيها ديوان المديرية والمجلس المحلي وديوان الهندسة ومجلس للمشيخة ومجلس تنظيم ومدرسة لتعليم الشبان اللغات والحساب والهندسة ومحكمة شرعية كبرى مأذون لها بالحكم في عموم القضايا مثل البيوع والرهن والإسقاط.

(١) رحلة إسماعيل، ص٨٢.

والجدير بالذكر أنه في (سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م) ابتدأ العمل في إنشاء القناطر التسع تحت إشراف المرحوم أحمد أفندي البارودي باش مهندس ري مديرية الشرقية في ذلك الوقت.وكان محمد علي شديد الاهتمام بإنشاء الترع بالشرقية وقد كتب في (٢٢ ذي القعدة ١٢٥١هـ/١٨٣٦م) إلى مدير الشرقية يقول: «إن ثلاثين يومًا لحفر ترعة الوادي كثير بل يلزم السعي والاجتهاد في إتمامها في ظرف عشرة أيام وبدلًا من أن يشتغل يوميًا ١٨٢١ عاملًا أجعلوهم ٥٤٦٠ عاملًا ويجري تشغيلهم يوميًا بالأجرة».



بيت رخا أو (أبو رخية) بالزقازيق، يرجع تاريخ تشييده لعام 1880م كما هو موضح بعتبة البيت في الإطار. والصور توضح الزخارف والأرابيسك الموجود بشرفات المنزل؛ إذ يعد تحفة معمارية، كما شهد أحداثاً تاريخية ساخنة؛ إذ به سرداب مهجور لإخفاء المنشورات وغرف وأبواب وهمية للتمكن من الهرب حال حدوث مكروه.

بعد ذلك رأي محمد علي باشا أن تكون الزقازيق قاعدة الشرقية بدلًا من بلبيس وذلك لتوسطها بين بلاد الإقليم فأصدر أمره (سنة ١٨٣٣م) بنقل ديوان المديرية والمصالح الأميرية الأخرى من بلبيس إلى الزقازيق.

وفي (سنة ١٨٣٦م) تم بناء أول ديوان أقيم في الزقازيق لأعمال موظفي المديرية والمصالح الأميرية ثم أخذت المدينة في الاتساع والعمران بسبب وجود

المصالح الحكومية الأميرية بها، واتخاذ التجار وأرباب الحرف والصناعات الزقازيق مقرًا لأعمالهم لا سيما بعد إنشاء السكك الحديدية وتفرعها من محطة الزقازيق إلى القاهرة والمنصورة والسويس وبورسعيد وفي عام ١٩٢٤م أنشأت بها دارًا للكتب العامة (رآها وذكرها الرحالة إسماعيل في رحلته عام ١٩٢٧م).

وفي(سنة ١٨٩٠م) أصدر ناظر الداخلية قرارًا بفصل مدينة الزقازيق عن مركز القنايات وجعلها من ملحقاتها وجعلها مأمورية قائمة بذاتها يرأسها مأمور لإدارة أعمالها، ومعه موظفون غير موظفي المركز.


صاحب السعادة/ عمر بك رشدي
(مدير الشرقية)

ويرصد لنا الرحالة المهندس سعودي جلبي (١٩٠٣م) أسماء الذين تولوا منصب مديرية الشرقية بعد أن فصلت من مديرية القليوبية وصارت مستقلة بذاتها، وهم بالترتيب: نوري باشا (أول مدير للشرقية بالزقازيق)، محمد باشا فوزي الأول، حسن بك حلمي، إسماعيل باشا حمدي، محمد باشا رستم، عيداروس بك الحوت، محمد بك سعيد الأول، سليمان باشا أباظة، إبراهيم باشا أدهم، أحمد باشا فريد الأول، طه باشا الشمسي، محمود باشا البارودي (شاعر السيف والقلم)، محمد باشا فوزي الثاني، إبراهيم بك زكي، أحمد بك ناشد، إلياس باشا محمد، علي باشا غالب، علي باشا ثابت (ورد اسمه في دليل ١٨٩١)، سعد الدين باشا، أحمد باشا فريد الثاني، محمد بك فايز، علي باشا آصف، مصطفى باشا وهبي، محمد بك سعيد الثاني، عدلي باشا

يكن، عمر بك رشدي[1] (١٩٠٣م)[2].

وفي سنة ١٨٩٦م أصدر ناظر الداخلية قرارًا بنقل ديوان المركز من بلدة القنايات إلىٰ مدينة الزقازيق لتوسطها بين بلاد المركز وتوافر المساكن بها ووقوعها علىٰ رأس السكك الحديدية المتفرعة منها وسمي بمركز الزقازيق[3]. جدير بالذكر أن الزقازيق من المدن الكبيرة في مصر الواقعة علىٰ (ترعة) مويس والتي يسميها الناس في الشرقية بـ (بحر مويس).وقد شهد الوالي محمد علي بكرم أهل الزقازيق وأعجب به حين زار المدينة في أعقاب بناء قناطر الزقازيق (سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م) والتي أصبح من الضروري تسمية هذه القناطر باسم معين تعرف به بين رجال الري وتذكر به في مكاتباتهم فاختاروا لها اسم قناطر الزقازيق نسبة علىٰ نزلة الزقازيق المنسوبة إلىٰ أفراد عائلة زقزوق وعلىٰ كفر الزقازيق موطنهم الأصلي الواقع في شمال مكان القناطر علىٰ بعد ٤٠٠ متر وقد أقام أفراد عائلة زقزوق مساكن لهم وللباعة بجوار مكان القناطر لإقامتهم عرفت بين العمال وغيرهم باسم نزلة الزقازيق، ولما تم بناء القناطر (١٨٢٧م-١٨٣٢م) زارها محمد علي وأعدت له وليمة فاخرة وقدموا له الشيخ (إبراهيم زقزوق) كبير العمال فشكره علىٰ المجهود الذي بذله هو ورجاله وأفراد عائلته في بناء القناطر،

(١) عمر بك رشدي مدير الشرقية عام ١٩٠٠، عين ياورًا للوالي توفيق باشا خديو مصر عهد الثورة العرابية، ورقي إلىٰ رتبة يوزباشي، وألحق بديوان الجهادية بوظيفة أركان حرب حتىٰ عام ١٢٩٢هجريًا ١٨٧٥ ميلاديًا، ورقي إلىٰ قائمقام حرب عام ١٢٩٦هجريًا ١٨٧٩ ميلاديا وعين معاونًا بالمجلس العسكري العالي المشكل لمحاكمة أحمد عرابي ورفاقه في الثورة (كان يطلق عليهم العصاة) ويشير سعودي شلبي إلىٰ إخلاص عمر بك رشدي للخديو توفيق زمن العصيان (الثورة) ولم ينقد لأوامر العصاة، ولم يخش لهم وعيدًا وبقي محافظًا علىٰ حق النعمة بدعو للجناب الخديوي بالتأييد في السر والعلانية، وبعد ثلاث سنوات من الثورة العرابية في عام ١٨٨٥ ميلاديًا أنعم عليه الجناب العالي بالرتبة الثانية جزاء خداماته الجليلة (علىٰ حد قول سعودي شلبي) فزاده هذا الإنعام تنشيطًا علىٰ تأدية وظيفته حتىٰ اشتهر بين أقرانه بالاجتهاد والعفة. انظر: دليل الشرقية، ص١٢، ١٣.

(٢) سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص١٤، ١٥.

(٣) محمد رمزي، القاموس الجغرافي، مرجع سابق ص٩٢.

ولما علم الوالي أنها سميت قناطر الزقازيق نسبة إلى أسرة الشيخ (إبراهيم زقزوق) قال محمد علي: (فلتكن الزقازيق على بركة الله)[1].

- **عائلة الزقازيق**

والزقازيق اسم يطلق على سمك صغير له شوكة حادة في ظهره لو أكلته ما سلوته، ثم تتجاوز معناه .. أتلك البقعة الصغيرة التي عرفها أهلها بصيدة وبيعه؟

تلك بقعة صغيرة كنت تري فيها أكواخا وخياما، وبين تلك الأكواخ الفقيرة والخيام الرثة الحقيرة منزلان مبنيان باللبن هما أساس مدينتا الحاضرة، وأول بناء فيها، وفي تلك الأكواخ بين الترع والمستشفيات يعيش قوم من الصائدين تقوم حياتهم ومعيشتهم على صيد الزقازيق، وقد كان سكان القرى المجاورة يفدون إلى هذا المكان لشراء ذلك السمك فإذا سئلوا عن مقصدهم أجابوا «الزقازيق»، ومن ثَمَّ أطلق على هذا المكان اسم الزقازيق[2].

فإذا سرت في تلك البقعة تدهش إذ ترى مساحة كبيرة من الأرض تكسوها الحشائش، تتهادى في وسطها ترعة كبيرة أو بركة صغيرة. عجيب جدًّا ماء عذب وبجانبه أرض جرداء، مما يثبت لنا مقدار اهتمام هؤلاء الناس بالصيد بدلًا من الزراعة التي هي مصدر الخير والبركة. ولا عجب إذا علمت أن تلك الطبقة الفقيرة العفيفة الأبية، من سلالة العرب عرب البادية الذين يرعون الإبل والأغنام وينفرون من الزراعة لأنها المهنة الحقيرة في نظرهم، وتلك شيمة العرب. ازداد عدة هؤلاء القوم، فاشتغل القليل منهم بالزراعة والبعض الآخر بصناعة الحصر مما ينبت على حافات الترع والمستنقعات ثم تدرجت الحال من جماعة من الصائدين إلى قرية صغيرة بكفر الزقازيق البحري حاليًا.

---

(١) محمد رمزي، مصدر سابق، ص٩٣.

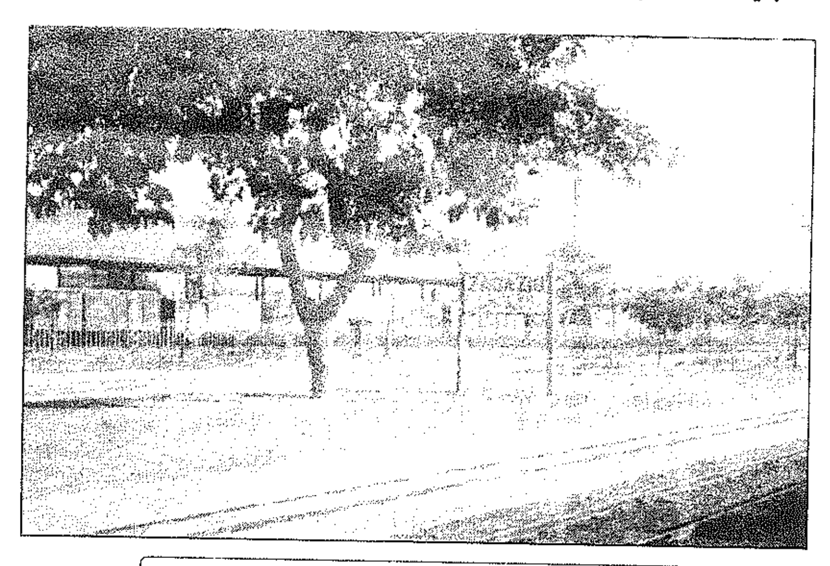
(٢) رحلة سعودي شلبي، ص١٠.

وفي أثناء تجوال محمد علي باشا.بالوجه البحري مر بتلك البقعة (الزقازيق) ورأى المياه تناسب بين بور الأرض، فاصدر أمره الكريم بإقامة قناطر عند بحر مويس الذي يروي أراضي تلك المنطقة ليسهل وسائل الري بها، وسرعان ما حضر المهندسون والعمال فشيدت لهم أكواخ من الطين والقش لإقامتهم وتم ذلك سنة ١٢٤٨هجرية[١]، وقد كان بوسط المدينة حلقة لبيع القطن يجتمع فيها التجار، وبجوارها مخازن لخزنه، وشمال المدينة مكان لبيع الغلال والبذور.

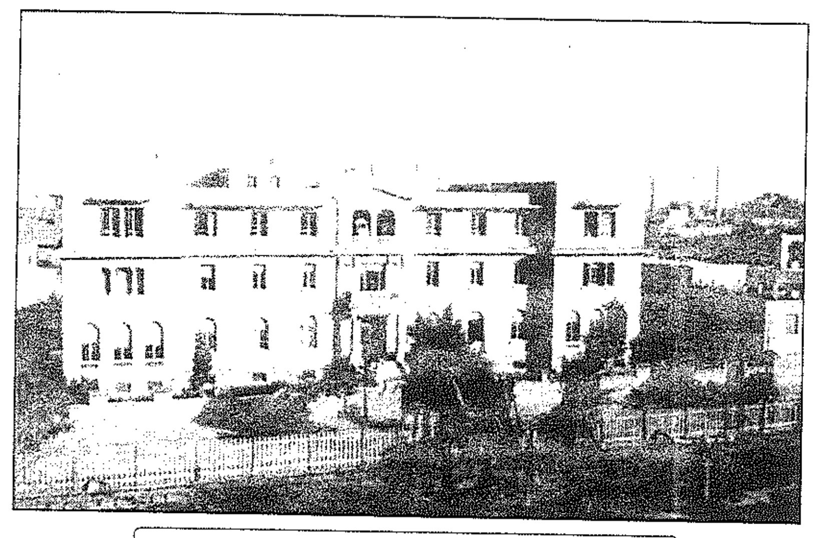
وفي الحقيقة كان وراء التطور السريع في اتساع مدينة الزقازيق العديد من العوامل كان أهمها ما أوقفنا عليه (فيض الله نوري) مدير الشرقية حين أرسل تقريرًا إلى سعيد باشا (في ١٨ مايو ١٨٦٢م/٩ ذي القعدة ١٢٧٨هـ) جاء فيه: «إن بندر الزقازيق قد أصبح بلدًا عامرًا من إقامة كثير من التجار المسلمين والأوربيين فيه ومن إقامة العمال المشتغلين في حفر قناة السويس الذين يفدون من أقاليم الوجهين القبلي والبحري»، ومنذ شهر يناير سنة ١٨٦٢م. ازدادت أهمية مدينة الزقازيق إلى حد بعيد فقد تم حفر ترعة من الماء العذب من القصاصين إلى (نفيشة) ووجد بذلك شريان مائي متصل يربط الزقازيق بمساحات الحفر في منطقة قناة السويس وأصبح يمر سفراء الدول بالزقازيق في طريقهم إلى ساحات الحفر وبعد ذلك أخذت المدينة في الاتساع والعمران بسبب وجود المصالح الأميرية بها واتخاذ التجار وأرباب الحرف والصناعات بها مقرًا لأعمالهم لاسيما بعد إنشاء السكك الحديدية وتفرعها من محطة الزقازيق إلى القاهرة والمنصورة والسويس وبورسعيد وغيرها لتشق الزقازيق طريقها لتحتل محورًا مهمًا في ملتقى الطرق في مصر وسط كبريات المدن المصرية.

---

(١) يوسف عزب، إصدارات وزارة المعارف العمومية، ص٨٦.



محطة قطـار الزقازيق ١٩١٨م



قصور الزقازيق ١٩٢٠م

• الشرقية في عيون فرنسا!!

تعتبر الشرقية وعاصمتها الزقازيق من أهم المدن التي تحدث عنها رحالة فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي خاصة بعد وصول الخط الحديدي إليها مما أدى إلى انتعاشها ورواج تجارتها وأشار الرحالة الفرنسي ريفو إلى أهمية موقعها فهي تقع شرق السويس ومنها تتجه إلى البحر الأحمر والسويس وسورية ومن أهم مدن الشرقية: بلبيس والصالحية[١]، وأما الرحالة الفرنسي فرومونتان فيقول عنها: «رائحة التراب فيها كغيرها من المدن المصرية». فقد لاحظت أنها مدينة كبيرة بها أعداد كبيرة من المصانع، ومنازلها جيدة البناء وهي مدينة شيدت حديثًا نظيفة، بيد أنني لم استنشق فيها الشرق!!.

وأكد دي جارس على جمال وبهاء مدينة الزقازيق وحدائقها الغناء ومزارعها ومراعيها الواسعة التي تروي بواسطة مجموعة من القنوات وهي بصفة عامة مدينة يتوفر فيها كل وسائل الخدمات فيوجد بها خط حديدي ومحطة وجهود الدولة فيها واضحة لتحديثها وتطويرها.

وتقع صان الحجر أو تانيس شمال الزقازيق وكانت عاصمة الهكسوس قديمًا وتقع شرق الدلتا وقد ظلت عاصمتهم حتى قضي عليهم رمسيس، وتشتهر صان بآثارها فيوجد بها أعداد كبيرة من المسلات ومن المنشآت الأثرية المهمة التي ترجع إلى عهد الأسرتين السابعة عشرة والتاسعة عشرة، وكانت من الطبيعي أن تلفت هذه المنطقة انتباه الأثريين خاصة ماريين.

وعلى مقربة من الزقازيق يوجد تل بسطة وهو مدينة بوباست القديمة وتبدو كجبل صغير يحيط به سياج على شكل دائرة وتوجد قطع حجرية أثرية تحتوي على نقوش هيروغليفية[٢].

---

(١) إلهام محمد ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر (سلسلة مصر النهضة، العدد٥١، القاهرة ١٩٩٥م)، ص٣٥٥.

(٢) نفسه، ص٣٥٦.

• الزقازيق وقناة السويس!!

جدير بالذكر أنه شرعت الشركة في تنفيذ مشروع قناة السويس في ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ على ساحل البحر الأبيض عند الموقع الحالي لمدينة بور سعيد، وكانت منطقة جرداء موحشة لم يهرع إليها خلال السنة الأولى البائعون أو التجار يفتحون المحال التجارية أو ينشئون المطاعم وغيرها ليصيبوا من ورائها ثروات. فلم تعد بور سعيد أن تكون إذ ذاك قرية صغيرة ولم يكن أمرها قد ذاع في أوساط التجار والمغامرين وكانت تمونها بعض القرى المجاورة - ولا سيما المنزلة ببعض الأسماك الطازجة والبطارخ ثم اتجهت الشركة في شأن تموين موظفيها وعمالها المصريين إلى فرنسا والإسكندرية ثم دمياط والزقازيق والقاهرة، وكانت الزقازيق تقوم بتموين العمال المصريين الذين استخدمتهم الشركة في أعمال تنفيذ المشروع وكان يخص كل عامل مقدار من الخبز المجفف والبصل والعدس والأرز والزيت. أما المشايخ (وهم رؤساء العمال) فكانوا يتناولون زيادة على ذلك كمية من البن والسكر.

ولقد انتهت التجارب المتعددة إلى إنشاء إدارة جديدة للتموين في يوليو سنة ١٨٦١ لها مركز في الزقازيق وآخر في دمياط، وكانت هذه الإدارة تقوم بتنظيم مشكلة التموين تنظيما يمنع أسباب الاضطراب حتى كفلت إعداد المواد الغذائية وغيرها بمقادير كبيرة كانت تفي بحاجات آلاف العمال الذين كانوا يعملون في ساحات الحفر. ولكن الشركة رأت صعوبة المضي في شحن البضائع من فرنسا بسبب تأخر وصول سفنها (السفينة سعيد ثم يوسف) عن موعدها كما كان هياج البحر تجاه بور سعيد - قبل أن تقوم الشركة بإنشاء المنشآت البحرية في الميناء يحول دون اقتراب السفن من الشاطئ وقتًا طويلًا، وعلى ضوء تلك التجارب أحست الشركة ضرورة اختيار مدينة أخرى تزخر بالخيرات ولا يفصلها عن ساحات الحفر سوى شقة صغيرة لا تصادف في نقل الأقوات عليها عناء أو أخطار فتجعل منها مركز تموين ثم تبعث بالأقوات منها تباعًا إلى

موظفيها وعمالها في ساحات الحفر، وقد وقع اختيارها على دمياط والزقازيق ولا غرو فالزقازيق تقع في منطقة غنية تستطيع تموين بعض مراكز الحفر والعمل في أسفل التصف الشمالي من البرزخ كما كانت السفن النيلية، تصل إليها حاملة الحبوب وغيرها من الخيرات من مختلف جهات الدلتا مما مكن الشركة من ابتياع مقادير كبيرة منها وإرسالها تباعًا إلى ساحات الحفر، وقد تحسنت وسائل المواصلات بين الزقازيق وساحات الحفر إلى حد كبير للغاية على أثر حفر قناة الماء العذب حتى بحيرة التمساح -وبجانب إنشاء تلك المستودعات المركزية في الزقازيق عمدت الشركة إلى تعيين مندوبين لها في مدن الشرقية المهمة وقراها يشترون ما هي بحاجة إليه من مواد غذائية وأدوات وخصوصا المقاطف والقفف وغيرها ثمن يبعثون بهذه المشتريات بالطريق المائي أو السكة الحديدة إلى الزقازيق فالقصاصين فالتمساح.

- **الزقازيق أشبعت الغريب وجاعت!!**

وكان للشركة أيضًا مندوبون في الزقازيق يتولون الإشراف على نقل البضائع من القطر الحديدية التي ينتهي سيرها عند تلك المدينة إلى السفن النيلية أو القوارب أو تخزينها في مخازن أنشأتها الشركة في تلك الجهة ريثما تعد وسائل نقلها إلى ساحات الحفر حتى إن المقاول العام في الزقازيق أقام تجاه ترعة الوادي كلكا (أخشاب متقاربة مربوط بعضها إلى بعض على سطح الماء لأجل النقل) ترسو عنده السفن القادمة من الدلتا وتفرغ شحناتها أمام المخزن مباشرة وكانت بعض المواد الغذائية التي ترد من الدلتا يتسرب إليها أحيانا الفساد لطول الوقت فتضطر الشركة إلى إتلافها محافظة على الصحة العامة، هذا إلى أن الشركة كانت قد أنشأت في سنة ١٨٦١ مخبزًا في الزقازيق إذ كان الخبز المجفف الذي تستورده الشركة لتوزيعه على العمال لا يلبث أن يصيبه التعفن سريعًا، وقد عزا الطبيب المشرف على قسم التمساح ظاهرة تفشي الأمراض المعوية بين العمال إلى رداءة

الخبز وعدم صلاحيته للأكل فكان هذا من الأسباب التي حدت بالشركة إلى إقامة مخبز شدته بالطوب في الزقازيق وكان يجلب له الدقيق بانتظام من أنحاء المديرية أو المديريات المجاورة، وكان نجاح ذلك المخبز أكبر مشجع لمقاول الشركة العام علي فتح عدة محال عامة في ساحات الحفر يديرها لحسابه الخاص وتبيع المواد الغذائية بالتجزئة تيسيرا لسبل الحياة أمام العمال والموظفين وهم في تلك الناحية النائية فافتتح عدة مطاعم ومحال جزارة لبيع اللحوم ومحال بقالة وكانت هذه المحال تأخذ حاجتها من مستودعات التموين المركزية في الزقازيق وكانت تقدم الأطعمة علي النظام الأوربي وحدد لها المقاول أسعارا كالآتي:

- خبز زنة ٥٠٠ جرام ٢٥ سنتيما
- حساء ١٠ سنتيم
- لحم وخضار وسلطة ٢٥ سنتيما
- الحلو ١٠ سنتيم
- لتر من النبيذ ٦٠ سنتيما

وهكذا لم تقف خدمات مستودعات التمرين في الزقازيق عند تموين العمال المصريين بالطعام المخصص لهم (كانت الشركة تقدم لكل عامل الجراية المخصصة له التي التزمت الشركة بتقديمها تنفيذا للائحة ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦ وكانت تكلف الشركة ٦٠ سنتيما لكل فرد) فحسب، بل أدت أجل الخدمات لموظفي الشركة وعمالها الأجانب.

وفي أواخر سنة ١٨٦١ أنشأ المقاول سوقًا في القصاصين تباع فيه الخضر واللحوم والطيور والبيض وبعض الفواكه التي كان يحضرها كثير من أهالي الشرقية والذين أصابوا من هذا العمل أرباحًا وفيرة، ولكن الحقيقة أن صادفت الشركة صعوبة كبيرة، إذا كانت حركة نقل المأكولات الطازجة من الشرقية تضعف إلى حد كبير أيام التحاريق إذ ينخفض منسوب الماء في ترعة الوادي

والترعة العذبة فيتعذر على القوارب السير في مياهها والوصول بالمأكولات إلى طوسون أو القنطرة، وقد حاولت الشركة علاجها لهذه الحال أن تنقل مواد التموين من نقطة وقوف القوارب على ظهور الجمال وهذا سبب ضياع كميات كبيرة من الأقوات نتيجة سطو البدو عليها وهي في طريقها إلى تلك الجهة مما جعل تموين العمال أحيانًا أمرًا صعبًا باهظ التكاليف، وقد حدث مرة أن تعرض مستخدمون وعمال كانوا يعملون في طوسون إلى الهلاك بسبب نفاد الطعام لولا أن تداركهم أحد مشايخ قبائل البدو بجهة التل الكبير فأمدهم ببعض بقر أفراد قبيلته، ولقد شكا ديليسبس نفسه عدة مرات أن المنطقة الوسطى من البرزخ مضطربة في تموينها ومعرضة لنقص الأقوات ولرداءة المواد الغذائية علاوة على ارتفاع أسعار الحاجيات فيها ارتفاعا فاحشا حتى قيل إن عددا كبيرا من الجمال قد مات من الجوع ون تأثير التعب، وعلى عكس ذلك لم تصادف الشركة صعوبات تذكر في إعداد الأقوات للعمال الذين كانوا يعملون في حفر ترعة الماء العذب التي قامت الشركة بشقها من القصاصين إلى بحيرة التمساح إذ كانت تلك المنطقة أقرب المناطق إلى الأراضي الزراعية في شرق الدلتا ولذلك لم تشك نقصا في الأقوات ولا ارتفاعًا في الأسعار.

- **إعلان ديليسبس في مساجد الزقازيق!!**

وفي فبراير سنة ١٨٦١ وضع ديليسبس صورة إعلان باللغة الفرنسية ثم طلب ترجمته إلى اللغة العربية ثم طبع في إحدى المطابع بمدينة الزقازيق، وفي هذا الإعلان دعا ديليسبس المصريين للذهاب إلى البرزخ وحبب إليهم العمل هناك وزينه في قلوبهم، فذكر أن الشركة قد أقامت في خصيصًا لسكني العمال وأنها شيدت في كل منها مسجدًا، كما ذكر أن ماء الشرب قد توافر من أجلهم، وحدد لهم الأجور على أساس إنتاجهم ووعدهم بأجر يتراوح بين ستة قروش وثمانية في اليوم، كما ترك للفلاحين حرية شراء ما يروق لهم من مخازن المقاول

بالأثمان المحددة في التسعيرة أو من الباعة المتجولين وختم إعلانه بقوله إنه حرم على الرؤساء الأوروبيين ضرب الفلاحين أو إساءة معاملتهم، ولقد جاء في المادة السابقة من هذا الإعلان ما نصه «تترك الحرية التامة للعمال المصريين في شئون الطعام فيستطيعون دائما شراء المأكولات إما من محلات المقاول بالأثمان المقررة في التسعيرة وإما من الباعة الذين يفدون إلى ساحات الحفر من أقرب المدن إلينا وهي بلبيس والزقازيق والمنصورة ودمياط».

وقد طبع من هذا الإعلان ثلاثة آلاف نسخة وقام مندوب الشركة والمقاول بتوزيعها في مدن الشرقية وقراها أولًا حتى إنهم ألصقوا نسخا منه على أبواب المساجد وفي محطة الزقازيق وفي الشوارع والأسواق، وأقسام البوليس، كما طاف مندوبو الشركة بمنازل العمد والمشايخ يشرحون للفلاحين ما تضمنه ذلك الإعلان، ومن الشرقية انتشرت هذه الوسيلة من وسائل الدعاية حتى وصلت إلى مديرية أسوان والنوبة.

- **ديليسبس في الزقازيق!!**

لم يكتف ديليسبس بذلك بل رأي أن يقوم بنفسه بدعاية أخرى لحث الفلاحين على التوجيه إلى منطق الحفر فقام بجولة في بلاد الوجه البحري وبدأ طوافه من الإسكندرية في ١٤ مارس سنة ١٨٦١ حتى وصل إلى بنها ثم عرج على الزقازيق وأقام فيها عشرة أيام يضع الخطط والأسس التي يقوم عليها فرز العمال في تلك المدينة ثم استأنف رحلته شرقا إلى أن بلغ بحيرة التمساح ومن هناك بدأ رحلته إلى سوريا.. ولم تكن هذه الرحلة التي قام بها دليسبس في الوجه البحري موفقة ولم تسفر عن نتائج مرضية سريعة إذ وقعت هذه الرحلة خلال شهر رمضان (مارس سنة ١٨٦١) ولم يقبل كثير من الفلاحين على السفر للبرزخ وآثر كثير منهم البقاء في قراهم مع ذويهم خلال هذا الشهر حتى قالت جريدة الشركة «كان من أثر صيام العمال المسلمين في رمضان أن تأخرت أعمال

الحفر إلى درجة محسوسة»، وبعد انقضاء شهر رمضان - وقد انتهى في ١٠ إبريل سنة ١٨٦١ - جاء إلى ساحات الحفر عدد كبير من العمال يتراوح بين ستة آلاف رجل وسبعة آلاف.

عدد العمال الشرقاويين الذين عملوا في ترعة الماء العذب من القصاصين إلى نفيشة على مقربة من بحيرة التمساح (من ١٩ أبريل سنة ١٨٦١ إلى ٢٣ يناير سنة ١٨٦٢)[١].

الشهر	عدد العمال
أبريل ١٨٦١	٨٠٧
مايو	٩٢٢
يونيو	٨٢٩
يوليو	٦٩٥
أغسطس	١٩٢٧
سبتمبر	٣٣١٠
أكتوبر	١٧٦
نوفمبر	٢٣٥٧
ديسمبر	٣٦١٤
يناير ١٨٦٢	٣٨٣٣[٢]

(١) راجع الدراسة الفريدة للدكتور مصطفى الحفناوي: قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة، الجزء الأول، تاريخ القناة وأصول مشكلاتها المعاصرة (مطبعة مصر، القاهرة ١٩٥٢م، ص٢٧٠؛ بطرس بطرس غالي، يوسف شلالة: قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤-١٩٥٧م، الجمعية المصرية للقانون الدولي، القاهرة ١٩٥٨م؛ الحسيني منسي: الشرقية وحفر قناة السويس، إصدارات وزارة المعارف العمومية، القاهرة ١٩٤٩م، ص٢٣٣.

(٢) يلاحظ زيادة العدد ابتداء من أغسطس سنة ١٨٦١م عقب الشروع في تنفيذ لائحة سنة ١٨٥٦م.

• محطة قطار الزقازيق

تعد الزقازيق في ملتقي العديد من الطرق الحديدية.، فمن الخطوط التي أنشئت في عهد الوالي عباس الأول والوالي سعيد باشا خط آخر من بنها إلى الزقازيق (عام ١٨٦٠م) طوله ٣٧ كيلومتر[١]، ومن الخطوط التي أنشأت في عهد الخديوي إسماعيل باشا؛ خط من الزقازيق إلى الإسماعيلية (عام ١٨٦٨م) وطوله ٧٨ كيلو متر وخط من الزقازيق إلى بنها (عام ١٨٧٠م) وطوله ٣٧ كيلو متر وخط من قليوب إلى الزقازيق (عام ١٨٦٥م) طوله ٧٣ وخط من الزقازيق إلى المنصورة (عام ١٨٦٥م) وطوله ٧٠ كيلو متر وخط آخر من (أبو كبير) إلى الصالحية عام ١٨٦٩م[٢] وطوله ٣٤ كيلومترًا وقد ورد اسم الزقازيق الحالي بخريطة رسم الحملة الفرنسية في (سنة ١٨٠٠م) وقد ورد محرفا باسم (كفر زجزي) وهو بذاته كفر الزقازيق لوقوعه في مكانه الحالي بقرب قناطر التسعة بالزقازيق[٣] ومع حلول عام ١٩٢٧م، وصف الرحالة إسماعيل مصطفى المحطة بقوله: «ومحطة الزقازيق الأميرية تعد أهم محطات السكة الحديدية بالوجه البحري[٤] ولها ممر سفلي وبناؤها من أحدث المباني وبها جملة أرصفة لكثرة خطوطها الحديدية وأهميتها

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل الجزء الثاني دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٨٢م، ص٢٠. وانظر: محفوظات قصر عابدين، محفظة ٢٨ وثيقة (٥٦٢٠)، وانظر:عبد العزيز الشناوي: السخرة في حفر قناة السويس، القاهرة ١٩٥٨م، ص١٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢. وانظر: أحمد بدوي محمد الشريعي: مركز الزقازيق دراسة في جغرافية العمران الريفي، رسالة ماجستير، آداب الزقازيق، ١٩٨١م، ص٣٦.

(٣) محمد رمزي، القاموس الجغرافي الجزء الأول، القسم الثاني، ص٩٢.

(٤) أشار إبراهيم عبد المسيح في تقرير دليل وادي النيل لعام ١٨٩١-١٨٩٢م أن ناظر المحطة حينها الناظر عوض أفندي سلامة، التلغرافجي المسيو هنري كاميلييري - كما أشار سعودي شلبي في رحلته عام ١٩٠٣ - أن ناظر محطة الزقازيق اسمه حنين أفندي فهمي.

التجارية». وأشار الرحالة إلى وجود مخازن كبيرة تخترق الزقازيق من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة بحر مويس على بعد ٥٢ مترًا من البحر، كما أشار إلى وجود محطة مهمة تسمى (محطة الدلتا الضيقة) تقع بكفر الإشارة ولكي يتوصل الإنسان إليها يمر على كوبري سوارس الواقع على بحر مويس[١] أمام القهوة التجارية التي أشرنا إليها سابقًا[٢].

ومع حلول عام ١٩٢٦م كان يخرج من الزقازيق خطان حديديان فقط: الأول من الزقازيق إلى أجا ويمر بمحطات (شيبة، القنايات، بهنباي، فرسيس، أكوا، ديارب نجم، برما كيم، دبيج، شيخ القاسمي، السنبلاوين، نوب طريف، نوري باشا، شبراهور، برج النور، أجا).

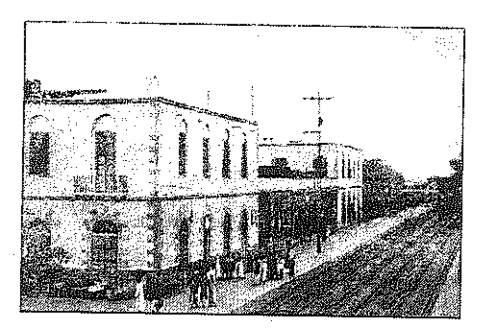
والثاني من الزقازيق إلى ميت غمر، ويمر بالمحطات الآتية (شيبة، القنايات، النخاس، البيوم، مسكا، ميت أبو خالد، كفر الشهيد، صهرجت، ميت ناجي، فم الصافورية[٣]، ميت غمر).

---

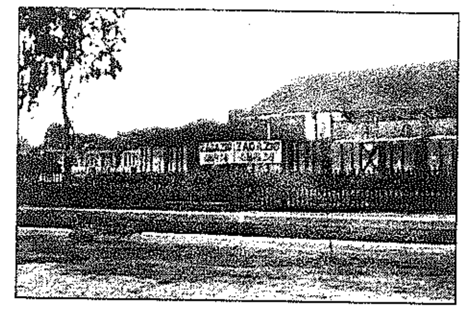
(١) كوبري سوارس نسبة إلى فليكس سوارس الذي ولد سنة ١٨٤٢م، وتوفي في القاهرة عام ١٩٠٦وكان قد أنشأ مع أخوته روفائيل ويوسف مؤسسة سوارس الاقتصادية عام ١٨٧٥ أول مَن أدخلوا عربات نقل الركاب التي تجرها الخيول وسميت هذه العربات السوارس نسبة لهم وسمي باسمهم ميدان سوارس في القاهرة وكوبري سوارس في الزقازيق وهو الأخ الثالث من عائلة سوارس اليهودية وأنشأ مع أخوته البنك العقاري المصري مع شركاء فرنسيين ومع عائلة قطاوي اليهودية وقد اقترن الخواجة فيلكس سوارس بالآنسة ركيتا كريمة أصلان بك قطاوي وأنجب منها أربعة صبيان وخمس بنات، كما أنشأ مع أخوته البنك الأهلي مع شركاء بريطانيين.

(٢) رحلة إسماعيل، ص٨٢.

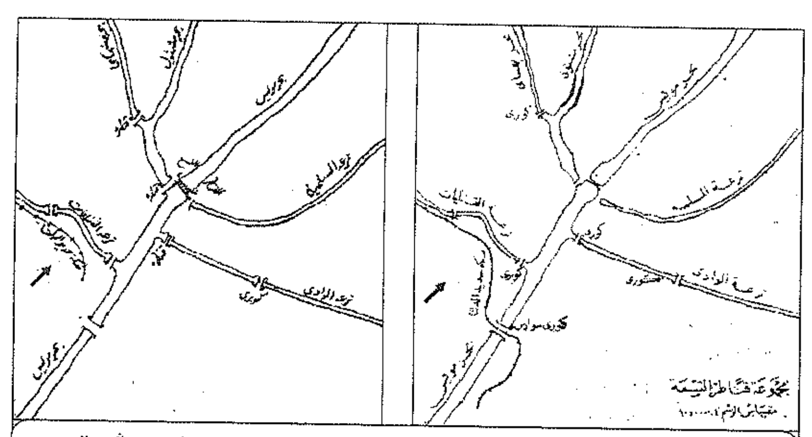
(٣) نقطة تقابل أربعة خطوط حديدية، الأول القائم من الزقازيق إلى ميت غمر، الثاني القائم من أبو حماد إلى ميت غمر، الثالث القائم من السنبلاوين إلى ميت غمر، الرابع القائم من المنصورة إلى القناطر الخيرية، راجع: رحلة إسماعيل، ص٨٢.



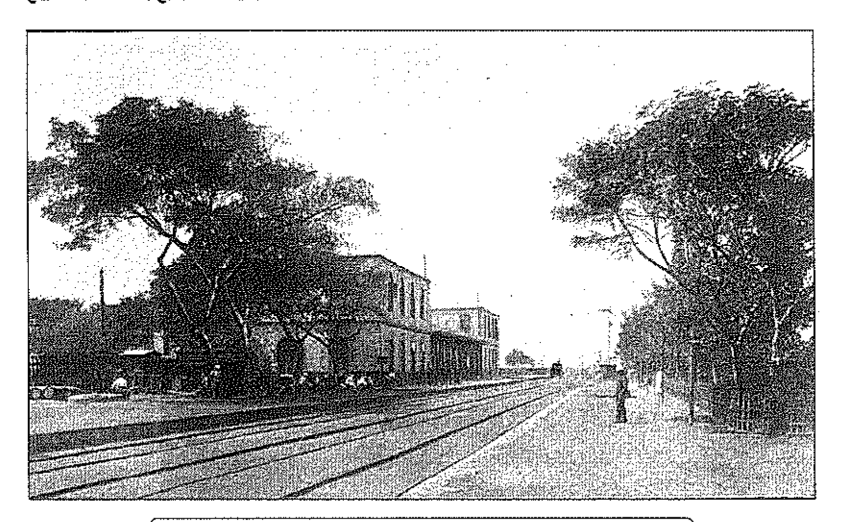
محطة قطـــار الزقازيق ١٩٠٤م



رصيف محطة قطـــار الزقازيق ١٩٠٤م



خريطتان لتخطيط مدينة الزقازيق وتطورها في عام ١٩٣٩م وفي عام ١٩٤٩م، ويشير السهم إلى تطور سكك حديد الزقازيق، وقد تم ردم العديد من الترع كالوادي والقنايات، وإلغاء خط سكك حديد الدلتا والذي كان يمر عبر كوبري سوارس بالزقازيق



صورة نادرة لمحطة قطار الزقازيق



شراقوة في انتظار القطار على محطة قطار الزقازيق ١٩٢٠م

• شراقوة في البرلمان!!

وفي (سنة ١٨٢٩م) ألف محمد علي مجلس المشورة (البرلمان حاليًا - مجلس الشعب) وهو نواة لنظام شورىٰ برئاسة إبراهيم باشا نجل محمد علي، ودخل فيه أعضاء من مأموري الأقاليم، ومنهم حسين أفندي مأمور الشرقية، وكذلك دخل فيه مشايخ وأعيان الأقاليم منهم الشيخ أيوب عيسوي والشيخ عبد الغالب سالم والشيخ علي المعلم والشيخ علىٰ المكاوي والشيخ مصطفىٰ علي عن أبو كبير، وعن (شيبة شرقية - منطقة جامعة الزقازيق حاليًا وما بعدها) الشيخ حسن أباظة والشيخ غيث والشيخ بغدادي أباظة، وعن (ههيا) الشيخ أحمد دريبة، وعن (قسم أول الشرقية) الشيخ إبراهيم سالم والشيخ محمد خضر والشيخ محمد عليوة، وعن (العزيزية بمركز منية القمح) الشيخ موسىٰ والشيخ محمد عبد الله والشيخ إبراهيم والشيخ أبو نصير[1].

ويذكر التاريخ أنه قد نمىٰ لمسامع محمد علي في (شهر ربيع الأول ١٢٥٢هـ) أن (مدير نصف الشرقية) اعتدىٰ علىٰ أولاد حسن أباظة «بيشة بالشرقية» من دون أن يعملوا ما يستوجب «الأذية» فكتب إليه يأمر بأن لا يتعرض لهم (لحين حضوره وأن يعاملهم بالحسنىٰ)[2].

• أول باشا مصري من الشرقية!!

وكان الشيخ حسن أباظة رجلًا مقدامًا ثريًا وكان يملك أربعين ألف فدان وذلك في زمن محمد علي وقد ذهب الكثير من ثروته العقارية في الكرم وأعمال الخير والتماس الجاه فترك لولديه السيد باشا أباظة وسليمان باشا أباظة أقل من نصف ما كان يملك.وجاء في الخطط التوفيقية ما نصه: «ومن أشهر عائلات العائذ وأعظمها رتبة وأرفعها مكانة أولاد أباظة، تقلبت في الرتب السنية

---

(١) عبد الرحمٰن الرافعي، تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث، عصر محمد علي، مرجع سابق، ص٥٧١- ٥٧٣.
(٢) كريم ثابت، عصر محمد علي، مرجع سابق، ص٦٥.

والمناصب الديوانية، جملة منهم، وسبقهم في ذلك الأمير الجليل، ذو المجد الأثيل المرحوم حسن أباظة ... إلخ. توفي سنة ١٢٦٥ هجرية». وورد في الجزء الرابع عشر من الخطط التوفيقية: «أن أهل العايد (أو العائد أو العايذ) في أول أمرهم نزلوا ببلاد قديمة مثل القصور والقسورية فاستولوا على أرضها ومزارعها واستخدموا مَن بقي من أهلها بما لهم من البأس والقوة واستمروا كذلك زمنًا مديدًا، وكان كبيرهم شيخ العرب إبراهيم العايدي متكلمًا عن قبيلة العايد في زمن الفرنسيين، وجاء محمد علي وهم في خشونة العرب ولهم مناوشات كبيرة وليس عليهم شيء مما على الفلاحين، وكانوا قد خولهم الله عقارًا وأموالًا ونخيلًا فخيَّرهم محمد علي بين معافاتهم في أن يعاملوا معاملة العرب بشرط أن ينزع ما تحت أيديهم من أرض ونخيل وبين أن يعاملوا معاملة الفلاحين ويبقي لهم ما تحت أيديهم، فاختاروا الفلاحة». أما الابن الأكبر لحسن أباظة (السيد أباظة باشا) فكان كما يذكر التاريخ مثالًا للكرم والنجدة والحزم وسماحة الأخلاق، وقد عين وكيلًا للداخلية ثم مفتشًا لعموم الأقاليم، وكان هو أول من أحرز لقب باشا بين المصريين ثم من بعده سلطان باشا في عهد الوالي سعيد باشا وقد توفي (السيد أباظة باشا - بحسب الشاهد الموجود على قبره بجبانة منشية السادات بالزقازيق - عام ١٢٩٢ هجرية).

وتزعم الأسرة بعده المغفور له سليمان أباظة باشا - وهو من أبناء الشيخ حسن أباظة - وقد شارك في أحداث الثورة العرابية وقد عين مديرًا للشرقية وظل في منصبه ست سنوات وغضب عليه الخديو إسماعيل باشا عندما غضب على إسماعيل باشا المفتش لأنهما كانا صديقين. وحين عقد مجلس لنواب الأمة في عهد الخديو توفيق أنتخب سليمان باشا أباظة عضوًا نائبًا عن الشرقية وتوفي في (٩مايو سنة ١٨٩٧م)[1].

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي، الطبعة الأولى ١٩٣٧، مطبعة النهضة، ص١٨٣، ٤٩٢.



صاحب العزة/ إبراهيم بك السيد أباظة



إسماعيل أباظة باشا

وقد شغلت هذه الأسرة مع العديد من الأسر العربية بعض وظائف الإدارة، فقد قام محمد علي بتدعيم أهدافه الرامية إلى إدماج القبائل مع المجتمع وكسر ترابطهم، وذلك بتعيين مشايخهم في وظائف حكومية لأول مرة فحتى عام ١٨٣٣م كانت جميع الوظائف الأعلى من عمدة القرية يتقلدها غير المصريين ومنذ تلك السنة كان الأهالي من المصريين يشاركهم في ذلك مشايخ العربان يعينون في وظائف «ناظر قسم» أو «مأمور».

ومن أبرز هؤلاء المشايخ الحائزين للأراضي نجد مشايخ الأباظية من أهل العائذ، ومن أكثرهم أهمية «حسن أغا» الذي عين في عام ١٨١٢م شيخًا لمشايخ نصف الشرقية من قبل إبراهيم باشا نجل محمد علي باشا، وعند وفاته في عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨-١٨٤٩م. كانت ممتلكاته من الأراضي قد وصلت إلى نحو أربعة آلاف فدان.

كما تولى مهنة رئيس الخيالة لاشتهار الشرقية بتربية الخيول، وفي نفس الوقت تم توجيه وظيفة نظارة العربان في الأقاليم الوسطى لعهدته.

ويرجع الفضل إلى العائلة الأباظية في تأسيس كفر أباظة[1] بالشرقية، كما تنسب قرية شرويدة بناحية الزنكلون إلى عرب العائذ.

ومنذ ذلك الحين وخلال القرن التاسع عشر نجد أن الكثيرين من كبار مشايخ عائلة العائذ قد شيدوا قرى جديدة واستقروا بها مع أسرهم وتوابعهم فالشيخ إبراهيم العائذي الذي توفي في عام ١٨٣٦م. قد شيد كر إبراهيم كما أن اثنين من الأباظية هما بغدادي (توفي في ١٨٥٨م) وحسين بك عبد الرحمن (توفي في ١٨٦٥م) قد ساهما في إنشاء القرى الجديدة.

---

(١) واقع شرقي السكة الحديد الواصلة من بلبيس إلى الزقازيق، ومن أشهر عزبه: عزبة سليمان باشا أباظة، وعزبة إبراهيم بك أباظة، وعزبة صادق بك أباظة، وعزبة محمد أفندي عوضي. انظر: سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص٥٢.

وكان بغدادي أباظة شقيق حسن وحسين عبد الرحمن أباظة من كبار حائزي الأراضي بالمنطقة، وعندما ألف محمد علي (المجلس العالي) اختار حسن أباظة وبغدادي أباظة عضوين فيه وقد استمر هذا المجلس ثلاث عشرة سنة من ١٨٢٤م إلى ١٨٣٧م.

وقد أصبح السيد أباظة ابن حسن أباظة رجلًا عظيم الشأن تقلد بعض المناصب الكبرى وتعهد بنحو عشرين قرية من قرى الشرقية في عهد محمد علي وابنه إبراهيم وكان في حيازته نحو ٦٠٥٠ فدان في نحو خمس عشرة قرية وقد تراوحت حيازة بقية عائلة أباظة ما بين خمسمائة وألفي فدان. وقد عين «السيد أباظة» ناظرًا لقسم العائد بالشرقية، وشغل «السيد أباظة» فيما بعد منصب مدير مديرية البحيرة في عهد سعيد وكان في حيازته وقت وفاته في عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م-١٨٧٦م ستة آلاف فدان. كما أنشأ مدرسة لتعليم أولاده بشرويدة فكانت النواة الأولى للمعرفة في القرية في ذلك الحين كما أنشأ مسجدا بنفس القرية.

أما الابن الثاني لحسن أباظة ويدعي سليمان أباظة فكان في حيازته نحو ألفي فدان في مديرية الشرقية حيث شيد مضخات للري ومحالج للقطن.وساهم بماله في بناء المحكمة الجزئية في ناحية منيا القمح[١].

ومن الأباظية الذين ساهموا في إنشاء المدارس محمد بك عثمان أباظة فقد أنشأ مدرسة في بلده بالربعماية[٢]، وعرف بتشجيع التعليم وبثه في جميع أنحاء مديرية الشرقية ورأس لجنة الكتاتيب وأنفق في سبيل تأسيس المدرسة الأموال الطائلة وافتتحها باحتفال فخم حضره صاحب المستر متشل مستشار الداخلية،

---

(١) الأهرام عدد ٤٨١٩ / يناير ١٨٨٤م.

(٢) الربعماية: من القرى القديمة، اسمها الأصلي حوض الأربعماية وذكر اسمها في التحفة باسم حوض الأربعماية، وكان زمام الناحية ٤٠٠ فدان وتقع في مركز منيا القمح بالشرقية.

وجمع غفير من رجال العلم والأدب وكان من الأعضاء الأُول الذين فكروا في تأسيس الجامعة المصرية(١)، وهو والد أمير المسرح الشعري عزيز أباظة.



حضرة الأديب/ محمد أفندي عزيز أباظة



صاحب العزة/ محمد بك عثمان أباظة

(١) فرج سليمان فؤاد: فرج سليمان فؤاد: الكنز الثمين لعظماء المصريين، القاهرة ١٩١٩م، ص٣٤٤، ٣٤٥.

• رجال الصناعة في ضمير الوطن!!

وكان قد شاركت الأسرة الأباظية في النهوض بالعمران وتحديث مدينة الزقازيق مع العديد من كبار الأثرياء والأعيان مثل: عبد اللطيف بك حسنين الذي أنشأ مدرسة عام ١٩٢٧م وملجأ للأيتام بالزقازيق[(١)] وساهم في العديد من المشروعات الخيرية وأطلق عليه الناس في الشرقية لقب (محسن الشرقية عبد اللطيف حسنين وهبة)، وفي عام ١٩٢٨ أنعم جلالة الملك فؤاد الأول عليه برتبة البكوية جزاء بره وإحسانه ومشروعاته الوقفية.



حضرة صاحب العزة/ عبد اللطيف بك حسنين وهبة المحسن الكبير في مديرية الشرقية
وإلى جواره سعادة/ إسماعيل رمزي باشا مدير الشرقية

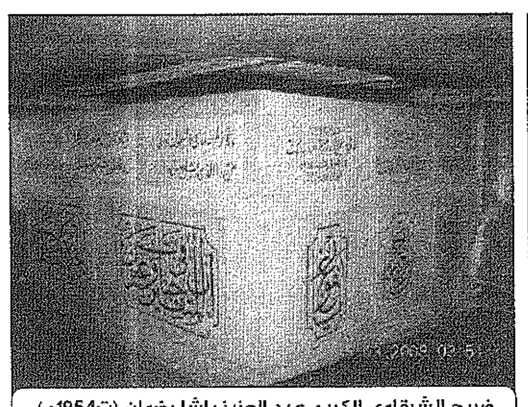
(١) ملجأ عبد اللطيف بك حسنين هو الملجأ الذي تربى فيه عندليب مصر الأول الفنان عبد الحليم حافظ.

• عصامي شرقاوي - عبد العزيز باشا!!

كما وجدنا في ضمير الشرقية رجل الأعمال المحسن (عبد العزيز باشا رضوان) الذي أنشأ العديد من المدارس والملاجئ والمساجد (مثل مسجده الكبير وسبيل الماء بمنطقة شارع فاروق حاليًا) عبد العزيز باشا رضوان في حب مصر والحارة التي عاش فيها بنى مدرسة - بنى ملجأ - بنى مستشفى للصدر - وساهم في بناء مستشفى الأميري بالزقازيق - ارتقى بصناعة القطن بالشرقية ولم يحتكرها لنفسه رغم أن الفرصة قد سنحت له أكثر من مرة - وبنى ٢٦ بيت لأهله مجانًا في شارع يحمل اسمه إلى الآن ولد سنه ١٨٧٩م في الزقازيق بكفر النحال[١].



عبد العزيز باشا رضوان (ت1954م)



ضريح الشرقاوي الكريم عبد العزيز باشا رضوان (ت1954م)، وبجواره ابن أخيه المرحوم علي إبراهيم رضوان (ت1929م)

ولقد تربى تربية دينية على حب الله ورسوله وآل البيت، وماتا أبوه وأمه في حادث وعمره ٨ سنوات، وتربى في بيت جدته لأمه يتيمًا، ودخل المدرسة الابتدائية والتعليم بها مجانًا بالزقازيق وانتقل ليتعلم بالأزهر الشريف على يد

(١) أمدني بتلك المعلومات حفيد عبد العزيز باشا رضوان المستشار عبد العزيز إسماعيل صبري رئيس محكمة استئناف القاهرة سابقًا.

الإمام محمد عبده وتعلم منه كيف يكون حب الأوطان .. وفجأة ماتت جدته وعنده ١٦ سنه فلم يجد من ينفق عليه فاشتغل بائعًا عند المرحوم (علي مكاوي) (تاجر أقمشة بالمنتزه بالزقازيق أمام محكمة الزقازيق الجديدة حاليًا بعمارة مكاوي) وكان راتبه ٨٠ قرش وفي سنة ١٨٩٥م ترك العمل ونزل حلقة القطن ... وكان يتاجر في الحبوب في غير موسم القطن وكان يشتري القطن بكميات بسيطة ويحلجه ويشحنه إلى ميناء البصل بالإسكندرية، وحقق ربحًا استطاع يشتري منزل بسيط ومتواضع بالزقازيق .. خسر أمواله فباع المنزل الذي اشتراه ليسدد ديونه وكان الضامن له (أمين باشا الشمسي رئيس تجار الزقازيق) وبدأ رحلة البناء من جديد دون يأس ولكن رفض مدير البنك الأهلي (لوتستا باشا) منحه أي قروض واستلف ٤٠٠ جنيه من الخواجة اليوناني (أربيب) واشتغل في تجارة القطن المنخفض الدرجة وقام بحلجه فتحسنت درجته وحقق ربح ٥٠٠٠ جنيه وسافر للسودان عام ١٩٠٧م (سواكن) وركب الجمل ١٦ ساعة إلى ميناء طوكر كان يشتري القطن ويحلجه ويصدره لانجلترا من السودان مباشرة، ،، وكان يصدر بذرة القطن لمدينة (هل) بانجلترا لصناعة الزيوت عاوده الحنين لمصر ولشارع فاروق وكفر النحال فعاد وفي عام ١٩٠٩م طلب منه ابن أخوه (علي إبراهيم رضوان) أن يتزوج ابنته فتزوجها بل وقام عبد العزيز باشا باقتسام أمواله وعقاراته وكل ما يملك مناصفة مع ابن أخيه عن طيب خاطر واستأجر عبد العزيز باشا رضوان محلج قطن الخواجة أربيب بشارع فاروق لحسابه سنتي ١٩١٣م، ١٩١٤م عُرِضَ المحلج للبيع في مزاد علني سنه ١٩١٥م فاشتراه عبد العزيز بزيادة ٥٠٪ عن ثمنه الأصلي كرد للجميل للخواجة أربيب، حيث كان يعمل في تجارة القطن التي عادت عليه بالأرباح التي أنفقها في سبيل أعمال الخير وتحديث عمران مدينة الزقازيق التي استمر فيها فيما بعد حركة مد شبكة السكك الحديدية في الوجه البحري وكثر تملك التجار الأجانب في الزقازيق

وابورات لحلج القطن وقد وجد بالمدينة وابورات مملوكة للخواجات مثل وابور(الخواجة روجيه كناكي) - حيث يقع مكانه قرب عزبة الصعايدة حاليا وقد اندثر - وهو وابور كبير، ومنازل لسكنه وسكن لمستخدميه في حلج القطن وبه طاحونة بخارية ومكبس قطن وحديقة وأضحت الزقازيق مركزًا مهمًّا من مراكز تجارة القطن في مصر[1]. وأهم المهن التي كان يشتغلها أهل الزقازيق هو عصر الزيت وحلج القطن وصناعة الحصر، وقد كان بها كثير من المحالج، وهاك جدولًا لمصانع المدينة بين عامي ١٩٣٩م، ١٩٤٩م.

العام	ثلوج	قطن	زيوت	طحين	ما يخص الأجانب
١٩٣٩م	٢	١٤	٢	٩	١٠ للقطن، ١ للثلج، ٧ للطحن
١٩٤٩م	٢	٣	٢	٤	٢ للقطن، ١ للثلج، ٧ للقطن

وحدثت عدة تطورات كبيرة في مجال تحسين وزيادة اختصاصات مدينة الزقازيق وغيرها من المدن الأخرى وفي أعقاب (سنة ١٨٩٠م) أي عقب إنشاء مجلس بلدية الإسكندرية تم إنشاء مجلس بالزقازيق (عام ١٨٩٣م) وكان يضم أعضاء من الأجانب والوطنيين فيما عرف بالنظام المختلط[2].

• شوارع وحواري رسمية!!

وفي (عام ٣١ يناير عام ١٨٨٤م) وافقت نظارة الأشغال العمومية على إقامة عدة شوارع وحواري في مدينة الزقازيق لكي تتمشى مع حركة البناء والعمران التي امتدت خارج المدينة من بين هذه الشوارع الطريق الموصل من قناطر بحر

(١) حلمي أحمد شلبي، فصول في تاريخ تحديث المدن في مصر (١٨٢٠-١٩١٤م) سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م، ص٤٢ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، ص٨٨، ٨٩.

مويس إلى خارج البندر، وحارة عبد العال وأحمد حلمي والجمال. وفي (يونيو عام ١٨٨٤م) وافقت نظارة الأشغال على إقامة شوارع أحمد أفندي عبد الله وحارة نيقولا مسدية وحارة سالم الختام وشارع ظهر قناطر السبعة والعيد روس وحارة إسماعيل متولي وشارع ماهر وأبو كركور وهي شوارع تغير الآن العديد من أسمائها تبعا لتغير الظروف السياسية والثقافية، وفي (أكتوبر عام ١٨٨٤م) «وافقت نظارة الأشغال على إقامة حارة محمد علي الفراش والعبابدي وعلي أفندي الأجزجي وحمد جوهر وشارع المديرية القديمة». وفي (يناير ١٨٨٥ م) أقيم شارع المحكمة وحارة الصباغ وعلي الشربيني وشارع شون الملح القديم وحارة عمارة وحارة حافظ[1]. وفي (أكتوبر عام ١٨٨٥م) حارة الحمام (بها حمام أستراتي)[2] من ضمن كفر الجامع وحارة شيخ الكفر. وفي (نوفمبر عام ١٨٨٥م) أقيم الشارع المستجد من شارع المتولي لحد الأرض الفضاء وحارة رخا شتا والعمدة - بجوار مدرسة عبدا لله فكري التجارية بالزقازيق الآن[3].

وفي (عام ١٨٩٧م) صدرت أوامر أخرى بإلغاء وتعديل وإضافة شوارع أخرى بمدينة الزقازيق. وفي (عام ١٩٠١م) تم استبدال أسماء بعض الشوارع فأطلق على شارع (جسر بحر مويس) اسم شارع (الاستباليه) وأطلق على شارع (البورصة) اسم شارع (عباس) وأطلق على شارع (سليم شديد) اسم شارع (جامع العيدروس)[4]. وشارع عباس معروف الآن بشارع «البوسته» ومن الشوارع الشهيرة بالزقازيق شارع (مولد النبي) (وفاروق) وشارع (الشمسي) - نسبة إلى

---

(١) أحمد حلمي، مرجع سابق ص١١٧، وللمزيد انظر: تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان عام ١٩٠٣م، مرفوع من كرومر إلى ناظر خارجية إنجلترا.

(٢) إبراهيم عبد المسيح: دليل وادي النيل ١٨٩١-١٨٩٢م، ص٢٩٣.

(٣) المرجع السابق، ص١١٧. وجريدة الاتحاد ١٩٠٢/٣/٣١م.

(٤) حلمي أحمد شلبي، تحديث المدن، ص١٢٣، ١٣٥.

(أمين باشا الشمسي) رئيس تجار الزقازيق - ومع حلول عام ١٩٠٣ يوضح لنا الرحالة سعودي شلبي الإطار العام للنمو الذي وصلت إليه الزقازيق بأنها تنقسم إلى عشرة أقسام: قسم الصيادين، وقسم الحكماء، وقسم يوسف بك، وقسم الجامع، وقسم المنشية، وقسم الحريري، وقسم المنتزه، وقسم النظام، وقسم معوض، وقسم الإشارة. وأن أشهر وأهم محاورها وشوارعها: شارع ثابت، شارع عباس، ويعرف بشارع البوستة، شارع فرانس، شارع الهواري، شارع الطوخي، شارع حسين عفاشة، شارع الحريري، شارع الفراخة، شارع المنتزه، ويمر بمحطة البضائع، شارع الغندور، شارع المديرية، شارع الوادي القبلي، شارع الحجار، شارع النايب، شارع الزيات، شارع الحمام، شارع البيطاوي، شارع الكونت سليم شديد، شارع الصاغة، شارع التوفيقي، شارع المحكمة الأهلية، شارع هنان بك، شارع الديب، شارع النمارسة، شارع السحن العمومي، مكتوب على السجن «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح»، شارع صبور، شارع أحمد عبد الله، شارع جنابية السكة الحديد، الشارع التوفيقي، وميدان عدلي، شارع كورتير وأغلبها مرصوف بالمكادم وفي البعض منها مراحيض ومباول عمومية. وهذه الشوارع تكون مناطق تسمي (كفورة) منها كفر يوسف بك، كفر الحكماء، كفر الزقازيق، كفر الصيادين، كفر الإشارة، كفر أبو الريش، كفر النحال، كفر المنشية الجديدة (منشية أباظة)، عزبة الحريري[1].

وخلال (عام ١٩١٣م) أيضًا كانت قد أنشئت سكك جديدة على نفقة مجالس المديريات في المسافة بين بنها ومنيا القمح وسكة أخرى في الغربية. بنفقة (مقدارها ١٣٨٣٩جنيه مصري)، ونظرت الحكومة في نفس العام في إقامة طريق بين بلبيس وشبين القناطر والجمالية والمطرية[2]. وبعد (عام ١٨٦٥م) على إثر

(١) سعودي شلبي: رحلته دليل الشرقية، ص١٠.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، الجزء الثاني، مرجع سابق ص٢٨.

وباء الكوليرا الذي حل بالبلاد في هذا العام، أنشئت مستشفىٰ بالزقازيق وكان عدد الأسرة بها ٥٥ سريرًا[١].

وفي (عام ١٨٩١م) ألتمس أهالي الزقازيق وبعض المدن الأخرىٰ من الحكومة إدخال مجالس البلديات إليها من أجل العناية بها وإدخال أعمال الرصف وصيانة الطرق وغيرها وقد وافقت الحكومة علىٰ ذلك. وفي (عام ١٩١١م) وافقت الحكومة علىٰ إنارة الزقازيق وخصصت لها مبلغ ٦,٠٠٠ جنيه مصري وخصصت لمدينة بلبيس ٣,٠٠٠ جنيه مصري[٢]. وفي (يناير عام ١٨٨٣م) وافقت الحكومة لشركة التليفون الشرقية الإنجليزية علىٰ إقامة خطوط تليفون في الزقازيق وبعض المدن المهمة الأخرىٰ[٣]. وبعد عام ١٩١١م أخذت مجالس البلديات في إقامة مستشفىٰ دائم بالزقازيق وتحديث المجاري والصرف الصحي، وفي (٩ نوفمبر عام ١٨٩٢م) أصدرت الحكومة أوامرها بإدخال التحسينات الصحية علىٰ مراحيض الجوامع والحمامات العمومية بالزقازيق وغيرها من المدن المهمة والحيوية[٤]. وفي عام ١٨٧٩ في أكتوبر من العام نفسه وافقت الحكومة للخواجة الإيطالي (جوارينو) بإقامة سلخانات بالزقازيق والمنصورة. وفي عام ١٩٠٦م أقيمت سلخانات عمومية في منيا القمح وبني مزار ووافقت الحكومة المصرية عام ١٩٠٩م علىٰ نقل إيرادات السلخانات في بعض المدن البنادر من ميزانية الحكومة إلىٰ ميزانية المجالس البلدية والمحلية بدعوىٰ أن موارد هذه المدن لا تكفي ومن ضمنها الزقازيق.

(١) حلمي أحمد، مرجع سابق، ص١٥٣. وانظر: جريدة الاتحاد المصري: عدد ١٨٩٢/٨/٧.

(٢) حلمي شلبي، مرجع سابق، ص١٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٥.

(٤) المرجع نفسه، ص١٧١، ١٨٣، ٢٠٣.



الهلال

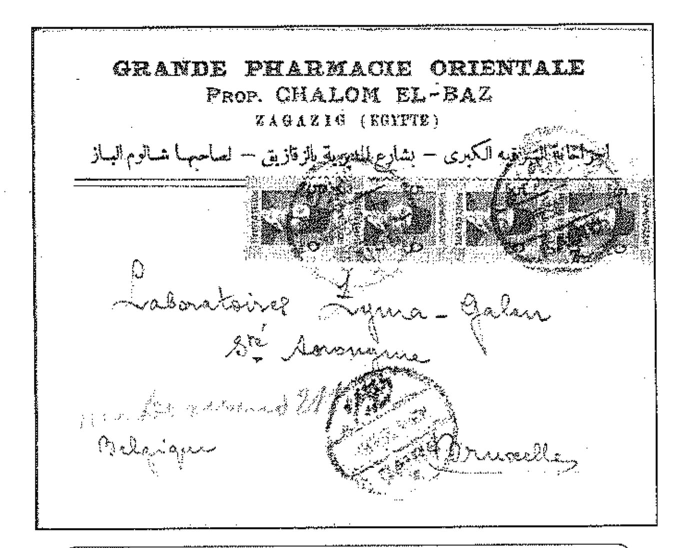
الجزء الاول من السنة الاولى

اول سبتمبر سنة ١٨٩٢ الموافق ١٠ صفر سنة ١٣١٠

﴿ الزقازيق ﴾

هي مركز مديرية الشرقية واقعة على بحر موسى وهي من المدن المصرية الحديثة بنيت في زمن المغفور له محمد علي باشا وكان في موضعها سدٌّ في البحر لاجل الري فاراد رحمه الله ان يعوض عنه بقناطر لتسهيل الري فاحضر العمال فاقاموا هناك في اعشاش بنوها على جانبي البحر وجاءهم بعض الباعة فاقاموا معهم لبيع اصناف الطعام عليهم فاصبح المكان قرية واخذت العمارة تزيد بعد اتمام القناطر حتى بلغت ما هي عليه الآن وقد دعيت زقازيق نسبة الى مستنقع في جوارها كان يعيش فيه نوع من السمك الصغير يدعونه زقازيق جمع زقزوق والله اعلم





الخدمات الطبية بالزقازيق أجزاخانة الشرقية الكبرى بشارع المديرية لصاحبها اليهودي شالوم الباز

- **حقوق ياسمين!!**

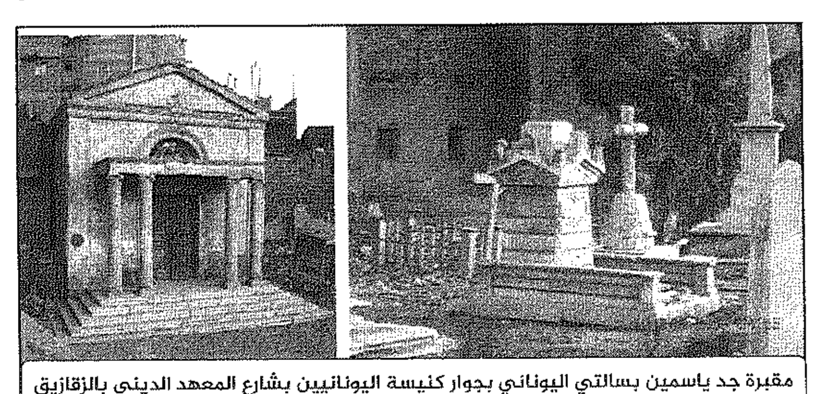
وساهم الأجانب اللذين استقروا بالزقازيق والشرقية على النهوض بالعديد من الخدمات وخاصة الجالية اليونانية بالشرقية حيث عملوا في أعمال وحرف وأنشطة كثيرة منها المفيد ومنها الضار وجعلت لهم طابعًا مميزًا عن بقية الأجانب في مصر وقد كان لهم دور كبير في تأسيس وتكوين بعض شركات الأقطان والصناعات المتعلقة بها[1] ومنهم عائلة بسالتي؛ وهي من العائلات اليونانية العريقة التي عملت أجيالًا وراء أجيال في الزراعة وإصلاح الأراضي في العباسة بالشرقية، ولم يكن لهم محل لبيع المشروبات الكحولية أو بيع الجبن الرومي والزيتون بل عملوا في الزراعة وإصلاح الأراضي، وكانت للأسرة علاقات حميمة مع تلاحمها للدرجة التي قاموا فيها جميعًا بتوديع الأسرة حتى بورسعيد بعد أن صادر الإصلاح الزراعي أراضي الأسرة منذ أكثر من ٤٤ عامًا. ومنذ ذلك التاريخ وللآن تحاول هذه العائلة الشريفة الحصول على مستحقاتها، ومات بسالتي الأب، وأوصي ابنه بمتابعة الجهود لاسترداد حقوقهم الشرعية في تعب الأجيال، وكان بسالتي الابن قبل لحظات من وفاته يحدث ابنته ياسمين عن آماله عندما يأتيهم التعويض.

فقد بدأ بسالتي حياته من جديد في أحد بنوك أستراليا حيث كان يقدم الخدمات للمهاجرين المصريين في ملبورن لشراء منازلهم وبدء حياتهم في وطنهم الجديد وعندما تسأله عن مشاعره نحو مصر والشرقية والمصريين ندهش وهو يقول لك إنني لا أحمل سوى مشاعر الحب والعرفان لهذا الشعب العظيم، وأن ما جري لينا ليس لأننا يونانيون فقد جري مثله لجيراننا المصريين، وتتساءل ياسمين ألكسندر بسالتي هل سيصل التعويض في حياتها أم حياة أحفادها[2]؟!

---

(١) نبيل عبد الحميد سيد أحمد: النشاط الاقتصادي للأجانب وأثره في المجتمع المصري من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٥٢م (القاهرة ١٩٨٢م)، ص٥٤.

(٢) محمود كريم: حقوق ياسمين، مقال بجريدة الأهرام ٢٤/٨/٢٠٠٠م.



مقبرة جد ياسمين بسالتي اليوناني بجوار كنيسة اليونانيين بشارع المعهد الديني بالزقازيق

وبحلول الحرب العالمية الأولى وما بعدها، تزايد تيار التحديث في الشرقية وبات الطريق مفتوحًا بعدما وافق الأجانب على دفع ضرائب لإدخال التحسينات على المدن، وكانوا قبلًا يرفضون ذلك، كذلك أقبل الأهالي على دفع نفقات هذا التحديث[1]. وفي (سنة ١٨٩٠م) زاد الاهتمام الأجنبي بفتح مراكز ثقافية ومدارس لتعليم اللغات فتأسست مدرسة للبنين بالزقازيق ووصل عدد تلاميذها في (سنة ١٩٠٤م) ٣٥٢ تلميذًا وقد كانت هناك رغبة قوية من أبناء الزقازيق لدراسة اللغة الإنجليزية على أيدي الناطقين بها ولذا اهتمت المدرسة باستقدام مدرسين أمريكيين لتدريس اللغة في هذه المدرسة ولكن لم يستمر الأمر طويلًا حينما لم تستطع المدرسة تدبير المرسلين الذين يستطيعون الإقامة في الزقازيق وإدارة هذه المدرسة فأغلقت المدرسة أبوابها في أواخر الخمسينيات.

(١) نفسه ص٢٢٠، وللمزيد انظر: لطيفة سالم: مصر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م، ص٧٧.

• القنايات مدينة العنب والذهب!!

أما مدينة القنايات فقد كانت مركزًا إداريًا مهمًّا من مراكز الشرقية، يتبعها كثير من البلاد النائية كالعزيزية، وتجد في المستخرج الرسمي لتاريخ ميلاد شيوخ العزيزية بيان محل الميلاد علىٰ هذا النحو: «العزيزية مركز القنايات» وفي سنة ١٨٦٠ م، قسمت إلىٰ ناحيتين هما كفر محمد مباشر وكفر خليل إبراهيم، وفي سنة ١٨٦٤م ألغي قسم شيبة النكارية ماليًا ونقل ديوان المركز إلىٰ بلدة القنايات باسم قسم القنايات وكان مقره كفر محمد مباشر، وفي سنة ١٨٨٤م نقل المركز إلىٰ مدينة الزقازيق مع بقائه باسم مركز القنايات. وبقيت مركزًا حتىٰ سنة ١٨٩٦ ثم انتقل المركز إلىٰ الزقازيق[١]. ومن أشهر عزبها عزبة رزق الله بك شديد (وكيل قنصلاتو ألمانيا)[٢]، وعزبة طنطاوي أفندي مباشر، وعزبة عبد العال مباشر، وعزبة سعدون حجاج وشريكه، وعزبة سلامة متياس، وعزبة خليل محمد مباشر، وعزبة محمد نجيدة وشريكه، ومن هذه البلدة الحكيم الماهر سالم باشا سالم أشهر حكماء عصره سنة ١٩٠٠م[٣].

والقنايات في بدايات القرن العشرين يقول عنها سعودي شلبي: «القنايات هي واقعة غربي الزقازيق بنحو ستة آلاف وربعماية متر، يخترقها علىٰ شكل ضلعي مربع ترعة عبد الرحمٰن بك، التي تستمد مياهها من بحر مويس، جنوبي قناطر التسعة، وعلىٰ مقربة منها بمدينة الزقازيق، وكان يتبعها في الإدارة سبع وعشرون عزبة، منبثة نحوها حتىٰ عام ١٩٤٠م[٤]. وكان لاتساعها وكثرة سكانها معين لها عمدتان سنة ١٩٠٠م الأول طنطاوي أفندي مباشر والثاني الشيخ محمد خليل»[٥].

---

(١) محمد رمزي: القاموس الجغرافي، القسم الثاني، الجزء الأول، ص٨٣.

(٢) سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص١٤.

(٣) سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص٢٩.

(٤) انظر إصدارات وزارة المعارف العمومية ١٩٤٠م، وانظر أيضًا مجلة المدرسة الإبراهيمية ١٩٤٣م، ص٢٣.

(٥) سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص٢٩.

وهي ملتقى خطين حديديين ضيقين «الشركة الدلتا» بين الزقازيق وكل من السمبلاوين وميت غمر وخطين للسيارات العامة التابعة لشركة «أمينويس الشرقية»[1] بين البلاد المذكورة على طريق زراعي عرضه اثنا عشر مترًا. قامت بيوتها لأول عهدها بالوجود، على تل يصل ارتفاعه عن سطح الأرض المجاورة في بعض نواحيه إلى خمسة أمتار، وكانت من اللبن، وسقفها على شكل أقبية، وقد أدركنا بيوتا قديمة على هذا النحو، والظاهر أنها بنيت على غرار ما سلف من البيوت الأولى في العهد الأول.ويعرف تراب هذا التل عند العامة «بالكفري» ومعناه عندهم المتخلف من بيوت مهدمة، موغلة في القدم، ويجاور هذا التل تلال ثلاثة أخرى من نوعه، وعلى أبعاد مختلفة من البلدة:

أولها: تل «أبو عبد الله» في الشمال الشرقي من البلدة، وعلى بعد كيلو متر تقريبا.

وثانيها: تل «صالح» في الجنوب الغربي منها، وعلى بعد يقل عن نصف كيلو متر.

وثالثها: تل «أبو رمانة» في امتداد التل الثاني حيث يبعد عنه بمائتي متر تقريبا.ولا يعرف أحد من المعمرين الآن شيئا عن هذه الأسماء التي نسبت إليها تلك التلال.

وقد نقصها أهل القرية من أطرافها، فنقلوا ترابها لتسميد الأراضي الزراعية، كما نقلت الحكومة جزءًا كبيرًا منه لردم المستنقع الذي كان يحيط بالبلدة. ولم يبق من أرض تل «أبو عبد الله» إلا جزء يسير يقوم عليه الآن قبر كبير لموتى المسيحيين بالبلدة، ومن تل «أبو رمانة» إلا جزء تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة به مدافن المسلمين من أهلها.

---

(١) إحدى الشركات الأجنبية العاملة في مجال النقل في النصف الأول من القرن العشرين.

ويقال إن الأهالي كانوا يعثرون على قطع من الذهب في أثناء نقلهم التراب من تل «أبو عبد الله» ولعلها من أنواع الحُلي والذهب التي كانت لسكان هذا التل، وأزقتها ضيقة مقفلة من الداخل، يصل إليها السالك من محيط البلدة، ولها أبواب من الخشب السميك، تسمى «بوابات» كانت تقفل ليلًا على أهل الزقاق، خشية سطو اللصوص، وقد أدركناها كآثار غير مستعملة[1]. ولكل زقاق طاحونة أو أكثر لطحين الحبوب، وقد بلغ عددها* سنة ١٩٠٦م اثنين وأربعين طاحونة تديرها الماشية، وقد أغفل أمرها بعد انتشار آلات الطحن البخارية الحديثة، فأصبحت تعتمد في طحن الحبوب على ثلاث آلات من ذوات الاحتراق الداخلي.

وعلى بعض حجارة هذه الطواحين نقوش ورسوم يرجع عهدها إلى الفراعنة يركب البلدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي بركة عميقة تبلغ مساحتها أربعة وثلاثين فدانًا ينتشر على جوانبها تلال من السرجين والسماد ويكثر فيها السمك، ونفد إليها الطيور الرحالة، ويسميها الأهلون «الوز العراقي» أو «الغطيس» لأنها كانت «تغطس» في الماء وتطفو، يؤمها صيادون من الجاليات الأجنبية بالزقازيق، وأقلية ضئيلة من أهل البلدة، لاصطياد هذه الطيور، وقد والت الحكومة ردم هذه البركة ثلاث مرات في المدة من سنة ١٩١١م إلى سنة ١٩٣٤م، حتى لم يبق لها أثر، وأقيمت على مساحات واسعة منها بيوت حديثة.

ويقال في تسميتها «القنايات» إن مكانها كان بستانا يكثر فهي العنب، وكان الأولون الذين يسكنون التلال المجاورة يعصرون العنب في أوان من الحجارة الصماء على شكل قنوات، ولما باد ذلك العهد، وتخلفت هذه القنوات «جمع قناة» أطلق عليها الذين وضعوا أول لبنة في بنائها «القنايات - جمع قناية» لأنهم أقاموا حيث كانت تلك القنوات، وقد استخدموها قنوات للسواقي بعد إدخال تعديل فيها، وأدرك آباؤنا بعضًا منها في السواقي المستعملة[2].

---

(١) وقد صدق على صحة هذا الكلام الشيخ محمد الغمري - ٨٢سنة - من سكان مدينة القنايات.

(٢) راجع عبد المقصود السيد راس: إصدارات وزارة المعارف العمومية، ص٣٨.

• الشيخان في الشرقية!!

ومن المدن التي تطورت في عهد محمد علي كانت مدينة (أبو كبير) التي كانت إحدىٰ مراكز مديرية الشرقية، وكانت قاعدة لقسم أبو كبير من سنة ١٨٢٨م. وفي سنة ١٨٧٥م ألغي قسم أبو كبير وتوزعت بلاده علىٰ مركزي العرين والصوالح اللذين حل محلهما مركزا كفر صقر وفاقوس[1]. تقول الرواية الشعبية إن: «أبو كبير» سميت بهذا الاسم نسبة إلىٰ شيخين كبيرين عامر بن الحليس من بني سعد بن هزيل العدناني أخو قريش ووردت تلك الرواية في، المحاضرات التي ألقاها يوسف أحمد باشا علىٰ مدرسي وطلبة المدرسة الخديوية الثانوية سنة ١٩١٧ والتي دونها في كتابه «مدينة الفسطاط» أن قبيلة هذيل سارت في جيش عمرو ابن العاص وكان لها في الفسطاط خط فعل هؤلاء الهذليين هم الذين استوطنوا أبا كبير فنسبت إلىٰ رجل منهم[2].

ولكن أقدم المراجع التي ذكرت اسم «أبو كبير» كتاب «قوانين الدواوين» لمؤلفه أسعد بن المهذب إن مماتي الذي تولىٰ ديوان المالية سنة ٥٧٧هـ. كتبها «بوكبير»[3] باللهجة العربية الشائعة في عهده لقوة نفوذ المغاربة أصحاب الجاه والسلطان في عهد الدولة الفاطمية ثم ذكرت بين أسماء المدن المصرية في كتاب «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» لابن الجيعان الذي توفي سنة ٨٣٢هـ. في عهد المماليك الجراكسة.

ولما جاء محمد علي باشا رأس العائلة العلوية نهض بالبلاد فكانت من آثاره

---

(١) محمد رمزي القاموس الجغرافي، ص١٢٦.

(٢) راجع أحمد يوسف: مدينة الفسطاط، مطبعة السعادة، دون تاريخ، ص٢٢؛ إصدارات وزارة المعارف العمومية، ص١١٦.

(٣) الأسعد بن مماتي: كتاب قوانين الدواوين، جمع وتحقيق: عزيز سوريال (مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩١م، ص١١١.

العمرانية في أبي كبير أن شق ترعة الصادي سنة ١٨٢٠م. التي سميت باسم ملتزم الناحية من قبل «شاهين الصادي» وبني بها تفتيشا للجعالك - تلك الأراضي التي خص بها محمد علي باشا أفراد أسرته وكبار حاشيته وأعفاها من الضرائب، وكانت في أول الأمر مقصورة على حق الانتفاع بها ولكن محمد علي باشا خول للأمراء حق التصرف الشرعي في هذه الأراضي ولورثتهم في أواخر حكمه سنة ١٨٤٢م. وفي عهد سعيد باشا تقرر حق ملكية الأراضي بمقتضي قانون سنة ١٨٥٨م فأصبحت أراضي أبي كبير ملكا للست حشم أمينة هانم.

وفي عهد الخديوي إسماعيل باشا قضي على ملك الست حشم أمينة هانم، إذ حدث أنه لما ساءت حال المالية المصرية تدخل الأجانب لمراقبة المالية المصرية وتألفت لجنة التحقيق العليا التي اعتبرت الخديوي نفسه هو المسئول عن مبالغ الديون وطالبته بالتنازل عن أطيانه المعروفة بأطيان الدائرة السنية والدائرة الخاصة فتنازل في ذلك الوقت بعض الأمراء والأميرات عن بعض أملاكهم. ولما كان بعض الديون لتجار ومقاولين ورواتب ومعاشات متأخرة للموظفين أخذ هؤلاء أرضًا بأبي كبير بدلًا من ديونهم وهذا السر في أن عزب أبي كبير لا تسمى باسم أهلها الأصليين مثل عزب حامد وفاضل ونسيم والصبان والباشا وعبد الرحيم حجازي محمد لا يمتون لأهل أبي كبير بأي صلة. وفي عهد الخديوي إسماعيل مد الخط الحديدي الذي يصل الزقازيق بالمنصورة مارًا بها سنة ١٨٦٥م، ثم الخط الحديدي الذي يصلها بفاقوس والصالحية سنة ١٨٦٩م. كما حفرت في عهده ترعتا الجنابية في وسط أبي كبير والرمل في جنوبها سنة ١٨٧م[١].

ولقد حدثنا على باشا مبارك وزير المعارف في عهدي الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق عن أبي كبير في كتابه المشهور «الخطط التوفيقية» (الجزء الثاني) لأنه اشتغل في أبي كبير في حداثته كاتبًا للأنفار لدى مأمور زراعة القطن عنبر

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٠. انظر: إصدارات وزارة المعارف العمومية، عام ١٩٤٩م، ص١١٦.

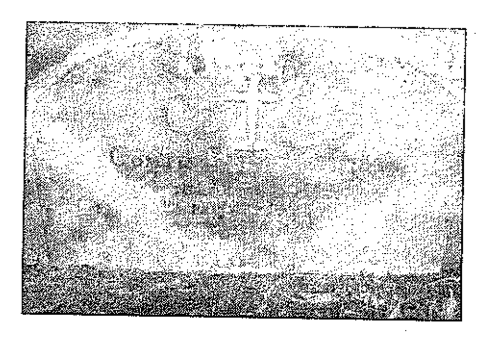
أفندي السوداني بمرتب ضئيل وذلك قبل أن يختاره محمد علي باشا للسفر مع أبنائه إلى فرنسا لإتمام دراسته قال: أبو كبير هذه الناحية عبارة عن عدة كفور من قسم الصوالح بمديرية الشرقية وجميعها ذات نخيل بكثرة وهي واقعة في جزيرة مرتفعة عن المزارع بنحو مترين، ويجاورها في الجهة الشرقية السكة الحديد الذاهبة للمنصورة وبها محطة المرور وديوان التفتيش التابع (للجفالك) وبها بساتين مشتملة على الليمون، وبها دكاكين وتجار من الدول المتحابة يتجرون في القطن والأبزار ونحوها، وبها أرباب حرف ومكاتب أهلية ومجلسا مشيخة ودعاوي وأبنية البلدة باللبن الرملي وسقوفها من خشب النخيل والجريد، وتمر بها السكة الحديد الموصلة إلى الصالحية وبعدها عن قرية فاقوس نحو عشرة آلاف متر إلى الجنوب، ومن شرقيها جزيرة أبو كبير (يقصد جزيرة فاضل سنتريس) وهي رمال غير صالحة للزرع ومرتفعة عن المزارع نحوا من ثمانية أمتار إلى ثلاثة أمتار. وتكسب أهلها من الزراعة سيما البطيخ وثمر النخيل وعدتها ذكورًا وإناثًا ٣٢٤٣ نفسًا وأطيانها ٣٣٣٢ فدانا وكسر.وقد بلغ تعداد السكان بـ(أبو كبير) سنة ١٩٤٧م ما يقرب من ٢٦٣٩٢نسمة[(١)].


سعادة الكومندور/ رزق الله بك شديد - وكيل دولة ألمانيا في الزقازيق

وفي عهد الخديو عباس الثاني ظهرت الملكيات الفردية بين أهالي أبي كبير عندما عرض القومسيون الذي حل محل إدارة الجفالك الأراضي الضعيفة للبيع بالمزاد فاشتراها الكونت سليم شديد وأخوه رزق الله شديد، ومنذ ذلك الحين بدأت صفقات البيع منها للأهالي وكانت أول الملكيات الفردية بأبي كبير للمرحوم السيد بك سالم والمرحوم سيد أحمد نمر سنة ١٨٩٣م.

---

(١) علي مبارك: الخطط التوفيقية، الجزء الثاني، ص٦٦. وانظر إصدارات، وزارة المعارف العمومية ١٩٤٩م، ومجلة مدرسة الزقازيق الثانوية، ١٩٣٩.



شاهد قبر الكونت سليم شديد بمقابر الكاثوليك بالزقازيق توفي ١٩٢٧/٢/٢٢م

وفي عهد الخديو عباس أيضًا أنشأت شركة الدلتا الإنجليزية بالبلدة الخط الحديدي الضيق سنة ١٩٠٠ الذي يوصلها بمعظم بلاد مديرتي الشرقية والدقهلية، وفي عهد الملك فؤاد الأول تعبدت الطرق الزراعية الموصلة بين أبي كبير وجاراتها القريبة والبعيدة من مدن مديرتي الشرقية والدقهلية، فساعد ذلك على سير سيارات الركاب والبضائع منها وإليها مما يسر المواصلات إلى مختلف بلاد القطر. كما كان من نتائج اهتمام الملك فؤاد الأول بالري والتعليم أن بنيت هندسة الري عام ١٩٢٢م وشيدت بها مدرسة ابتدائية أميرية سنة ١٩٢٧ وكانت نتائجها دائمًا ممتازة.

ولم تكن هذه المدرسة بأولى مدارس أبي كبير الابتدائية، فلقد أنشئت بها مدارس ابتدائية من قبل، وكانت أولى هذه المدارس مدرسة النجاح التي أنشأها الأستاذ نافع محمد قبل سنة ١٨٩٠، ولكنها توقفت عن الدراسة لعدم وجود المال اللازم للقائمين بأمرها، فأنشأ اسكندر وكيرلس مدرستين للتبشير المسيحي لم يلقيا إقبالا فأغلقتا عندما خشي أهل البلدة أن تتزعزع عقيدة أولادهم فعقدوا اجتماعا وقرروا فيه إنشاء المدرسة الحميدية الإسلامية سنة ١٩٠٤م، وكانت هذه المدرسة محل إعجاب الأهالي جميعا فأحرزت نجاحا باهرا وحصلت على نتائج لا يستهان بها، كما كان لها نشاط ملحوظ في المباريات الرياضية والموسيقية. ففي سنة ١٩٠٦م تغلبت على مدرسة جمعية العروة الوثقى بالإسكندرية في مباراة

حضرها الخديو عباس نفسه وأمراء البيت المالك وولى عهد اليونان الذي كان يزور مصر في ذلك الوقت.

وفي عهد الملك فاروق الأول أصبح بها مدرسة ثانوية أميرية تضم نحو ثلاثمائة طالب ومن بين تلاميذها - عدا أبناء أبي كبير وقراها المختلفة - أبناء فاقوس والصالحية وكفر صقر وههيا وأعمالها.

وفي عام ١٩٤٤م أنشئت بأبي كبير مدرسة ابتدائية أميرية كان بها عشرة فصول مزدحمة، ومدرسة أهلية ابتدائية، ومدرسة للصناعات الأولية، ومدارس أخرى أولية للبنين والبنات[١].

• الكوابرية...التجارة شطارة

كانت التجارة في عهد محمد علي باشا محدودة فقد كانت الحكومة في ذلك الوقت مهيمنة على التجارة، وكانت محتكرة للمحاصيل الزراعية تستولي عليها وتحدد أثمانها وتبيع الفائض منها بعد أن تستهلك ما يلزم لحاجة الجيش، والموظفين فبالرغم من أن محمد علي باشا أنشأ محلجًا للأقطان بأبي كبير لم تكن تجارة الأقطان والحبوب متداولة بين أهلها بل كانت تجارتهم مقصورة على الماشية والخيول والجمال والأغنام والبضائع القليلة التي ترد من الأقطار القريبة لقلة وسائل النقل في ذلك الوقت وعدم ثقة الأوربيين في أمن البلاد ونظمها وقوانينها لم يهبط أحد منهم أبا كبير لاستثمار أمواله فيها. فلما ألغى سعيد باشا نظام احتكار الحكومة للحاصلات وتودد للأجانب وقد كثير منهم إلى مصر خصوصا بعد حفر قناة السويس في عهد الخديوي إسماعيل التي حولت التجارة من رأس الرجاء الصالح إليها فتدفقت الأموال الأجنبية على مصر لاستثمارها

(١) انظر تقرير وزارة المعارف العمومية ١٩٤٨م. انظر إصدارات وزارة المعارف العمومية ١٩٤٩م، وانظر مجلة المدرسة الإبراهيمية ١٩٥٠م، ص٣٦.

ولسهولة المواصلات إلىٰ أبي كبير في عهد الخديوي إسماعيل ووجد الأجانب فيها مرتعًا خصبا لتجارتهم وبخاصة تجارة القطن فربحوا أموالًا طائلة بطرقهم الخاصة.

ولما نشأت حلقات القطن بعواصم المديريات كانت أقرب الحلقات إليها حلقتا المنصورة والزقازيق فبدأ الأهالي يمارسون الاتجار في فضلات القطن ثم ما لبثوا، وعرفوا الأنظمة المتبعة في تجارة القطن ومهروا فيها ثم أنشئت حلقة للأقطان بها سنة ١٩١٢. ولما نشبت الحرب العالمية الأولىٰ ربح تجارها أرباحا وفيرة وتضخمت ثروة المشتغلين بتجارة القطن بعد سنة ١٩١٨م عندما عقدت الهدنة وبدأت الملاحة البحرية وارتفعت أسعار القطن حتىٰ لقد قدرت ثروة أحدهم (الجعبيري) بأكثر من نصف مليون من الجنيهات.

وفي عام سنة ١٩٢٤م، عندما عملت وزارة سعد زغلول علىٰ تعميم إنشاء غرف تجارية في عواصم المديريات والمراكز أنشئت بأبي كبير غرفة تجارية بالرغم من عدم وجود مركز بها في ذلك الوقت وكانت هذه الغرفة حائزة لتقدير وثقة أولىٰ الأمر في مصر فأصبحت عضوا في لجنة وضع مشروع الغرف التجارية الذي كان يرأسه ويصا بك واصف واستمرت بخطي ثابتة ناجحة حتىٰ عام ١٩٣٢م.

ولقد حدثت عدة محاولات لتكوين جمعيات تعاونية بأبي كبير منذ سنة ١٩١٢ حتىٰ سنة ١٩٤٥ ولكنها فشلت جميعها وربما كان سبب ذلك الخلق التجاري الذي لا يعرف من التعاون إلا الربح ولا يستسيغ فرض الأسعار وتحديدها. فلقد تأثر الناس في أبي كبير بصفات التاجر حتىٰ لتجدهم غيورين نشطين مغامرين يهدفون إلىٰ الثروة والغني بكافة الطرق والوسائل. ولقد أصبحت التجارة لديهم عادة وغزيرة يتوارثها الأبناء عن الآباء فتأثروا بها إلىٰ الحد الذي صرف كثيرا منهم عن المثابرة علىٰ تلقي العلم قبل هذا الوقت. حتىٰ أنه يطلق علىٰ أهل أبو كبير اسم «الكوابرية أونطجية».

• إبراهيمية الإسكندرية وإبراهيمية الشرقية!!

في الإسكندرية حي شهير يسمي الإبراهيمية نسبة إلى إبراهيم باشا نجل محمد علي. أما في الشرقية فقد آثر الشرقاويون إنشاء قرية بأكملها على اسم إبراهيم باشا تخليدًا لذكراه وسميت باسم (الإبراهيمية) والتي يرجع تاريخ إنشائها إلى أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٩م ولا غني للباحث عن تاريخها من الرجوع إلى تاريخ حرب المورة إحدى الجزر اليونانية[1].

قد ثارت اليونان في عام سنة ١٨٢٠ ضد الحكم العثماني وحاول الباب العالي إخمادها بمختلف الحملات فلم يوفق، بل استفحل شرها، وعظم خطرها، وتعددت مذابحها وأخيرا لجأ الباب العالي إلى محمد علي باشا وإلى مصر ليستعين بجيشه على قمع هذه الثورة، وتقابل الأسطولان المصري والتركي في جزيرة ردوس، وولى إبراهيم باشا قيادة هذه الحملة التركية المصرية سنة ١٨٢١ فخضعت له معظم بلاد المورة، وسقطت أهم مدن اليونان ومنها أثينا.

عند ذلك تدخلت الدول الأوربية خوفا من نتائج ذلك النصر، وحدثت معركة - نفارين- المشهورة التي انتهت بتدمير الأسطول المصري العثماني بينما كان البطل إبراهيم باشا في داخل البلاد يطارد اليونانيين.

وتحت تهديد الدول الأوربية المنتصرة استدعي محمد علي ابنه إبراهيم باشا من بلاد اليونان، فعاد إبراهيم باشا من المورة، ومعه بعض الأسر الإسلامية التي ناصرته وساعدته في هذه الحرب، والتي خافت على نفسها شر الحرب الأهلية التي اشتعلت بين المسلمين والمسيحيين هناك.

عاد إبراهيم باشا ومعه هذه الأسر ليسدي لهم من المعروف جزاء ما أسدده له من نصر ومساعدة. في عام ١٨٢٨/١٨٢٩م. وهنا يبدأ تاريخ الإبراهيمية حيث وقع اختيار إبراهيم باشا على مكانها لتكون مقرًا لبعض هذه الأسر التي حضرت

(١) محمد رمزي: القاموس الجغرافي القسم الثاني، الجزء الأول، ص١٥٣.

معه من المورة، ولذلك سميت بالإبراهيمية نسبة إلى منشئها إبراهيم باشا، كما عرفت باسم المورلية - لأن تأسيسها كان على أيدي المهاجرين المورلية حيث أنعم عليهم بأراضيها إبراهيم باشا، وقسمها عليهم فجعل لكل عائلة منهم ٣٠ فدانا فأقاموا بها، وبنوا فيها منازل، وصارت بلدة عامرة من ذلك التاريخ بعد أن كانت مستنقع مياه، ولذا أطلق عليها أيضًا اسم العمارة لهذا السبب[1].

وأهم هذه الأسر التي أسكنها إبراهيم باشا بلدة الإبراهيمية هي: حفيظ - والأسطى - والحاج بليغ وإلى الكبير - العجوز - شمت - المرعشلي - بكير ليده - مرتضى عبدوش - أبو زيكو - عريف - دليب - خربطولي - اشكدرلي - ملطيلي - شكري.

وقد كانت الإبراهيمية في أول عهدها تمثل الحضارة العربية والروح الدينية. فقد كانت بيوتها منظمة منسقة كما اشتهر أهلها بالتفنن في طهي الأطعمة والحلوى على الطريقة التركية، كما كانوا يحيون الليالي بالغناء والموسيقى ترفها عن نفوسهم. وفي شهر رمضان كانوا يفتحون بيوتهم، ويستحضرون مشاهير القراء لتلاوة القرآن وإحياء لياليه إذا كان يفد عليهم كثيرون من أهل القرى المجاورة.

• حكاية العمدة اليوناني في الشرقية!!

وقد نصب إبراهيم باشا المورلين في بلدة الإبراهيمية أربعة من أعيانهم كالعهد في بلاد الريف فلما ماتوا خلفهم أخلافهم وكان بها مجلسان للدعاوي والمشيخة[2]، ولما استفحل العمران بالإبراهيمية، واستوطنها كثير من سكان البلاد الأصليين الذين كان يلقبهم المراليون - بالمصريين - نشأ بين الفريقين حب التنافس ورفض كل منهم أن يخضع لحكم الآخر. لذا أجابت الحكومة إلى

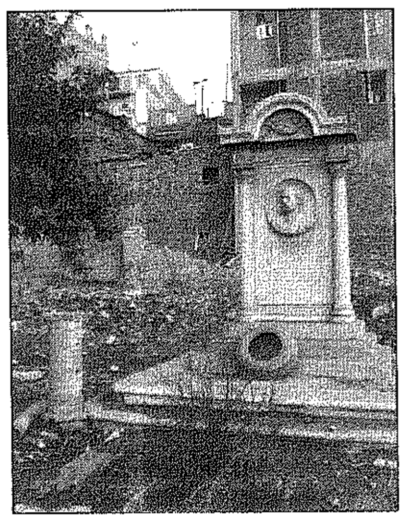
---

(١) على مبارك: الخطط التوفيقة، ج٨، ص١٣، محمد رمزي: القاموس الجغرافي القسم الثاني، الجزء الأول، ص١٥٣.

(٢) الخطط التوفيقية، ص١٤.

مطالب المصريين الأصليين، واختارت لهم من بينهم عمدة، وبذلك صار للإبراهيمية عمدتان أحدهما مورلي لأبناء جنسه، والآخر مصري لبني جنسه، ولم يستمر هذا النظام إلا فترة وجيزة عاد بها الحكم لعمدة واحد يختار من بين أهل البلدة جميعا بعد أن ارتبط الفريقان برباط المحبة والنسب[١].

وقد كان هؤلاء المورليون الذين استوطنوا الإبراهيمية محل عطف ورعاية من البيت المالك، كما كان لهم من الحظوة ما مكنهم. من أن يجيروا الفارين من السخرة والعمليات والجندية، كما منحوا امتيازات كثيرة منها إعفاء أولادهم من الجندية وأعمال السخرة التي ذاق الفلاحون في ذلك الحين مرارتها[٢]. وبقيت أطيانها في أيديهم بلا مال لإصلاح أرضها فأصلحوها وعمروا أرضها إلى أن ربط عليها العشور في سنة ١٢٧٢هـ[٣].



صورة نادرة لشاهد من مقابر اليونان بالزقازيق قبيل تدميرها

(١) إصدارات وزارة المعارف العمومية ١٩٤٩م، ص١٢٤؛ مجلة المدرسة الإبراهيمية ١٩٤٥م، ص١٦.
(٢) راجع مجلة المدرسة الإبراهيمية، ص١٧، وإصدارات وزارة المعارف ١٩٤٩م، ص ١٢٥.
(٣) محمد رمزي: القاموس الجغرافي القسم الثاني، الجزء الأول، ص١٥٣.

قامت الحكومة بإنشاء مركز بوليس بها سنة ١٨٨٠، ولقد كان من حسن حظ المركز أن عمل فيه (شاعر النيل الكبير المرحوم حافظ بك إبراهيم) بوظيفة معاون بوليس المركز من ١٨٩٥/٣/٢٤ إلى ١٨٩٥/١٠/١٥[١].

وقد اشتهرت الإبراهيمية بوجود العديد من محالج لحلج الأقطان، ومعامل لتربية دودة الحرير وصناعة الحرير، وقد استحضر لذلك إبراهيم باشا عائلة متخصصة في ذلك من القليوبية، وعلى رأسها المرحوم الحاج إبراهيم النجشونجي، ومازالت هذه العائلة بالإبراهيمية إلى الآن، كما تعددت متاجرها الكبيرة التي كانت مقصدا لكثير من تجار الأقاليم المجاورة، وقد كانت ملاحتها النهرية تجلب لها كثير من الخيرات لاتصالها بالنيل وبالبحيرات.

وتبارى أهل الإبراهيمية في إنشاء المباني على أحسن طراز، ومن أفخم دورها حينئذ ذلك القصر العظيم الذي ابتناه إبراهيم باشا لنفسه فيها في الناحية الشمالية منها، وفي المكان المعروف الآن - بعزبة القصر - نسبة إلى هذا القصر العظيم الذي كان يتخذ منه إبراهيم باشا مقرًا له عند تشريفه للإبراهيمية، وكثيرًا ما كان يشرفها.

وفي سنة ١٨٤٨ أصيبت الإبراهيمية في منشئها وراعيها - البطل الخالد - إبراهيم باشا فأصابتها نكسة واضمحلت بعدها تدريجيًا وكان من أثر ذلك حرمانها من المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٣ ومن مركز البوليس سنة ١٩٠٢ فنقلت المدرسة إلى مصر القديمة، ونقل المركز إلى كفر صقر.

وظلت الإبراهيمية محرومة من مركز البوليس حتى سنة ١٩١٥م، حيث أنشأت فيها وزارة الداخلية نقطة «للبوليس» وظلت الإبراهيمية كذلك محرومة من المدرسة الابتدائية حتى سنة ١٩٤٥، حيث أنشأت وزارة المعارف بها المدرسة

---

(١) أحمد أمين: مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، الجزء الأول، سلسلة ذاكرة الكتابة، العدد٢٨، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٤.

الابتدائية للبنين في ١٩٤٥/١١/٥ وكان عدد تلاميذها ٢٤٠ تلميذًا في سنة ١٩٤٨م، ووجدت بها في نفس العام، مدرسة ريفية نموذجية، مدرسة أولية للبنين، مدرسة أولية للبنات، ضموا أكثر من ٥٠٠ تلميذ وتلميذة عام ١٩٤٨م[1].

• تل بسطة..مدينة الكنوز والسحر!!

في الجنوب الشرقي للزقازيق تل قديم يقال له تل بسطة - يبلغ متوسط ارتفاعه نحو ٢٥ مترًا ومساحته نحو ستمائة فدان، وكان يأخذ الفلاحون منه السماد قديمًا، وهو غني بما به من آثار، واسمه بالمصرية القديمة «ببرباست» ويطلق عليه اليونان «بوباسطس» وعلى ذلك التل قامت مدينة من أكبر مدن مصر قد اتخذها بعض الولاة قاعدة لهم ومقرا لحكمهم في حين أنهم جعلوا صان الحجر مدينة الموتى، وبها دفنوا - ويقول الراوي أنه قد اختار هذه المدينة «بوبسطة» الملك شوشنق سنة ٥٩٠ق.م عاصمة لمصر وبذلك عرفت بوبسطة في التاريخ عاصمة للأسرة الثانية والعشرين.

«... ومع أن سائر المدن في مصر أصبحت مرتفعة إلا أن أكثرها ارتفاعًا في نظري هي مدينة «بوباسطيس»، حيث يوجد معبد «بوباسطيس» وهو جدير جدًا بالوصف، وإن كانت المعابد الأخرى أعظم منه وأبهظ نفقة إلا أنه أكثرها بهجة للنظر. و«بوباسطيس» باللغة اليونانية هي «أرتميس»..»[2].

بهذه الكلمات القليلة أراد هرودوت أن يعبر عن قدم هذه المدينة فأحسن التعبير، فالمعروف أنه كلما أوغلت المدينة المصرية في القدم كلما ارتفعت أنقاضها وعلا منسوب المباني فيها. فلقد درج المصريون على أن يبنوا منازلهم من

---

(١) انظر تقرير وزارة المعارف عن الحالة التعليمية عام ١٩٤٨م، ص٤٢، وانظر إصدارات وزارة المعارف العمومية ١٩٤٩م، ص١٢٥.

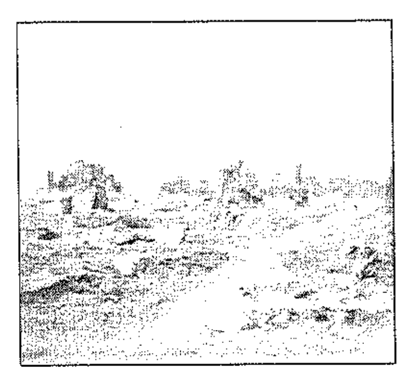
(٢) هرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاقة، دار القلم، القاهرة ١٩٦٦م، ص٢٦٧.

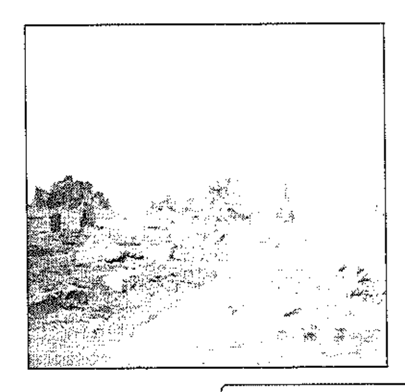
اللبن، فإذا ما تداعت مبانيها للسقوط هدموها وبنوا منازلهم الجديدة فوق أنقاضها - ولهذا فقد وصلت إلينا أنقاض مدنهم القديمة في بعض الأحيان وقد ارتفعت لأكثر من عشرين مترا فوق منسوب الأراضي المجاورة وتمثلت في تلك الأنقاض العصور المختلفة التي تعاقبت على تلك المدن بما كانت عليه من انحطاط ورفعة واضمحلال ورقي.

وبهذه الكلمات القليلة أراد هرودوت أيضًا أن يعبر عن إعجابه بجمال معبد الآلهة وكيف أنه فاق في جماله بقية المعابد الأخرى، وكأنه عز عليه أن يترك قرائه بعد تلك المقدمة الشائقة حيارى من أمر هذا المعبد فأخذ يحدثهم عن مواطن الجمال فيه، فهو يصفه لهم: «فيما عدا المدخل يقوم على جزيرة، إذ ينساب في النيل مجريان، لا يختلطان ببعضهما؛ بل يسيران حتى مدخل المعبد كل على حده؛ هذا من جانب وذلك من الجانب الآخر. وعَرضُ كل منهما مائة قدم، تظللهما الأشجار»[1]. ويمضي بعدئذ ليحدثهم عن هاتين الترعتين ومدخل المعبد فيقول «بينما يصل مدخل المعبد لارتفاع ٦٠ قدمًا وقد ازدان بالنقوش التي تستحق الانتباه والتي تبلغ في ارتفاعها ست بوصات». ويستطرد من هذا ليدلهم على موقع المعبد من المدينة وفرق مستواه من مستواها فيقول: «ويقع المعبد في وسط المدينة، ويراه الطائف حوله من جميع الجهات؛ إذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمي، بقي المعبد كما شيد منذ البداية؛ لم يلحق به أي تغيير، لذا من الممكن رؤيته. ويحيط بالمعبد سور حفرت عليه أشكال وبداخل السور فناء تنمو به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذي به تمثال اللآلهة ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد في جميع النواحي، وقبالة المدخل، يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة ستاد تقريبًا، وهو يخترق السوق متجهًا نحو الشرق وعرضه أربعة بليثرون وعلى جانبي هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع إلى

(١) هرودوت يتحدث عن مصر، ص٢٦٧.

عنان السماء وهو يؤدي إلى معبد هرمس. تلك هي الحال التي عليها المعبد»[1].





تل بسطة ١٩١٧م

ذلك ما جاء في وصف هيرودوت لمدينة تل بسطة ومعبدها القديم، وقد أثبتت الأيام صحة قوله فيما وصل إلينا من آثار تلك المدينة الأسطورية الجمال كما إن هذا الوصف ليدل على ما كان للمدينة من أهمية دينية إذ بعد موت القطط: «تنقل إلى مدافن مقدسة في مدينة بوباسطيس حيث تدفن بعد تحنيطها»[2] فالمعبودة العظيمة لتلك المدينة القديمة «بوباسطيس» كانت القطة الرشيقة الإلهة «باستيت» إلهة الحب والخصوبة. ويقال إن المهرجانات التي أقيمت على شرفها قد «جذبت أكثر من ٧٠٠,٠٠٠ من المحتفلين في العصور القديمة، كانوا يفدون إلى بوباستيس ويغنون ويرقصون ويحتفلون بهذه الإلهة، ويستهلكون كميات كبيرة من النبيذ ويقدمون قرابين للإلهة». وقد صارت «بوباستيس» عاصمة للبلاد نحو عام ٩٤٥ ق.م في عهد الملك «شيشونك الأول» مؤسس الأسرة الـ٢٢، ثم خُربت المدينة بعد ذلك على يد الفرس نحو عام ٣٥٠ ق.م.

(١) هرودوت، مصدر سابق، ص٢٦٨.

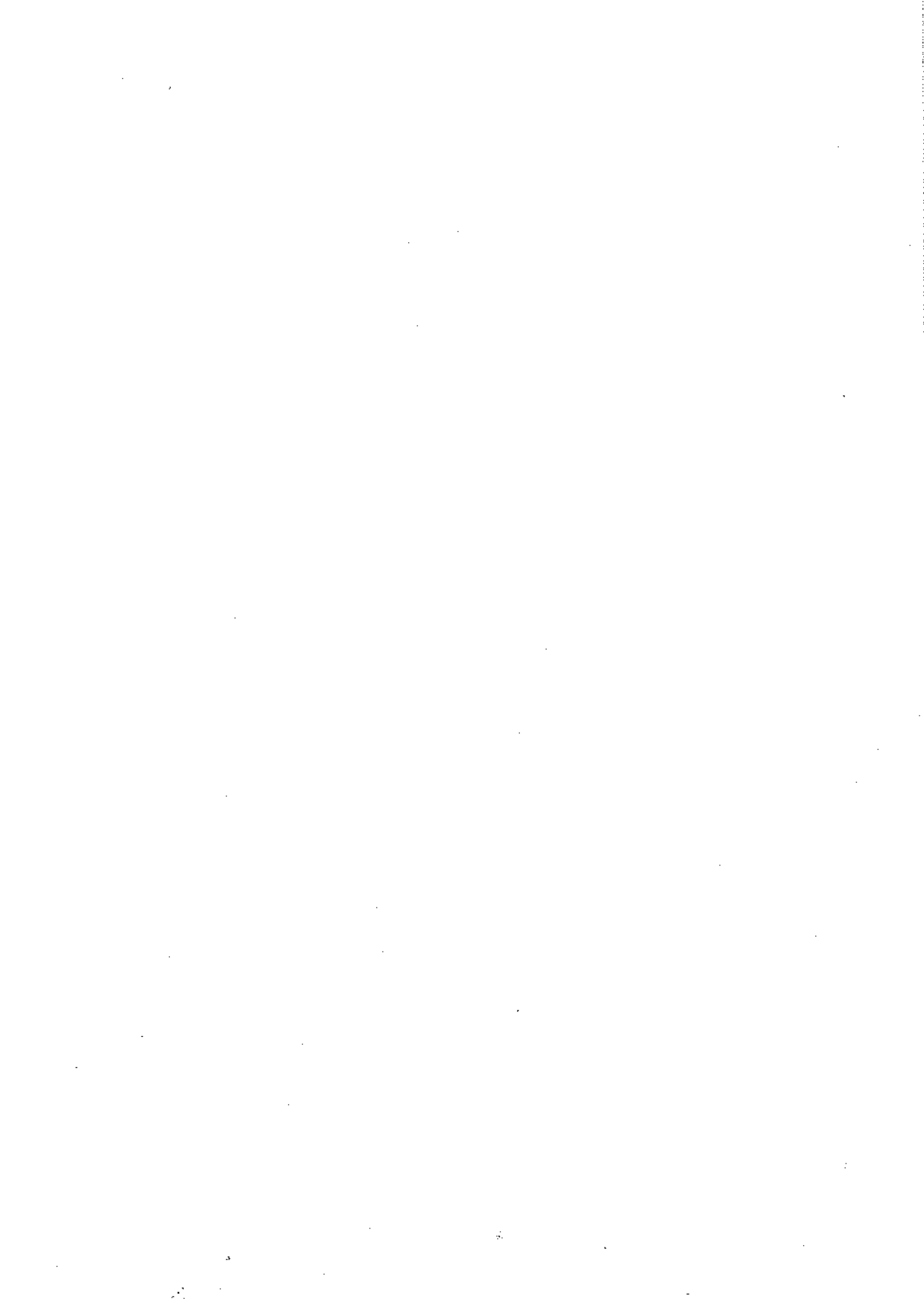
(٢) نفسه، ص١٧١.

من أهم الآثار التي عثر عليها في تل بسطة مخزنا للأواني والحُلي الذهبية والفضية، فلقد حدث في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٠٦ بينما كان يقوم عمال السكك الحديدية برفع الأتربة من التل إذ عثروا على مخزن أو محل للمصوغات على بعد نحو ١٦٠ مترًا إلى الجهَة الغربية من المعبد الرئيسي، وقد استطاعوا أن يخفوه ويقسموه فيما بينهم في أثناء الليل، ولكن لا يأتي اليوم التالي حتى تنتشر الإشاعات، وتصل إلى سمع رجال الآثار الذين يستطيعون أن يضعوا أيديم على الكثير من القطع الفنية المهمة، ومن ضمنها الإناء الفضي الجميل الذي شكل مقبضه المصنوع من الذهب الخالص بشكل ماعز تحاول أن تستقي من الإناء، وفي الشهر التالي يكشف على بعد أمتار قليلة من مكان اكتشاف هذه الآثار عن مخزن آخر، وفي تلك المرة لا يستطيع العمال أن يخبئوا شيئا فيوقف العمل بمجرد ظهور أول قطعة منه ويمكن بذلك العثور على مجموعة فريدة من الأواني والحُلي الفضية والذهبية الجميلة الصنع مما يستطيع أن يراه المرء اليوم في حجرة المجوهرات بالمتحف المصري (رقم ٤٢١٠-٤٢١٨)، ومن بينها أساور جميلة من الذهب للملك رمسيس الثاني وكأس ذهبية بهيئة زهرة اللوتس وآنية من الذهب والفضة على جانب عظيم من الجمال والدقة، وكان كثير من هذه الحلي مما يستعمل في التجارة، وإنما لتدل في مجموعها على تقدم الذوق والصناعة، هي أجمل ما بقي لنا من ذكري تل بسطة. لم يتوقف نزيف سرقة الآثار الشرقاوية عند حد مدينة تل بسطة الأثرية وإنما امتد لكافة المناطق الأثرية في الشرقية.

ففي منتصف الأربعينيات قام الملك فاروق بزيارة شهيرة إلى صان الحجر وعاد منها يحمل صناديق الذهب والفضة إيذانًا بفتح الطريق من بعده للكثيرين من الحكام ولصوص الآثار لنهب الثروة القومية. ومع توالي الاكتشافات تعالت معها صيحات الشراقوة وحزنهم على تاريخهم المنهوب فكانت صان الحجر عرضة

للنهب حيث تماثيل أبي الهول التي تم نقل اثنين منها لمتحف اللوفر بفرنسا واثنين آخرين إلى متحف (سان بطرسبرج) ولوح الأربعمائة عام لرمسيس الثاني وهو الأثر الفرعوني الوحيد الذي يذكر تقويمًا معينًا وقطع عديدة أخرى تم نقلها إلى متاحف العالم واستمر مسلسل السرقات ومازالت العبارة التي خطها د. **محمود الشريف** في سجل الزيارات بصان الحجر: «**إلى أعظم من زرت إلى أعرق من رأيت إلى صان الحجر. سأعمل جاهدًا حتى تكون مدينة عالمية**» يتردد صداها في سماء المدينة الخالدة في انتظار يد وطنية وجريئة تخرج بها إلى حيز التنفيذ!!





الباب الثالث

الشرقية بين ثورتين

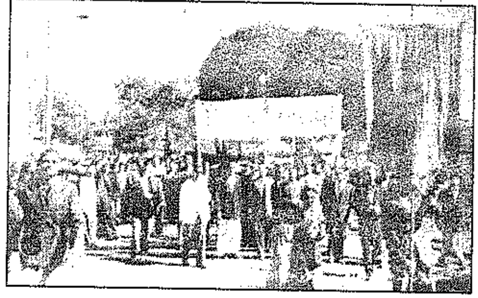
✍ بدأت الثورة بالكلمة .. كلمات من هنا وهناك تعبر عن نبض هذا الشعب الذي ظن البعض أنه مغلوب على أمره .. لا يجرؤ على الهمس وإذا ما جرأ على الكلام فإما بالشكوى أو بالرجاء ظانين أنه يكرر ملهاة الفلاح الفصيح الذي لم ترق مستوى آماله إلا لكتابة الشكاوي إلى الفرعون الواحدة تلو الأخرى، صنع التاريخ يبدأ بالكلمة، كلمات الحق والعدل التي تحولت إلى موجة من موجات القوة شملت الشعب المصري بأكمله مسلميه وأقباطه.. شبابه وشيوخه.. رجاله ونساءه. وما من شك أن الأحداث التاريخية التي مر بها الريف المصري كله كانت سلسلة متلاحقة متتابعة في حركة ديناميكية لا تتوقف، ولذلك فلا يمكن من الناحية التاريخية فصل الأحداث التي مر بها في ثورة ١٩١٩م عن تلك التي مر بها خلال فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) عن أحداث فترة الاحتلال البريطاني (١٨٨٢-١٩١٤م) بل عن أحداث ما قبل عام ١٨٨٢م.

فالواقع أن ثورة ١٩١٩م كانت النتيجة المتوقعة لسياسات بريطانيا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبل وخلال فترة احتلالها لمصر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، تلك التصرفات التي نجمت في الأصل عن تحول أوربا إلى النمط الرأسمالي، وانطلاق الرأسمالية الصناعية في جميع أنحاء العالم ومنها مصر، وتغلغل النفوذ الأجنبي بمقدرات البلاد[1]، بيد أننا نلاحظ أنه منذ عهد

---

(١) عانى الفلاحون بالشرقية من تعسف الوجود الأجنبي مثل الخواجة فاكلودي جورج المقيم بناحية فاقوس بمديرية الشرقية الذي كان يستأجر ٣٥٠ فدان من أراضي الناحية ويقوم بتحصيل إيجارات أعلى بكثير مما كان يحصل منهم من ذي قبل. انظر: علي شلبي: الريف المصري، ص٣٣٥.

الخديوي إسماعيل (١٢٧٩-١٢٩٦هـ/١٨٦٣-١٨٧٩م) سري في البلاد نوع من اليقظة والوعي، وذلك لانتشار الصحف والمجلات، ولتعاليم جمال الدين الأفغاني، ونشاط تلاميذه، وكان للفلاح نصيب منها، ووجد الفلاحون في عرابي الأمل الذي يرتجي[١]، لاسيما وأن أوضاعهم الاقتصادية الحادة التي مرت بالبلاد[٢].



مظاهره في أحد شوارع مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية ضد الاحتلال عام ١٩٤٠م

وكان لخطورة الدور الذي قام به الفلاحون في الثورة أن عزمت سلطات الاحتلال على تصفية قوتهم والعمل على إضعافهم. بل إن ما قاموا به قد أفزع كبار ملاك الأرض. ولذا وجدوا من مصلحتهم التعاون مع سلطات الاحتلال حفاظا على مصالحهم. ومن ثَمَّ رأت بريطانيا أن تعتمد على طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية في تثبيت دعائم وجودها في مصر، وأن تربط مصلحتهم بمصلحتها. وبدأت تلك السلطات بتصفية كاملة للثورة في الريف المصري، فاعتقلت من الفلاحين ما يربو على ٢٩,٠٠٠ نسمة[٣].

كما قامت السلطات بفصل نحو ٢٥٠ من صغار ضباط الجيش من أبناء الفلاحين، وجردوهم من رتبهم جزاء عصيانهم - وبدأت تخيم على البلاد فترة من الظلام في أعقاب فشل الثروة، ونفي وسجن وتشريد القائمين بها.

(١) لطيفة محمد سالم، القوي الاجتماعية في الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، ص٢٩٧ .

(٢) محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، دار المعارف، ١٩٦٧، ص٥٣٧-٥٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص٥٨٨.

• زلزال في عابدين

نظرًا لتعارض مصالح هذه الطبقة مع مصالح السواد الأعظم من الفلاحين فقد آثرت سلطات الاحتلال الوقوف إلىٰ جانب كبار ملاك الأرض في أحيان كثيرة مضحية بجمهرة الفلاحين. وهنا ظهر التناقض واضحًا بين أقوال هؤلاء المحتلين وتصرفاتهم الفعلية، فأدرك الفلاحون خداع المحتلين فكان لا بد من قيام الثورة العرابية[1] بقيادة أحمد عرابي؛ بهدف إحداث تغيير جذري في مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد التخلص من النفوذ الأجنبي في البلاد ولكن انتهت أحداثها بانفراد بريطانيا باحتلال البلاد عام ١٨٨٢م، ذلك الاحتلال الذي دام ٧٤ عامًا.

وقد ولد أحمد عرابي زعيم الثورة العرابية في ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هجرية (نوفمبر ١٨٤١) بقرية «هرية رزنة» من أعمال مركز الزقازيق، وعائلته عريقة النسب متعددة الفروع، وأقدم فروعها عائلة «المقالدة» الموجودة بالخطارة الصغرىٰ من أعمال مركز فاقوس، ويذهب البعض بأن نسب هذه العائلة يتصل بالحسين سبط رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



عرابي في المنفى وسط الرماد المتخلف عن محترق الآمال

REUTER'S AGENCY.

ZAGAZIG CAPTURED.

[illegible]

THE [illegible] GARRISON.

إخفاق الثورة واحتلال الزقازيق في صحف الاحتلال

(١) انظر الرافعي: الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي، ط١، ١٩٣٧، النهضة، ص١٥٦، ٤٩٢، ٤٩٤، ٥٠٥.

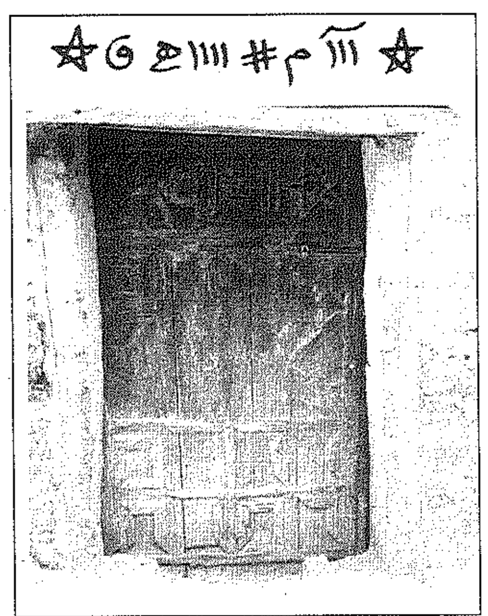
وفي يوم مشهود من أيام مصر وتحديدًا في يوم الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١م. تفجرت الثورة العرابية ثورة الشعب المصري ضد الحكم الأجنبي ممثلًا في الخديو الذي يملك من السلطات ما لا يقيده نظام أو شرع ... متمثلًا في ضرب الفلاحين ونزع الملكيات والضرائب، ففي هذا اليوم تحدىٰ الشعب ظالميه بزعامة عرابي الذي وقف شاهرًا سيفه علىٰ جواده وخلفه مجموعة من الضباط أبناء مصر الشبان وعرض مطالب الشعب في مواجهة الخديو والقنصل البريطاني «كوكس»، وحدث ذلك أمام قصر الخديو، وسمي هذا اليوم بيوم عرابي – وقال: «جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة كلها وهي عزل وزارة رياض باشا – وتشكيل مجلس النواب – وزيادة عدد الجيش». فأنكر الخديو علىٰ عرابي طلباته كلها وقال له: «أنا ورثت ملك هذه البلاد من آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا». وتحداه عرابي وقال قولته المشهورة التي اهتز لها قصر عابدين: «لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا فوالله الذي لا إلٰه إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم». فأذعن الخديو إلىٰ مطالب العرابيين وسقطت الوزارة وتم تعيين شريف باشا رئيسًا للوزارة الجديدة ولكنه رفض الطلبين الآخرين فانفجرت الثورة تقصف بحكم الخديو لولا تدخل الإنجليز للقضاء علىٰ الثورة وحماية الخديو واحتلوا مصر[١].

- **عرابي في الزقازيق!!**

والجدير بالذكر بأنه بعد حادثة ٩ سبتمبر ١٨٨١ م بعابدين وانتهاء المحادثة بين عرابي والخديو توفيق تقدم عرابي بالشكر علىٰ الخديو وساد السلام ظاهريا بين الخديو والجيش وتعين شريف باشا رئيسًا للنظارة الجديدة، ثم تلا ذلك

(١) تحتفل الشرقية بعيدها القومي في ٩ سبتمبر من كل عام إحياء لذكري وقفة ابنها الزعيم أحمد عرابي (من قرية هرية رزنة مركز الزقازيق) ضد الخديو توفيق بميدان عابدين بالقاهرة عام١٨٨١م.

حضور وفد عثماني ليستطلع أحوال مصر وقررت الوزارة أن ينتقل عرابي بكتيبته إلى رأس الوادي بالشرقية وأن ينتقل عبد العال حلمي بكتيبته إلى دمياط، ولما وصل عرابي لمدينة الزقازيق خطب فيها عرابي خطبة طويلة جاء فيها: «أنا أخوكم في الوطنية واسمي أحمد عرابي. ولدت في بلدة «هرية رزنة» من بلاد الشرقية هذه. وهاأنذا واقف بين أيدي الأهل والخلان وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها..»[1].



صورة باب بيت أسرة عرابي، في بلده (هرية رزنة) في الشرقية به نقش السبع خواتم، (المعروفة بخاتم سليمان المطلسم الذي يحقق الأماني ويحمي من الأعداء) ولكنه أخفق في حماية مصر من احتلال دام أكثر من 70 عامًا، فالإيمان بالغيبيات مكون أساسي من شخصية عرابي. الصورة من أرشيف د. حامد محمد حامد.

وبعد استقرار عرابي في مكانه الجديد بيومين دعي مع عدد كبير من ضباطه إلى وليمة أقامها أمين بك الشمسي رئيس تجار الزقازيق تكريمًا لهم، ثم توالت الولائم للغرض نفسه منها وليمة أحمد بك السيد أباظة بـ«شرويدة» ووليمة

(١) إصدارات وزارة المعارف العمومية، القاهرة ١٩٤٩م، ص١٠٤.

الشيخ محجوب عمدة «العصلوجي» ووليمة سليمان بك السيد أباظة[1] ووليمة سليمان باشا أباظة وغيره من وجوه الشرقية الذين أرادوا الاحتفاء بابن بلدهم وإظهار تقديرهم وإعجابهم به، وأثناء إقامته برأس الوادي دعي لوضع الحجر الأساسي للمدرسة الابتدائية الأميرية بالزقازيق وخطب خطبة في مزايا التعليم وفضل العالم على الجاهل، ونوه بوجوب الاستعداد لخدمة البلاد في المستقبل وقد رحل عرابي عن الحياة في ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ م، وقد وضع قبل وفاته مذكرات عن الثورة العرابية سماها «كشف الستار عن سر الأسرار».

جدير بالذكر أن دور المجلس الذي تألف أثناء الثورة العرابية في نهاية عام ١٨٨١م - برغم موقف إنجلترا وفرنسا منه ومن الدستور وعدم رغبتهما في أن ينص في الدستور - المقترح - على حق المجلس في تقرير الميزانية - ورفض أعضاء المجلس ذلك وأصروا على ضرورة النص على ذلك الحق مما كان من نتيجته إسقاط وزارة شريف في فبراير ١٨٨٢م. وتولى البارودي رئاسة الوزارة فصدر الدستور متضمنًا حق المجلس في تقرير الميزانية في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢م. وكان من أهم المناقشات التي دارت في اجتماعات المجلس في دور انعقاده الوحيد هو ما اقترحه ابن الشرقية أمين باشا الشمسي (جلسة ١٥ فبراير ١٨٨٢م) بالعمل

---

(١) جدير بالذكر أن العديد من فلاحي الشرقية قد عانوا من تعسف بعض أفراد الأسرة الأباظية فلقد استأجر سليمان باشا أباظة مدير الشرقية سابقًا في عام ١٨٧٦م مساحة ١١٠ أفدنة تابعة لجفلك بردين بمديرية الشرقية. وكانت هذه الأراضي مثار شكوى الفلاحين إلى المعية مضمونها أن سليمان باشا أباظة مدير الشرقية سابقًا أرسل وكيله إلى تفتيش جفلك بردين واستأجر منه ٦٦ فدانًا كانوا يستأجرونها من الجفالك مباشرة من قبل بسعر الفدان ١٨٥ قرشًا، ولكن سليمان باشا صار يؤجرها لهم بسعر الفدان ٤٠٠ قرش، كذلك تقدم أهالي كفر سليمان القمحاوي بشكوى أخرى ضد سليمان باشا أباظة لاستئجار مساحة ٤٤ فدانًا واتبع معهم نفس الأسلوب في رفع قيمة الإيجار من ١٨٥ قرشًا للفدان إلى ٤٠٠ قرش. انظر: دار المحفوظات: دفاتر الجرايد العشورية بمديرية الغربية سنة ١٥٩٠، ج٩ رقم ٢٢٧٩ عين ١١ مخزن ٢٢، ص٩٠١؛ علي شلبي: الريف المصري، ص٣٣٣.

على الحد من غلاء الأسعار وأسعار الغلال وذلك بمنع تصديرها للخارج، وقرر المجلس إخطار نظارة المالية لتتخذ فيه العلاج اللازم[١]، كما اقترح أمين باشا الشمسي بتنظيم أعمال السخرة في الأعمال العامة ومطالبة الحكومة بوضع قانون في هذا الشأن[٢].

وطالما دعا عرابي ذاته إلى إزالة الظلم الذي حاق بالفلاحين في الماضي، بل إن أحد الضباط (صقر أفندي دهب) خاطب الفلاحين في نواحي الزقازيق والزنكلون وقال لهم: «إن الأرض التي يمتلكها الأثرياء من حقكم أنتم»[٣]، وإذا كانت هذه العبارات التي وردت على ألسنة بعض خطباء الثورة قد جمعت صفوف الفلاحين من صغار الملاك والمعدومين حولها، فإنها باعدت بينها وبين الأعيان وكبار التجار وجعلتهم يتوجسون خيفة من مواصلة تأييدها بل ذهب البعض منهم إلى حد خيانة الثورة.

ففي أعقاب الثورة العرابية قبض محمد سلطان ثمن خيانته فمنحه الخديو توفيق عشري آلاف جنيه، كما أنعم عليه بالنيشان المجيدي من الدرجة الأولى، وأنعمت عليه ملكة إنجلترا بوسان سان ميشيل وسان جورج الذي خوله لقب «سير». كما قبض عربان الهنادي بالشرقية ثمن خيانتهم، فأقطعهم الخديو خمسة آلاف فدان في رأس الوادي، مكافأة لهم على الدور - المؤسف - الذي قاموا به في مساعدة الجيش البريطاني على احتلال البلاد[٤].

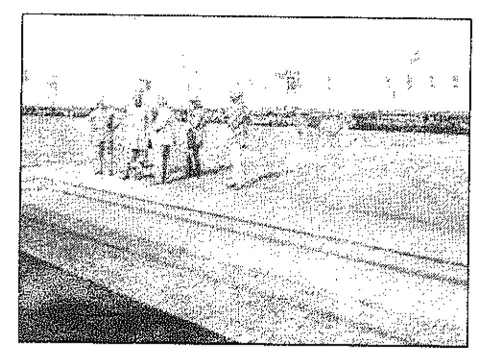
---

(١) جريدة الوقائع المصرية أول مارس ١٨٨٢م.

(٢) راجع علي شلبي: الريف المصري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م)، ص٤٢٢.

(٣) علي شلبي: الريف المصري، ص٤٣١.

(٤) عبد الرحمن الرافعي: الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي ط٣، ص٤٩٤.



قطار الإسعاف في محطة الزقازيق والقوات الهندية التابعة للتاج البريطاني

وقد رأى الفلاحون في عرابي محررًا لهم من ظلم كبار الملاك والأتراك والشراكسة، حيث كان هو الفلاح الوحيد الذي استطاع أن يقف بنجاح ضد الطبقة الحاكمة من الأتراك والشراكسة ويروي البعض أن الثورة العرابية كانت حركة فلاحية بحتة هدفها تحرير الفلاحين وأنها كانت موجهة قبل كل شيء ضد حكومة الأتراك والشراكسة(١).

- **شرقاوي يقود حركة التختيم!!**

وكانت أول مشاركة عامة للفلاحين في الثورة هو (تختيم) محاضر بتوكيل عرابي للدفاع عن البلاد (مثلما حدث فيما بعد في ثورة ١٩١٩م حيث ظهرت حملة التوكيلات لتوكيل سعد زغلول للتحدث باسم مصر) بعد قبول الخديو للمذكرة المشتركة الثانية واستقالة وزارة البارودي (وزارة الثورة) وهي الفترة التي شهدت قدرًا من القلق والاضطراب. وكان الشرقاوي عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية هو الذي قام بتوجيه عرابي للحصول على تلك المذكرة المشتركة والدفاع عن حقوق الفلاحين، وأطلق على هذه التوكيلات (المحضر الوطني) واتخذه عرابي دليلًا على إنابة الأمة له(٢).

---

(١) علي شلبي: الريف المصري، ص٤٣٢.

(٢) علي الحديدي: عبد الله النديم خطيب الثورة الوطنية، القاهرة دون تاريخ، ص١٤٢.

وفي هذا المجال قام أحد الفلاحين بالشرقية بـ«تختيم» فلاحي السخرة العاملين في ترعة الشرقاوية على محاضر بخلع الخديو نفسه وعدم رغبة الأهالي فيه، وهي محاضر طبعت في القاهرة وقام بنقلها إلى الشرقية أمين باشا الشمسي (رئيس تجار الزقازيق) والشيخ محمد الهجرسي[1]. وتذكر وقائع التاريخ أن بعض أهالي الشرقية تبرع بنصف ماله والبعض الآخر خرج عن جميع ما يمتلكه وتبرع عمد وأعيان وأهالي قرى الشرقية بسبعة آلاف إردب قمح وبمبلغ ٢٠٠٠ جنيه و١٥٠ (فحل جاموس) و٣٥٠ خروفًا و٧٠ قنطارًا من المسلي[2].

وفي أثناء المعارك في منطقة القناة والشرقية أرسل عرابي يطلب كل العربان القادرين على حمل السلاح للتوجه إليه برأس الوادي. وعلى ذلك فقد شاركت قبائل العربان إلى جانب جيش الثورة في المعارك التي دارت أثناء القتال، وبرغم الدور المؤسف الذي قام به عربان الهنادي بالشرقية[3]، فإن بقية قبائل العرب في الشرقية قد قامت بدور إيجابي في الدفاع عن البلاد مثلهم مثل بقية المواطنين المصريين.

- **يهوذا في الشرقية!!**

جدير بالذكر أنه كان من بين هؤلاء الخونة محمد باشا سلطان، اغترف من ذهب الإنجليز، وراح يوزعه علي البدو والرحل في الصحراء الشرقية، وقد وجد بين زعمائهم قوما من جنسه، سعيد الطحاوي مثلًا الذي كان مرشدًا لعرابي، وجاسوسًا عليه، وكان يقبض من الجانبين!!. وكان منهم أيضًا قواد وضباط في جيش عرابي، إبراهيم عبد الرحمن حسن قائد السواري، وعلي يوسف الشهير

---

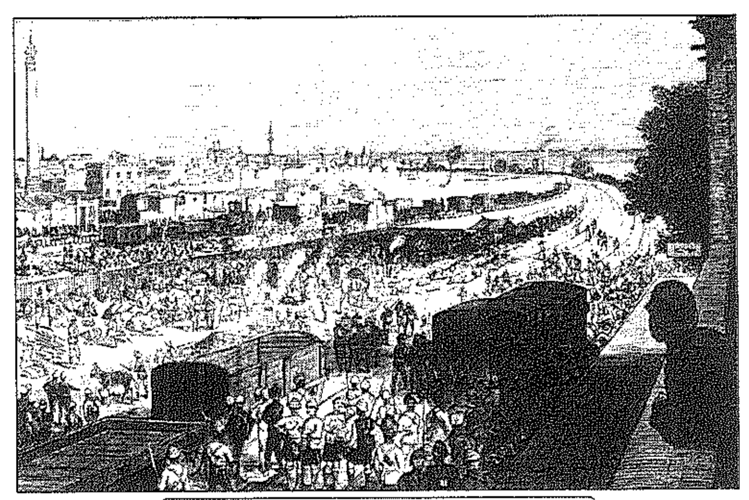
(١) علي محمد محمد بركات: تطور الملكية الزراعية في مصر وأثره على الحركة السياسية، القاهرة ١٩٧٧م، ص٤٢١.

(٢) علي شلبي: الريف المصري، ص٤٣٤.

(٣) جريدة الأخبار بتاريخ ٢٠٠٦/١٠/١٤م، السنة ٥٥، العدد ١٦٩٩٩، عن مقالة بعنوان «نحو النور - كيف انتصرت الخيانة .. في معركة التل الكبير؟» بقلم الأستاذ: سمير عبد القادر.

بـ«خنفس» إلىٰ جانب الشراكسة والأتراك الذين كانوا يتآمرون مع الإنجليز، ليشاركوهم في الاستبداد بالمصريين، وكذلك كان هناك جيش خطير واسع الانتشار، اسمه الجهل، الذي جعل بعض المصريين يصدقون فتوىٰ صادرة من بعض المشايخ، وآتية من البوسفور تقول لهم أن عرابي كافر، وأن مَن يساعده مصيره إلىٰ النار، وبئس القرار، ولعلهم فهموا أن الإنجليز هم أولياء الله الصالحون الذين أرسلهم لنشر ظلال العدل في الأرض الطيبة! ولم يبق إلا أن تدور المعركة، عرابي في خيمته يقرأ الأوراد والأدعية، والجنود المتطوعون قد انتشروا على امتداد ستة كيلومترات، داخل الخنادق والاستحكامات المقامة من الرمل والطين، منهم الآلاف ممن يحملون سلاحا، ومنهم من لا يحمل شيئا، ويجيء سعيد الطحاوي إلىٰ عرابي في خيمته يقسم له أن الإنجليز لن يهجموا قبل أسبوع ثم يتسلل خارجا إلىٰ صفوف الإنجليز ليرشد طلائعهم في صباح اليوم التالي! ويطمئن «ولسي» القائد الإنجليزي إلىٰ أن المصريين سينامون ليلتهم نوم الأبرار، ويطفئ الجيش الغازي أنواره ويخيم الظلام الدامس ويزحف ١١ ألفًا من المشاة و٢٠٠٠ من الفرسان، وستون مدفعًا، وسعيد الطحاوي في المقدمة يرشدهم إلىٰ الطريق، ولم يكن يؤدي هذه المهمة وحده، بل كان يعاونه لفيف من ضباط أركان حرب المصريين من الشراكسة الذين خانوا واجبهم! ويتقدم الجيش الزاحف في الظلام خمسة عشر كيلو مترا دون أن يشعر به احد وقد ترك خلفه نارًا ليوهم المصريين أنه لم يتحرك، ويتقدم حتىٰ يصل إلىٰ طلائع الخطوط المصرية.. مَن هناك؟.. لا أحد.. وكان المفروض أن تكون في المواجهة فرقة السواري ولكن عبد الرحمٰن حسن قائدها كان يعلم بنبأ الهجوم، وعلي اتصال دائم بالإنجليز، فتحرك بجنوده تحت جنح الليل، إلىٰ الشمال، بعيدا عن أرض المعركة، ليمر الجيش الإنجليزي في سلام! ويتقدم الجيش الزاحف، ويلمح عن بعد مصابيح تنير الطريق، أنه علي يوسف الشهير بـ«خنفس» قد أرسل جنوده للراحة، ثم خاف أن يضل الإنجليز فوضع لهم المصابيح التي ترشدهم إلىٰ الطريق

الذي يسلكونه! وأصبحت الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعون وقد تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود حين أعطيت إشارة الهجوم وانطلق ستون مدفعًا وأحد عشر ألف بندقية، وألفان من الحراب، تقذف الهول والموت في الجند النائمين، الذين قاموا على صرخة واحدة، لا يعرفون أهي القيامة، أم بركان انشقت عنه الأرض، أم الإنجليز!!



احتلال الزقازيق ، بعد معركة التل الكبير ١٨٨٢م

وهاجم بعض فلاحي قرية الكفر القديم بالشرقية محلات ثلاثة من الأجانب واستولوا على ما بها من سلاح وذهبوا به إلى التل الكبير بعد أن أخطروا عنها ناظر الجهادية[1]، وتطور الأمر إلى أبعد من ذلك فيما بعد فطرحت قضية تسليح الفلاحين من قِبَل قادة الثورة في تلك المناطق حيث كان من المحتمل نزول القوات البريطانية فيها فاشترك ألفان من الفلاحين بالشرقية في حراسة بحيرة

(١) علي بركات: مرجع سابق، ص٤٢٥.

المطرية ووضع هذا التخطيط موضع التنفيذ فأرسلت لهذا الغرض ٢٠٠٠ بندقية إلى عبد العال حلمي الذي تولى توزيعها على العمد والفلاحين المكلفين بالحراسة، ومما يؤكد ذلك أنه وجدت لدي بعض العمد والفلاحين أعداد كبيرة من الأسلحة عند القبض عليهم في أعقاب الثورة(١).

• **ثمن الوطنية!!**

وقد واجهت طبقة الأعيان بعد فشل الثورة العرابية إجراءات عنيفة ضدهم فمنهم من صودرت أملاكه وحرم من حق امتلاك أي أملاك في الديار المصرية سواء بطريق الإرث أو الهبة أو الشراء، مع بيع أملاكهم وتخصيص ثمن البيع لسداد تعويضات من أضيروا من الثورة، ومن هؤلاء أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي وعلى فهمي ويعقوب سامي وعبد العال حلمي وطلبة عصمت وعوقبوا أيضًا بالنفي لجزيرة سيلان.

ومنهم من حددت إقامته في بلده تحت رقابة البوليس مع دفع تامين مالي كبير ومن أمثلتهم أحمد أباظة من الشرقية دفع ٢٠٠٠ جنيه تأمين وحددت إقامته بخمس سنوات وأمين بك الشمسي دفع ٥٠٠٠ جنيه تأمين وحددت إقامته خمس سنوات، وهناك من حددت إقامته في قريته مع وضعه تحت مراقبة البوليس وتجريده من كافة الامتيازات ومن أمثلتهم حسن الأخضر وأبو زيد غانم من الشرقية ومن العمد من عزل من منصبه وحرم من امتيازاته مثل بركات الديب عمدة القرين شرقية ومحمد إمام الحوت عمدة الصالحية شرقية. ومصطفى بك نايلي مفتش بردين وتجريد عدد من العلماء من علامات الشرف مثل: علي مكاوي، وفصل عدد كبير من ضباط الجيش من أمثلتهم صقر أفندي دهب ملازم أول (من الزنكلون). (ولا تزال عائلة دهب بالزنكلون يتيهون فخرًا به)،

---

(١) علي بركات: المرجع السابق، ص٤٢٨، ٤٢٩.

وحمد أفندي حسين ملازم أول (ههيا) ويوسف الجندي ملازم ثاني (أبو كبير) وسلامة ناجي ملازم أول (سنهوت البرك)، سليمان متولي (كفر الغنيمي).



في منيا القمح
خرج ضابط البوليس
على حصانه
يقود الثورة!

الذين عاصروا الثورة من أبناء الشرقية/ إبراهيم عوض، مباركة عسكر، أحمد الصعيدي..
نقلاً عن مجلة المصور (٧ مارس ١٩٦٩م)

وبعد تواطؤ بعض كبار الملاك الزراعيين مع الاستعمار وخيانتهم للثورة العرابية، لم يجد عبد الله النديم - داعية الثورة وشاعرها ولسانها الشعبي- الحماية والأمان والقدرة على مواصلة النضال إلا في أحضان الفلاحين، الذين أُضطهد الكثيرون منهم بل وأُعدم بعضهم (مثل فلاح الغربية يوسف أبو ديًا) وهم مصرُّون على حمايته وتمكينه من استكمال مسيرة الثورة بعيدًا عن أعين الأعداء.

• الشرقية وإرهاصات ثورة ١٩١٩م

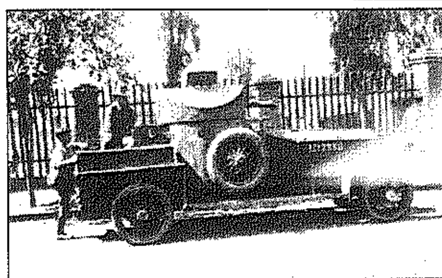
وبالرغم من أن جميع فئات الشعب المصري قد عانت معاناة قاسية خلال تلك الفـترة وما أعقبها خلال الحرب العالميـة الأولىٰ من تصرفات الـسلطة العسكرية البريطانية نحو الفلاحين وجمع نحو مليون ونصف مليون فلاح بالتطوع الإجباري والسخرة والكرباج للعمل في سيناء والعراق وجبهات حربية أخرىٰ والتي كانت من أهم العوامل التي أدت لزيادة ثورة مارس ١٩١٩م اشتعالًا؛ وكان الريف المصري أكثر فئات الشعب المصري معاناة وخاصة من الناحية الاجتماعية والنفسية والاقتصادية، وبرغم ذلك لم يستكن الشعب في ثورته ولم يتراجع الفلاح المصري بصفة عامة والشرقاوي بصفة خاصة إمام حوادث القتل والمحاكمات العسكرية، وإنما زادته عنادًا وإصرارًا. حيث أعلن الفلاحون والمثقفون الوطنيون - أثناء ثورة ١٩١٩ - الاستقلال عن السلطة وشكلوا مجلس وطني لحكم الإقليم وتسيير أموره وحمايته من القوات الإنجليزية والسلطة التابعة، لمدة وإن لم تكن طويلة بعدد الأيام، إلا أنها بطولية من ناحية الصمود الثوري في مواجهة الضغط والحصار. ولقد كانت مجالًا للاستلهام والاحتذاء بها في بعض الأقاليم طوال فترة النضال الوطني الشعبي عام ١٩١٩من التضحيات غير العادية التي قدمها الفلاحون المصريون في أسبوع واحد من مقاومتهم للاحتلال (من١٦-٢٣ مارس ١٩١٩) والتي يمكن رصدها فيما يلي: ١٠٠٠ شهيد، ١٦٠٠ مصاب، ٧٣٠٠ سجين سياسي، ١٤٩ حكمًا بالإعدام.

امتازت ثورة ١٩١٩م بأنها ثورة شعبية وشاملة، فلم تقتصر حوادثها علىٰ مدينة القـاهرة فقـط أو علىٰ مدينـة الإسـكندرية، بل إن حوادث الثورة عمت مصر جميعها وانتشرت بمجرد سماع أخبارها إلىٰ كافة أنحاء مصر ولبت الشرقية نداء الحرية، لا فرق في ذلك بين غني وفقير، كبير أو صغير، رجل أو امرأة، فالشرقية كمثيلتها من المدن والأقاليم الأخرىٰ: أمام الثورة رجل واحد وقلب واحد. لنجد الشرقية أنها قد ظلت جزءًا من الحركة الوطنية التي عبرت عنها ثورة

١٩١٩م، فعندما اشتعلت المظاهرات احتجاجا على السياسة البريطانية الرامية إلى فصل السودان عن مصر وما قامت به الإدارة الاستعمارية في جنوب الوادي من عمليات قمع للحركة السياسية الداعية إلى وحدة البلدين عام ١٩٢٤م ولم تملك صحيفة الأهرام آنذاك سوى أن تخصص مساحات واسعة عن دور الأقاليم بما فيها الشرقية في تلك الحركة(١).



اللواء الأسترالي الثالث في شوارع الزقازيق ١٩١٩م لقمع الثورة



سيارة رولزرويس المدرعة في الزقازيق ١٩١٩م لقمع الثورة

- **الشراقوة يقاطعون الحشيش الإنجليزي!!.**

في عدد الأهرام الصادر يوم ٢٩ يونيو من ذلك العام وتحت عنوان «المظاهرات السلمية للسودان في مصر - تأثر الرأي العام واحتجاجه» أفردت الأهرام مساحة كبيرة لمظاهرات الشرقية والغربية والدقهلية والبحيرة والقليوبية والمنيا وقنا. فيذكر د. يونان لبيب رزق في ديوان الحياة المعاصرة الحلقة رقم ٣٥٤ بجريدة الأهرام

(١) حنان حسن جمعة: شهداء الوجه البحري، شهداء ثورة ١٩١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص١١٥.

٢٠٠٠/٩/٧: «يبدو أن أهل الزقازيق كانوا الأكثر حماسًا فقد أفردت الأهرام لما جري فيها مكانًا خاصًا في عدد اليوم التالي تحدثت فيه عن المظاهرة الكبرى التي اخترقت شوارع الزقازيق تهتف لجلالة ملك مصر والسودان ولأنصار وحدة وادي النيل في القطر السوداني الشقيق ووزع الطلبة إعلانات بمقاطعة البضائع الإنجليزية وألصقوها على جدران الشوارع، ولم تقتصر المظاهرات العنيفة على الزقازيق بل شاركت الزنكلون وأبو حماد وبلبيس».

وقد رصدت (جريدة الأهرام)[١] في ذلك العام ثورة وتذمر أبناء الزقازيق من أحد الأجانب كان يتاجر بالحشيش والكوكايين علانية تحت حماية الإنجليز ووصف مراسل الأهرام كيف أن مأمور البوليس المصري بالشرقية دبر كمينًا لهذا الرجل وهو خارج محله ليقبضه متلبسًا وهو يحمل «طوربة مملوءة بالحشيش وأربعمائة جرام كوكايين وكيف ابتهج الأهالي بالزقازيق من جراء هذه الضربة الأمنية لأوكار الفساد الأجنبي».

- **العيد القومي لمنيا القمح!!**

أما مدينة منيا القمح فقد قدمت العزيز من أبنائها في أرض المعركة ووطيس الثورة. وكان ذلك في معركة كبيرة يوم (الأحد ١٦ مارس ١٩١٩م)، وبلغ عدد قتلى معركة ذلك اليوم نحو (١٥٠) قتيلًا وعددًا آخر وقد سبق تلك المعركة مظاهرة كبيرة من طلبة المدارس يوم السبت ١٥ مارس، وفي تلك المظاهرة طاف الطلبة[٢]

---

(١) جريدة الأهرام ٢٠٠٠/٩/٧م.

(٢) نستطيع أن نقول: إن الطلبة كانوا هم الطليعة لثورة ١٩١٩م في الأقاليم وبخاصة الشرقية، ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، ومما ساعد على انتشار الثورة في الأقاليم مثل طنطا، وزفتي، منيا القمح، الزقازيق، شبين الكوم ... إلخ. هو انتقال كثير من طلبة القاهرة إلى بلادهم وقراهم بعد إضراب مدارسهم وإغلاقها فحملوا معهم إلى أهليهم ومواطنيهم الأفكار الثورية وأساليبها، ولقد شارك طلبة المعاهد الدينية بالأقاليم بدور أساسي في حركة الطلبة كما حدث في الزقازيق وطنطا ودمياط وأسيوط والمنيا والإسكندرية وغيرها.

بشوارع المدينة وهتفوا لمصر وحرية البلاد أمام المحكمة الشرعية والمحكمة الأهلية، كما تصدوا ديوان المركز وقابلهم هناك معاون الإدارة وأسدي إليهم النصائح بالتزام الهدوء والسكينة(١).

أما حوادث اليوم التالي (الأحد ١٦ مارس) فكانت دموية ورهيبة، فقد حدث أن جماهير المدينة قد خرجت بأعداد كبيرة تزيد عن ٥٠٠٠ متظاهر هذا بخلاف أعداد أخرىٰ جاءت علىٰ منيا القمح من القرىٰ المجاورة للاشتراك في المظاهرة. وسارت تلك الجموع الكبيرة في موكب ضخم واتجهت إلىٰ مبنىٰ المركز وهناك أطلقوا سراح المسجونين والمعتقلين ثم اتجهوا بعد ذلك إلىٰ محطة السكة الحديد وهناك حدثت الواقعة حيث أطلق الجنود الإنجليز والأستراليين بالمحطة الرصاص عليهم فسقطت الأعداد الكبيرة من القتلىٰ والجرحىٰ.

- **الأحياء يتكلمون!!**

وبلغ عدد قتلىٰ ذلك اليوم نحو ١٥٠ قتيلًا، وبذلك تكون مدينة منيا القمح(٢)، المدينة الصغيرة قد قدمت هذا العدد الكبير من القتلىٰ الشهداء، وأصبح يوم ١٦

---

(١) حنان حسن جمعة: المرجع السابق، ص١١٥، ١١٦.

(٢) مدينة منيا القمح: قاعدة مركز منيا القمح، هي كانت من القرىٰ القديمة اسمها الأصلي مني القمح وردت به في قوانين ابن مماتي وفي تحفة الإرشاد وفي التحفة من أعمال الشرقية وورد في الانتصار محرفًا باسم (مني القمح) وفي تاريخ سنة ١٢٢٨هـ منية القمح وهو اسمها الحالي في جدول المساحة القديم وعلىٰ الخريطة وأما (منية القمح) وهو المتداول فهو اسمها في جدول الداخلية وكانت منيا القمح من توابع مركز العزيزية إلا أنه لوجود بلدة منيا القمح علىٰ السكة الحديدية وتوسطها بين بلاد المركز صدر أمر في سنة ١٨٧٥ بنقل ديوان المركز والمصالح الأميرية الأخرىٰ من العزيزية إلىٰ منيا القمح وسمي المركز بها من تلك السنة ومن البلاد الحديثة العهد التي ألحقت بمركز منيا القمح عددها ٣٧ قرية ومنها كفر الصعايدة وكفر الزقازيق القبلي، كفر أيوب عوض وكفر بدوي رزق، كفر حسن عكاشة، كفر ميت بشار، كفر نسوة، كفر يوسف سمري. وعدد القرىٰ القديمة اللاحقة بمركز منيا القمح ٤٧ قرية منها كفر علي غالي، كوم حلين وملامس شلشلمون وبني هلال، بيشة عامر، الميمونة، القراقرة، العزيزية. انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٤-١٩٥٥، ص١٤٦.

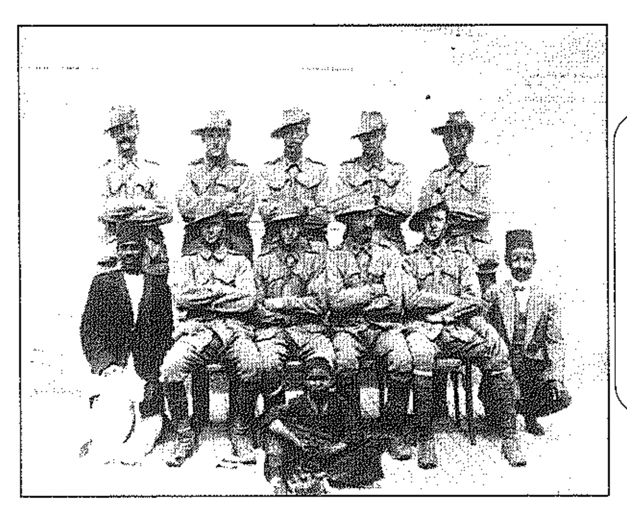
مارس يومًا مشهورًا بالمدينة، وأصبح ذلك عيدًا قوميًا لمركز منيا القمح يجتمع فيه أبناء منيا القمح كل عام لإحياء ذكرىٰ الشهداء البواسل. وليتذكر كل وطني بالشرقية أحداث ذلك اليوم المؤلم عندما أطلق الجنود الإنجليز والأستراليين الرصاص علىٰ جماهير المدينة التي اجتمعت في ساحة المحطة وما لبثت يد الغدر والخديعة تحصرهم حصرًا. وذلك بعد أن احكموا حصارهم بإغلاق مزلقان المحطة وفتح الكوبري الصغير الموجود علىٰ بحر مويس فأصبحت الجماهير بذلك محصورة بين بحر مويس ومحطة السكة الحديد وبعد لحظات من حصارهم علىٰ هذا النحو مرت إحدىٰ طائرات السلطة وألقت عليهم إشارة بضرب المتظاهرين، وفي لحظات أخذ الرصاص ينهال عليهم من كل اتجاه، فسقطت تلك الجماهير الكبيرة من القتلىٰ والجرحىٰ، أمام المزلقان، في منحدر كبير، وأصبح يعرف بعد ذلك عند أبناء المدينة باسم «جوزة الإنجليز» والتي تشبعت بدماء الثوار التي سالت أنهارًا وهي تنادي باسم مصر ولا تحمل من السلاح إلا العصي وأغصان الأشجار، تنادي باسم مصر لتجابه بأسلحة حديثة ومدافع متطورة.

وبعد سقوط هؤلاء القتلىٰ، قام الجنود الإنجليز بتقليب وتفتيش تلك الجثث وسرقوا من الأصابع والأيدي والجيوب ما وجدوه من محافظ أو ساعات أو خواتم ذهبية، وكان نقل الجثث بالجملة، وأخذ مفتش صحة المركز في استخراج تصاريح الدفن لكل عشرة منهم. وبعد مرور ٥٠ عام علىٰ ثورة ١٩١٩م نقلت لنا جريدة المصور شهادات بعض ممن عاصروا المذبحة في ١٦ مارس ١٩١٩م.

فيقول الحاج أحمد المصري (فلاح ٧٥ سنة شاهد عيان للمذبحة): «... أيامها كانت مصر كلها تسير في مظاهرة وفي يوم ١٥ مارس، عسكرت في الليل الفرق الأسترالية والإنجليزية في المحطة، في اليوم التالي ١٦ مارس خرجت المظاهرة، وكان عددها ٢٠٠ رجل أخذت تكبر وتكبر حتىٰ أصبحت أكثر من ٥٠٠٠ رجل، فمشيت وراء المظاهرة وعدينا السكة الحديد في طريقنا إلىٰ المركز لإخراج

المعتقلين ووجدنا عساكر الإنجليز تحاصر المكان وقفلوا بوابة المزلقان وفتحوا الكوبري ومرت طيارة من فوقنا ورمت إشارة للعساكر الإنجليز، وفي نفس الدقيقة أطلقوا علينا رصاص البنادق والمدافع من كل جهة... ودكتور المركز الدكتور صبري نبيه يعطي تصاريح الدفن لكل عشرة مرة واحدة وفي اليوم التالي ١٧ مارس منع الإنجليز المرور في شوارع البلد بعد الساعة الثامنة مساءً»[١].

وعن بطولة الشهيد الشرقاوي علىٰ عسكر:تروي السيدة مباركة عسكر شجاعة أخيها الشهيد علىٰ عسكر فتقول: «كان أخي علي عسكر قد خرج للمظاهرة وفي الطريق طلبت منه أن يعود ولكنه صرخ في وجهي قائلًا: «إحنا رجالة وموش نسوان». وعاد بعد ذلك إليَّ أخي محمولًا علىٰ باب خشبي، ومنذ ذلك اليوم لم ينطفئ نار الحقد في قلبي من ظلم الإنجليز»[٢].



صورة في الهواء الطلق لأعضاء من كتيبة المشاة الأسترالية الكتيبة السادسة عشرة مع اثنين من الشراقوة وصبي تلميع الأحذية في شارع الزقازيق
يناير - أبريل ١٩١٥م

(١) عاصم محروس عبد المطلب، دور الطلبة في ثورة ١٩١٩، سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، ص٦٦.

(٢) حنان حسن جمعة، مرجع سابق، ص١١٧.

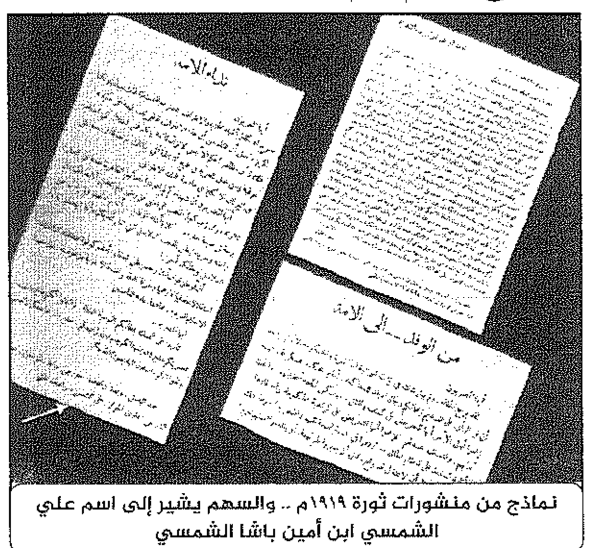
• حكاية شمشون الشرقية!!

ويقول آخر عن ذكرياته: «مضت أيام كنا نسمع فيها عن جنود إنجليز وجدوا مقتولين في شوارع المدينة المهجورة في الليل .. ونشطت المخابرات الإنجليزية نشاطًا كبيرًا لمعرفة شياطين الليل الذين يغتالون جنودهم، وصدرت أوامر بألا يمشي الإنجليز إلا في جماعات لا تقل الجماعة منهم عن ثلاثة ومع هذا فقد ظلت عملية الاغتيال مستمرة، وكلما زاد على ذلك أنه بعدما كان الاغتيال يقع على جندي بمفرده أو جنديين، أصبح الإنجليز يجدون أن القتل يشمل كل جماعة من ثلاثة»!!

ومضت شهور على ذلك، والإنجليز يكاد يصيبهم الجنون لتوالي اغتيال جنودهم. إلى أن حدث ذات يوم ما كشف عن سر البطل الذي روع المحتلين وأرغمهم على ألا يغادروا ثكناتهم بعد غروب الشمس ... كان اليوم يوم عيد من أعياد المسيحيين. وخرج الجنود السكارى يجوبون الشوارع وأسلحتهم في أيديهم. واشتد السكر باثنين منهم فصاروا يضربون كل من يصادفهم في الطريق، سواء كان امرأة أو رجلًا أو طفلًا.. وهاجوا وأخذوا يطاردون الناس حتى اضطر أصحاب المتاجر لإغلاق متاجرهم. وأخذ الأهالي العزل يفرون أمام الرصاص الطائش الذي كان يطلقه الجنديان المخموران.

ولسوء حظهما وصلا إلى قرب شارع الدويني والأهالي العزل يفرون أمامهما، فخرج محمد أبو العلا من دكانه الذي يمارس فيه صناعته كبيطار يصلح حوافر الخيل والحمير وسأل الأهالي عن سبب فرارهم .. وقبل أن يسمع الجواب رأى الجنديين السكرانين، فدخل دكانه وأغلق بابه بغير مفتاح وما كاد الجنديان يدخلان أو شارع الدويني، حتى خرج محمد أبو العلا من الدكان بكل هدوء وأمسك بعنقي الجنديين من خلف بقبضتين من حديد، وأخذ يضرب رأس كل منهما بالآخر، حتى سالت دماؤهما، ولم يكتف بذلك، بل وضع رأسيهما في

طين الشارع ولم يتركهما حتى صارا جثتين هامدتين. وبعد ساعات جاءت الشرطة العسكرية الإنجليزية، وخرج الإنجليز بأسلحتهم ينتقمون من الأهالي الأبرياء، وقبض على أصحاب الحوانيت التي وقع الحادث بالقرب منها وعذبوا تعذيبًا وحشيًّا دون أن يبوح أحدهم باسم البطل العملاق (محمد أبو العلا).



نماذج من منشورات ثورة ١٩١٩م .. والسهم يشير إلى اسم علي الشمسي ابن أمين باشا الشمسي

وقع هذا الحادث أمام حانوت[١] حلاق اسمه (الأسطى حافظ بدوي) وأمام بيت أحد أعيان المنيا واسمه رحمي بك الدويني. فقبض عليهما وبرغم التعذيب لم يبوحا بشيء .. وكاد الحادث يعتبر من فعل مجهولين، لولا أن بعض فتيان وغلمان المنيا، الذين كانوا مفتونين برجولة محمد أبو العلا وشجاعته، أخذوا يتغنـون بهذه البطـولة، ويتفاخرون بأن شـابًا واحدًا استطاع أن (يفقش جوز إنجليز زي ما بيفقش البيض) ووصلت همسات الفخر إلى أسماع الإنجليز فقبضوا

(١) حانوت: هو دكان أو محل التجارة الذي يتم فيه البيع والشراء.

على محمد أبو العلا، ومن التحقيق ثبت أنه هو الذي كان يرتكب معظم حوادث الاغتيال. وكان يهاجم الجنديين فيصرعهما ببساطة مهما كانا قويين، فلما صار الإنجليز لا يسيرون إلا في جماعات أقلها ثلاثة، كان يصرع أولهم بضربة عصا واحدة، ثم ينقض على الاثنين الآخرين فيضرب رأس كل منهما بالآخر حتى يموتا.!!ولم يتمكن أي جندي إنجليزي من استعمال مسدسه؛ لأن محمد أبو العلا كان سريع الحركة خفيف الوثبة كأنه الفهد.

وحكم على محمد أبو العلا بالإعدام. وحزنت المدينة على ابنها البطل، وبدا الرجال والشبان يعدون العدة لمهاجمة السجن وإنقاذه..فشددت الحراسة عليه.. وبلغ مسامع الإنجليز من رجال مخابراتهم أن المدينة كلها مصممة على أن تنتقم لمحمد أبو العلا، فأوعزوا إلى قائدهم العام (لورد اللنبي) بان يخفف الحكم إلى السجن المؤبد، حتى لا تتصاعد حوادث الانتقام.

وظل محمد أبو العلا في السجن إلى عام ١٩٢٤م. عندما تولت وزارة سعد زغلول الحكم وصدر عفو عن المحكوم عليهم السياسيين وشمل العفو بطل منيا القمح العملاق (محمد أبو العلا البيطار) أو شمشون البلد كم لقبه أهل بلده!![١].

الشهيدة الشرقاوية يمن بنت صبيح: وقد تحدث الفلاح «العوضي العطار» ٧٠ عام عن مذبحة ١٦ مارس وكيف خرج مأمور المركز الرجل الوطني «محمد أفندي إسماعيل» على حصانه ليتقدم المظاهرة.. وكيف اشترك القسس والشيوخ بالمظاهرة، ويروي كيف سقطت يمن بنت صبيح على الأرض وأمامها جنينها وأحشاؤها حيث كانت تحمل قفة الطحين في طريقها إلى قريتها، فقابلها عسكري أسترالي، فأوقفها للتفتيش فخافت وصرخت وحاول العسكري الاعتداء على شرفها؛ فقاومته بشدة فضربها بالسنكي وانشقت بطنها وخرج جنينها ووقعت على الأرض وراحت شهيدة للوطن.

---

(١) مجلة المصور عدد ٢٣١٧، ٧مارس ١٩٦٩م.

وجليلة إبراهيم عمرها ٦٠ سنة .. «كنت لسه صغيرة وراسي مكشوف، يوم المظاهرة سمعت ناس بتهتف للوطن مشيت وراهم .. أصبت بطلقة والدم سال .. رأيت جارتنا (ستيتة) مقتولة والدم مغرق هدومها .. خدوني على دكتور المركز وفضلت عيانة لغاية ما فركنا الغلة».

- **الشرقية .. أرض العلاقمة!!**

الشرقاوي العملاق عبد الحميد البيطار: يروي ابنه عبد الحميد الذي كان جنينًا في بطن أمه يوم استشهاد والده عبد الحميد البيطار.. كيف أن أمه قالت له: أن والده كان عملاقًا قوي البنية استطاع أن يضرب وحده مجموعة من الجنود الأستراليين إلا أنهم ضربوه بالنار ومثلوا بجثته بعد قتله.

إبراهيم عوض: يروي المذبحة باعتباره شاهد عيان فيحدثنا عن رجل ضخم الجثة سقط برصاص الجنود بعد ضربه عدد كبير منهم وإبراهيم عوض .. موظف بالمعاش ٧٠ سنة.. «كنت أقف بين الجموع في ذلك اليوم وسمعت طلقات الرصاص وسقط أمامي رجل ضخم الجثة، وآخر اخترق الرصاص بطنه وتدلت أمعاؤه، وشاب أصابته رصاصة قاتلة فألقى بنفسه في البحر لعله يطفئ النار المشتعلة في جسمه، وظهرت جثته بعد أسبوع عند قناطر التسعة بالزقازيق. أما المنظر الذي لن أنساه فهو منظر طفلتين شقيقتين اخترقت رصاصة قلب أحداهما فسقطت ميتة ووقفت أختها بجانبها وفي يدها زجاجة فارغة وهي تصرخ وتقول إحنا من كفر أبو عبد الله كنا رايحين نشتري بقرش جاز. لكن أختي ماتت»[1].

(١) انظر مجلة المصور، ٧ مارس ١٩٦٩م.

- **إنجليزي بعين زرجة..في الوابور!!**

إخباري آخر يروي مشاهد حاسمة في ثورة ١٩١٩م فيقول: «ذات يوم علمنا أن قطارًا قادمًا من قبلي يحمل عددًا من كبار الشخصيات الإنجليزية، معظمهم من المفتشين ومديري البنوك. خافوا على حياتهم في مدن الصعيد الثائرة، فركبوا القطار إلى القاهرة، فتجمع أهل منيا القمح على محطة السكة الحديد، وقد صمموا على أن يفتكوا بهؤلاء الإنجليز، انتقامًا للضحايا الذين شاع خبر استشهادهم برصاص الإنجليز في القاهرة والإسكندرية وغيرها من العواصم.

لكن الألوف الذين تجمعوا على محطة منيا القمح بالشرقية أصابتهم خيبة الأمل؛ لأن أهل بلدة (دير مواس) سبقوهم إلى الثأر للشهداء؛ إذ هجموا على القطار، ووقفوه عنوة، ثم اقتحموه وفتكوا بمن كان فيه من الإنجليز.

ومن أطرف ما حدث خلال هذه المأساة، أن مستر (بوب) مفتش السجون كان بين الراكبين في القطار فلما أحس بالخطر قال للجندي المراسلة الذي كان يصاحبه: «خبيني يا منطاوي» فأخذ منطاوي ملاءة إحدى السيدات، وغطاه بها، ولما اقتحم الثوار عربة القطار قال لهم منطاوي: «اعملوا معروف حاسبوا أحسن مراتي حامل وتعبانة».

ولكن أحد الثوار أدرك الكذبة بذكائه وقال لمنطاوي: «هو فيه عسكري بيركب مراته درجة أولى مفتخرة؟!». وسمع مستر بوب هذا الحوار فأدرك الخطر ورفع طرف الملاءة وتطلع من تحتها فلمحه أحد الثوار وصاح: «إنجليزي بعين زرجة.. اضرب يا ولد».. وهرب بوب والضرب ينهال عليه حتى وصل إلى سائق القطار وقال له «اعمل معروف سوق وخد ١٠٠ جنيه» ولكن لم تمض غير لحظات حتى سقط بوب قتيلًا.. ومع هذا فإن الثوار لم يمثلوا بالجثث كما كان الإنجليز يفعلون عندما يفتكون بالمصريين. ودفن الإنجليز القتلى في اليوم التالي في مقابر المسيحيين عند جسر نعوم في منيا القمح.

• السفاح في الشرقية!!

وأدرك الثوار أن الإنجليز لا بد أن يرسلوا حملة تأديب فقطعوا قضبان السكة الحديد لمسافات طويلة، وبهذا عجز الإنجليز عن إرسال النجدة بطريق السكة الحديد، ولكنهم أرسلوها في باخرة ضخمة حملت مئات من الإنجليز والهنود المدججين بالسلاح.. وعلى رأسهم البكباشي محمد شاهين الذي اشتهر باسم السفاح؛ لأنه كان لا يفرق المتظاهرين إلا بضرب الرصاص (في المليان) وكان إذا وقع في يداه أحد من الطلبة المتظاهرين، ربطه من يديه بحبل في سرج جواده، وظل يجره خلفه حتى يهشم جسمه ويموت.

وعلم الثوار أن الإنجليز قادمون في باخرة، فأسرعوا إلى حجز المياه خلف بعض القناطر وبهذا تعطل وصول الحملة بضعة أيام على أن استطاع الإنجليز إطلاق المياه واستطاعت الباخرة أن تواصل سيرها.

ووصلت الباخرة على شاطئ منيا القمح وهو شاطئ مبني من الحجر، منحدر في ميل شديد، وكان ألوف من المتظاهرين على الشاطئ. وبعد أن رست الباخرة ولم يكن يظهر على سطحها أي جندي، برز محمد شاهين السفاح والمسدس في يده. وفي جرأة أشار برأسه إلى جنود كانوا في داخل الباخرة فبدأوا يخرجون ويصعدون السلم الحجر، والبنادق في أيديهم ... وبهت المتظاهرون فلم يفعلوا شيئًا.

وبعد لحظات دوى صوت كالرعد يقول: «ساكتين ليه يا رجالة ... اضرب يا ولد»، وفي لحظة تخاطفت ألوف الأيدي مئات الأحجار الكبيرة التي كانت مرصوصة ومعدة لبناء بعض المنشآت الحكومية في هذه المنطقة المسماة (بلاس) وتساقط الإنجليز في النهر كالذباب وكانت خسارتهم كبيرة لأنهم كانوا محصورين في حيز ضيق من السلم الحجري، فكان من السهل اصطيادهم.

وأطلق شاهين الرصاص فتبعته مئات الطلقات من الجنود الذين احتموا وراء جدران الباخرة وتساقط الضحايا من المتظاهرين. وكان كلما اشتد إطلاق النار وتفرق المتظاهرون، عاد الصوت المدوي يقول: «أجمد يا واد.. اضرب ولاد الكلب دول» فيعود الثوار إلى التجمع وقذف الأحجار..ولم يكن هذا الصوت إلا صوت بطل منيا القمح وشمشونها (محمد أبو العلا البيطار)[1].

• فاقوس.. ثائرة!!

أظهرت فاقوس وما جاورها من قرى عن وطنية بالغة، ووقفت بقوة وحماس أمام الحوادث، وقد هال سكانها أخبار الثورة وسقوط الشهداء الأبرار في كل مكان، ومن ثَمَّ قررت فاقوس بكامل سكانها وقراها مواجهة سلطة الاحتلال حتى ولو كان ذلك مؤديا إلى استشهاد جميع الثوار، ولم يرهب فرد واحد من سكانها أو يتراجع، وقد بدأت حوادث فاقوس في الأيام الأولى للثورة حيث بدأت في ١٥ مارس إلى ٢١ مارس ١٩١٩ وكان الطلبة كالعادة هم طليعة الثوار باعتبارهم المعبرين عن الآمال والأهداف الوطنية للسواد الأعظم من الشعب وشاركتهم باقي طوائف الشرقاويين من أهل فاقوس، وانضم إليهم أبناء المراكز والقرى المجاورة وقام الثوار بتدمير الخط الحديدي والكوبري المقام على ترعة البحر وقاموا بمهاجمة المركز والاستيلاء على ما فيه من السلاح وظلت الثورة مشتعلة بالمظاهرات تردد: «يحيا العدل، عاش الوطن، نريد الاستقلال»، ولم يخمدها سوى بطش الاحتلال، وفي محاكمات الثورة حوكم جماعة من أعيان فاقوس إذ نسب إليهم التحريض والاشتراك في الاضطرابات والإتلاف، واتهم فيها كل من: سليمان بك مصطفى خليل، ومحمد علي المستي، عبد العزيز عبدون، السيد الإسكندراني، محمد غنيم عبدون، حسن عبدون، على بك مصطفى خليل، عيداروس زيد جمعة، وحكم بالإعدام على الأول واستبدل بالأشغال الشاقة

(١) مجلة المصور، ٧ مارس ١٩٦٩م.

المؤبدة، وحكم (بعد تعديل الحكم) على الثاني والرابع بالسجن ثلاث سنوات، وعلى الثالث والخامس بالسجن خمس سنوات وبراءة الباقين[1].

وكانت تلك بعض من ملامح صور البطولة بمدينة فاقوس[2] وقراها فكانت ملحمة حب من أجل مصر.

ويسجل الأستاذ عبد الرحمن الرافعي نزوع أهل الشرقية نحو النزاهة والعدل والحرية في أول انتخابات برلمانية في أبريل سنة ١٩٢٣م على أثر الثورة المصرية

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومي، الجزء الثاني مكتبة الأسرة ١٩٩٩، ص٨٤.

(٢) مدينة فاقوس: قاعدة مركز فاقوس وهي من المدن القديمة ذكرها جوتييه في قاموسه فقال إن اسمها المصري Pakes والقبطي Fakousa ووردت فاقوس في كتاب البلدان لليعقوبي من مدن مصر في الحوف الشرقي ووردت في كتاب قدامة باسم فاقوس الغاضرة، وفي كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي فاقوس من مدن الحوف الشرقي ورد اسم بلدة أوسيم في التاريخ عاصمة للإقليم رقم ٢٠ في التقسيم الفرعوني لأقاليم مصر وأطلق على المنطقة التي تشغلها مدينة فاقوس حاليًا الإقليم رقم ٢٠ ومنطقة محافظة الشرقية الحالية كما أن كلمة أوسيم كانت قد وردت في التوراة بالاسم جو شم وهي نفس المنطقة التي استوطنها العبرانيين ودارت فوقها قصة سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وفي الكتابات اليونانية ورد اسم أوسيم بصورة مختصرة وأضيف إليها أداة التعريف (ف) فأصبحت فاقوسًا. وفاقوسًا هذه كانت عاصمة لنفس المنطقة في العصر اليوناني والروماني وبعد الفتح العربي أخذت اسمها الحالي فاقوس، ويرى بعض الباحثين أن العبرانيون أطلقوا عليها فاجوس أو باغوزين، وهي مؤلّفة من مقطعين الباء والفاء ومعناها أرض، والثاني جوشن ومعناها النماء، أي المعنى كله أرض النماء، ويرى الباحث جيرار في مقاله بمجلة صديق الكاهن أن فاقوس كانت تسمى في عهد الفراعنة باسم جسيم، ثم أطلق على المنطقة كلها اسم جاسان في العصر اليوناني فاقوسًا، ثم العصر الروماني القبطي سميت أربيا أو تي أربيا، ويرى بعض الباحثين أن اللغة القبطية قد فسرت اسم فاقوس تفسيرًا منطقيًا، حيث قالوا أن كلمة جاسان أضيف إليها (فا) وهي أداة للتعريف في اللغة القبطية فأصبحت فاجاسان أي التي لجاسان، ثم حرفت إلى فاقوس. وأطرف ما قيل عن تسمية فاقوس رأي الأستاذ الدكتور مصطفى القاضي أن أرض فاقوس دار عليها معركة شديدة تكسر فيها ألف قوس وهو من أدوات الحرث آن ذاك فأطلق كلمة الفاقوس عليها. تقع مدينة فاقوس في نقطة تقاطع بين خط عرض ٣٠.٤٤ وخط الطول ٣١.٥ على وجه التقريب على بحر فاقوس وبذلك كان يمثل مركز فاقوس الجزء الأعظم من مساحة الإقليم بالشرقية، مساحة مركز فاقوس ٤٨٥.٣ كم٢ وتمثل ثاني مركز من حيث المساحة بمحافظة الشرقية أي بنسبة ١١.٥٨٪ من مساحة المحافظة. انظر: محمد رمزي، مصدر سابق، ص١١٦-١١٧، انظر مجلة صوت الشرقية، العدد الرابع ١٩٦٣م، ص١٢، وانظر: فاروق كامل عز الدين، عبد الفتاح حزين: دراسة البيئة، محافظة الشرقية، ص٢٣.

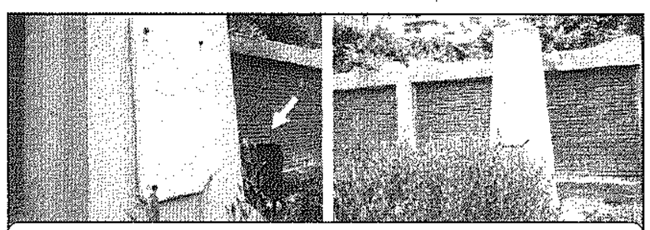
وتم تقسيم الشرقية إلىٰ ١٦ دائرة انتخابية وسقط رئيس الوزراء يحيي إبراهيم باشا في دائرته «منيا القمح» وفاز عليه مرشح الوفد وكانت هذه الانتخابات نموذجا لنزاهة الانتخابات الحرة.

تلك كانت بعضًا من كثير لصور البطولة لأبناء الشرقية لا تتسع مئات الصفحات لنرويها، ولكن اكتفينا بهذه المشاهد السابقة من ملحمة هؤلاء الأبناء الذين أنجبتهم الشرقية للأم الرؤوم مصر.. الحب الذي نسيناه.. وإلىٰ جانب هؤلاء الأبطال نشير أيضًا إلىٰ أن أبناء الشرقية قد ساهموا بالنضال مع أبناء باقي المحافظات الأخرىٰ مثل استشهاد الشرقاوي محمد شاهين سمرة من ميت أبو عربي شرقية؛ حيث شارك في المقاومة ببلدة ميت القرشي من أعمال مركز ميت غمر، كما شارك أبناء الشرقية أخوانهم في المنصورة ودمياط والقاهرة وطنطا والبحيرة... إلخ. والتي تحدث عنهم الأستاذ عبد الرحمٰن الرافعي باستفاضة.

- **يا عم حمزة إحنا التلامذة في الثانوية!!**

وفي فبراير ١٩٤٦ عندما حاولت الحكومة المصرية إلغاء معاهدة ١٩٣٦.. رفضت الحكومة البريطانية ولم تقبل إلا ببعض التعديلات وهو ما اعترض عليه الطلبة في وقتها.. وعقدوا مؤتمر قرروا بعدها التوجه في مظاهرة كبري إلىٰ قصر عابدين لرفع مطالبهم إلىٰ الملك. وما كاد الطلاب يتحركون علىٰ كوبري عباس حتىٰ فتحه البوليس الذي هاجمهم من الخلف فأصيب الكثير منهم. وكما حدث عام ١٩٣٥، أدت مواجهة المظاهرة الطلابية السلمية بالعنف إلىٰ استمرار المظاهرات حتىٰ (١٠ فبراير) وامتدادها إلىٰ الإسكندرية، والزقازيق، والمنصورة، وأسيوط. وقام الطلاب بتحطيم الزينات التي علقت علىٰ الجامعة بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد الملك فاروق، وانتزعوا صورته وداسوها بالأقدام. وقدم النقراشي باشا استقالة وزارته في ١٥ فبراير ١٩٤٦. وقد أعلن الطلبة يوم ٢١ فبراير١٩٤٦ يوم الإضراب العام في كل مصر للتمسك بالجلاء وللاعتراض علىٰ سلوك حكومة صدقي باشا، واستجاب الشعب استجابة كاملة. فشلت حركة المواصلات

وتوقفت جميع المصانع والمحال التجارية عن العمل، وأقفلت المدارس والكليات. وخرجت من الأزهر مظاهرة كبرىٰ شاركت فيها الجماهير اتجهت إلىٰ ميدان الأوبرا ثم زحفت إلىٰ ميدان قصر النيل (التحرير الآن) حيث الثكنات البريطانية (موقع فندق الهيلتون الآن)، واتجه قسم منها إلىٰ ساحة عابدين. وكانت المظاهرات تسير في نظام تام دون اعتداء علىٰ أحد ودون التعرض للممتلكات أو جنوح نحو التخريب، فإذا ببعض السيارات العسكرية البريطانية المسلحة تخترق الميدان وسط الجماهير فجأة لتدهم بعضهم تحت عجلاتها. وكان الرد الطبيعي من جانب المتظاهرين رجم الثكنات البريطانية بالحجارة. فرد الجنود البريطانيون بإطلاق الرصاص. فكانت مذبحة أثارت ثائرة الجماهير، فأشعلوا النار في معسكر بريطاني بالميدان (كان يحتل موقع مبني المجمع الآن)، وبعض المنشات العسكرية البريطانية الأخرىٰ.



نصب شهداء الطلبة بالمدرسة الثانوية العسكرية بالزقازيق في مظاهرات ١٩٤٦م، وهم: السيد علي الغندور، محمد الغنيمي شاهين، سعد حسن سرحان

وانتقلت المظاهرات لجميع أحياء القاهرة والمحافظات الكبرىٰ واتخذت أحيانا طابع العنف والمواجهات مع جنود الاحتلال التي ردت بعنف اكبر ودمويه شديدة أدت لسقوط العديد من الضحايا وقد قدمت الشرقية ثلاثة من خيرة أبنائها الطلبة بمدرسة الزقازيق الثانوية العسكرية وهم الشهيد البطل علىٰ الغندور الحائز علىٰ لقب الطالب المثالي عام ١٩٤٤م بالسنة الخامسة أدبية، والشهيد البطل محمد الغنيمي شاهين بالسنة الخامسة علمية، والشهيد البطل سعد حسن سرحان بالسنة الرابعة. واليوم يعاني نُصب شهداء الطلبة (الذي أقيم

في بهو مدرسة الزقازيق الثانوية العسكرية) الإهمال بوضعه بجوار سلة المهملات، ثم قامت إدارة مدرسة الزقازيق الثانوية العسكرية بترميمه مؤخرًا!! مما يعد مؤشرًا خطيرًا عن مجتمع أصبح عاجزًا عن تحقيق قدر من التوازن في أقدار وأدوار أبنائه.. إن هؤلاء الشهداء الأبطال لا ينتظرون اهتمامًا إعلاميًّا بهم ولم يعد لديهم سعي لذلك ولكن تكريمهم وتقديرهم ليس من أجلهم فلن يضيف إليهم أكثر مما حققوه.. ولكن نحتفي بهم وبذكراهم من أجل أن نقدم لشبابنا صورة جديدة للقدوة.. والقدوة أصبحت صناعة تسعىٰ الأمم إلىٰ تحقيقها لتقدم لأبنائها صورة يتعلمون منها أن كل نجاح هو قدوة وأن ميادين النجاح كثيرة وبلا حدود وأن النضال بثبات ضد مخططات تزييف الوعي وشل الإرادة وإهدار المقدرة وفرض المنطق الخارجي علىٰ واقعنا والوجود السرطاني علىٰ جرحنا العربي الممتد من القدس إلىٰ بغداد ليس إرهابًا ولا تعصبًا بل هو حق مشروع... إن هؤلاء الشهداء الثلاثة ليسوا بإرهابيين كما يدعي أصحاب المزامير في آتون النفاق السياسي.. إنه بلاغ للرأي العام لإنقاذ صناعة القدوة والانتماء في مصر فكلمات وهتافات الشهداء الطلبة في مظاهرات ١٩٤٦م: «عاشت مصر وتبت يد الآثمين» كانت ولا تزال.. كلمات حق وصيحة في واد إن ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غدًا بالأوتاد!!.

وهكذا كانت ملحمة النضال وروعة الكفاح وبطولة الشهداء بالشرقية التي تسطر بأحرف من نور لكل شهيد ولكل وطني من أبناء الزقازيق ومنيا القمح وفاقوس، وغيرها من المدن والقرىٰ.. راحوا فداءً لمصر وشرفًا لها، وأصبحت وقائع ثورتهم واستشهادهم ونضالهم قصصا تحكي بفخر وعزة وكرامة لتكون وسامًا علىٰ صدر كل مصري يؤمن بتراب هذا الوطن وبحقه في الحياة.



الباب الرابع

الشراقوة: شين .. كاف .. عين

(ش) الحياة داخل التاريخ لها مذاق خاص، ما أجمل التجول بين أرجاء هذا العالم الساحر المفعم بالحياة الذي يبعث ملامح الماضي حية في خيالنا فنجوب بين دروبه وأزقته فتطالعنا صور من البطولات التي نبتت في أرض الشرقية بما وقر في نفوس أهلها من البسالة الحقة وكيف يتفجر الفلاح المصري متعاملًا مع السلطة بنبرة التهكم والسخرية والرفض مؤكدا وجوب تغيير وثورة شعبية ضد اللامألوف واللا إنساني.

ورغم أن تلك الثورات الشعبية - وقد سبق أن تعرضنا لها - كانت تنتهي غالبًا لصالح السلطة القائمة التي تفرض قراراتها قهريًا إلا أن هذا الاحتكام الحربي كان يفرز على الجانب الآخر آثارًا حضارية فضلًا عن كونه دليلًا ماديًا على خطأ ما تم ترويجه في بعض كتب المؤرخين والرحالة في سياق تصنيفهم للشعوب مثل السيوطي والمقريزي وابن زولاق والعبدري، وأوليا جلبي وغيرهم في ترويجهم للمقولة القائلة: «إن أهل مصر عبيد لمن غلب.. أكيس الناس صغارًا.. وأجهلهم كبارًا»[1].

ولكننا نجد أن المصريين على امتداد تاريخهم الضارب بجذوره في فجر الضمير الإنساني كانوا بالمرصاد لكل الطغاة الذين فرضوا سطوتهم عليهم ليبقى لدينا جوهر الشخصية المصرية الثابتة وهي شخصية شعب أثبت على مر العصور أنه يؤمن بالاستعباد!!. ولكنه استعباد الحرية للإنسان «إذ كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»!! فتراه إذ تقرأ ما كان يقوله لقمبيز مثلًا منذ آلاف

---

(١) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج٢، القاهرة، ١٩٥٦، ص٣٣٧-٣٣٩.

السنين وهو يتهيأ لاقتحام بلادهم أشبه ما يكون بما قاله المصريون في السادس من أكتوبر ١٩٧٣م وكأن إذاعتنا في القرن العشرين الميلادي كانت تردد ما قاله أجدادنا منذ قرون قبل أن يولد السيد المسيح.

• البطل .. الأسطورة

ووجدنا وقائع التاريخ تشهد بذلك حين كتبت إحدي الصحف «الروسية» قائلة: «كان عظيمًا مرعبًا» معلنة عن الإنجاز الهائل الذي حققه شاب «شرقاوي» اسمه «محمد عبد العاطي عطية شرف» (من قرية شيبة قش[1] - مركز منيا القمح - محافظة الشرقية) استطاع تدمير قافلة دبابات من ٢٣ دبابة إسرائيلية في دقائق معدودات خلال (حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ/ أكتوبر ١٩٧٣م) وتدمير ٣ عربات مجنزرة من عربات العدو الإسرائيلي واشتبك مع مقدمة اللواء المدرع ١٩٠ الإسرائيلي وكان قائده (عساف ياجوري) وكان هذا اللواء هو أحد احتياطات العدو وأُرسل لصد هجوم القوات المصرية، فإذا به في مصيدة رجال الفرقة المصرية وتم أَسر «عساف ياجوري» ومن معه، وحدثت هزة عنيفة للعدو الإسرائيلي وفقد في الأسبوع الأول من المعركة نحو ٧٥٪ من قواته المدرعة.

وأطلقت الصحافة الروسية عليه لقب صائد الدبابات وعنها نقلت الصحافة المصرية هذا اللقب واشتهر به وعند سؤاله: ما هي الصعوبات التي واجهتكم أثناء المعركة؟ فقال: «ندرة الماء والطعام لكننا تغلبنا على ذلك بالتجلد والصبر

---

(١) تقول الرواية الشعبية أن قرية شيبة قش أخذت اسمها من منزل القش الذي بناه (عم شيبة) وهو اللقب الذي يطلقه عليه أهل القرى المجاورة حيث كان أول من أسس كوخًا من القش في تلك الناحية ليقيم فيه ثم قلد البعض هذا الرجل العجوز ببناء أكواخ من القش إلى جواره ومع مرور الزمن أصبحت المنازل تبني من الطوب اللّبن وأصبحت مجموعة المنازل عبارة عن قرية صغيرة يزداد عمرانها مع زيادة تعداد أهلها.. وقرية شيبة قش تتبع مركز مينيا القمح أحد مراكز محافظة الشرقية.. تلك المحافظة العريقة شرق الدلتا.

وإيثار كل واحد منا لأخيه على نفسه» .. «وقت المعركة لم أفكر في أي شيء سوى مصر، لا الأسرة، ولا الأصدقاء، ولا أي شيء إلا مصر». ولأن عبد العاطي كان مثالًا صادقًا لبطولة الجندي المصري في شجاعته، وتضحيته، وصلابته، وعزيمته، وإخلاصه، ووفائه لوطنه وشعبه في هذه الحرب.. فقد أصبح أحد رموزها البارزة.. فلا تكاد تذكر معركة العاشر من رمضان - السادس من أكتوبر إلا ويذكر معها عبد العاطي صائد الدبابات.


صائد الدبابات الشرقاوي
محمد عبد العاطي عطية شرف

لذلك فقد تم تكريم هذا البطل في مناسبات مختلفة، ومرات عديدة، سواء على المستوى الرسمي أو المستوى الشعبي.. ولكن أكبر تكريم له - وهو كان يعتز به دائمًا رَحِمَهُ اللَّهُ - هو حب الناس له.. فما يكاد يقابله واحد من أفراد الشعب البسطاء الذين عاصروا حرب أكتوبر وبمجرد أن يتعرف عليه إلا وأقبل عليه يعانقه، ويُقبله كإنسان عزيز عليه.

- **الشرقاوي الذي احتفلت إسرائيل برحيله!!**

وما كان ذلك إلا لأدائه البطولي وشجاعته في تلك الحرب، وإنجازه الذي لم يسبقه إليه أي جندي في العالم.. في أي حرب من الحروب في تدمير مثل هذا العدد من المدرعات، وبأي سلاح من الأسلحة.. وكان أكبر إنجاز تم تحقيقه بهذا الصاروخ هو ما قام به جندي روسي في الحرب العالمية الثانية.. علمًا بأن روسيا هي صانعة هذا الصاروخ .. من تدمير ٧ دبابات فقط للعدو. ومن أجل هذا الإنجاز للجندي الروسي فقد أقيم له تمثال تخليدًا لذكراه بالميدان الأحمر بموسكو كأحد الأبطال العظام.. ويعلق الكاتب جمال الغيطاني عن مدى

تكريم البيروقراطية المصرية للبطل محمد عبد العاطي بقوله: «بعد عودته إلىٰ منيا القمح وتقاعده من الخدمة، بدأ التفكير في إعداد مشروع صغير من خلاله يضمن قدرًا من الرزق الحلال يليق بمقاتل رمز يحمل أعلىٰ وسام في مصر، نجمة سيناء، لا أعرف الظروف التي أدت به إلىٰ إعداد مخبز، لكنه أخبرني عن العقبات التي يلقاها في طريقه من الموظفين، فلكي يفتتح المخبز ويبدأ عمله لابد أن يحصل علي حصة دقيق من وزارة التموين ولكي يتم صرف الحصة لابد من التعامل مع أجهزة الوزارة، وكما ذكرت وقتئذ فإن تدمير ستة وعشرين دبابة من طراز باتون أم ستين، وسنتوريون، كان أسهل وأيسر من الحصول علي موافقة بصرف حصة الدقيق، من أجل هذه الحصة اضطر إلىٰ الانتظار أكثر من عامين، وأفضي إليّ بعد نفاد صبره، في ذلك الوقت كان يتولي وزارة التموين واحد من أنزه وزراء مصر، الدكتور أحمد الجويلي، وهو رجل ممن سيذكرهم الناس طويلًا، لنزاهته ونظافة يده. كتبت مناشدًا الدكتور أحمد الجويلي صرف حصة الدقيق للمقاتل عبد العاطي صائد الدبابات.

وفي نفس يوم نشر اليوميات اتصل بي الرجل علىٰ الفور، وقال لي إنه أشر علىٰ الطلب بالتنفيذ فورًا، أخبرت عبد العاطي بالموقف الكريم للوزير، وطلبت إليه أن يذهب إلىٰ الوزارة لتنفيذ التأشيرة. وفوجئت به يتصل بي بعد أيام يشرح لي الصعوبات التي واجهها لتنفيذ تأشيرة السيد الوزير، وتلك خاصية أعرفها جيدًا في البيروقراطية المصرية، يمكن صدور قرار من أعلىٰ قمة الهرم ولكن يمكن لموظف صغير أن يعرقل تنفيذ القرار، وحجج البيروقراطية لا نهاية لها، هكذا عدت إلىٰ استئناف معركة الدقيق في يوميات الأخبار التالية، ومرة أخرىٰ اضطر الدكتور أحمد الجويلي إلىٰ التدخل لتنفيذ الموافقة، وبعد أخذ ورد، وطول زيارات لمقر الوزارة، أخبرني عبد العاطي أن الموافقة نفذت، لكن تم تخفيض الحصة من ثمانية أجولة إلىٰ ستة!»[(١)].

---

(١) انظر: جريدة أخبار الأدب، عدد ١٦ ديسمبر ٢٠٠١م، نقطة عبور، لجمال الغيطاني.

وكان مغيب البطل الشرقاوي محمد عبد العاطي بسبب مرض عضال ولم يجد الرعاية الصحية الكافية عند مرضه إذ يحكي ابنه أحمد رحلة أبيه مع المرض قائلًا: منذ شهرين أصيب أبي بغيبوبة كبدية، وكانت أول مرة في حياته يدخل المستشفي؛ لأنه كان يتمتع بصحة جيدة دائمًا، وطمأننا الأطباء أن حالته تحسنت، وعاد لممارسة خدماته لأهل القرية، إلا أنه وبعد خمسة أيام دخل المستشفىٰ مرة أخرىٰ، أخبرونا بإصابته بدوالي المريء، وكانت بداية مرض الوفاة، وكان يحتاج للحقن لأنه كان ينزف بصورة مستمرة، واستمرت رحلة علاجه بمستشفىٰ جامعة الزقازيق لمدة أسبوعين، واستسلم الرجل الذي هزم جبروت الأعداء للقضاء، وصعدت روحه إلىٰ بارئها في العاشر من ديسمبر ٢٠٠١م. لتحتفل إسرائيل في عام ٢٠٠٢م برحيل الكابوس الذي زلزل الأرض من تحت أقدامها.

وتقول زوجته: كان عبد العاطي يجمع شباب القرية، ويحكي لهم القصص عن أبطال أكتوبر، والبطولات الخارقة التي قام بها الجنود المصريون، ويذكرهم دائمًا بأنهم يجب أن يستعدوا للمعركة القادمة؛ لأن الإسرائيليين لن يتركونا!![1].

وأقصد هنا كلمة (مغيب) لأن عبد العاطي كالشمس تشرق من جديد؛ فالفلتات أو الشخصيات الجامعة التي ترتبط بالوطن تعيش في وجدانه.. فإذا كان الوطن مصر - التي في حاجة ماسة لفجر ثان للضمير - العريقة الخالدة والمتجددة فإن الأبطال والمواهب المعطاءة لا يموتون بل أحياء عند ربهم يرزقون.. وعلامات في حياة وطنهم يصنعون التاريخ ويخلدهم التاريخ ارتباطًا بهم، واستمدادًا منهم.. وإبحارًا فيهم وإعزازًا لهم وذكرًا يضوع، ولا يضيع.

---

(١) مجلة الشباب، العدد ١٨٣. ومجلة صوت الشرقية، العدد ٤١١، أكتوبر ١٩٩٨م، أحمد علي عطية الله: صائد الدبابات، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٩٧م، ص٢٠٧.

• حاتم الطائي من الشرقية!!

(ك) أما الكرم فهو أخو الشجاعة، رضعا معا لبن الفضيلة وترفعًا عن صفات الرذيلة وتطلعًا إلى النبل وضمنا لأهلها السؤدد والشرف الرفيع. فالكرم كان وسيلة أبناء الشرقية للحفاوة بالوفود العربية خاصة وأنه قد ورد في معاهدة الصلح غداة فتح مصر عددًا من الشروط كان من بينها ما نصه: «على أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ومَن نزل عليهم ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم..»[1].

وكانوا من أشرف بيوتات العرب والذين رأوا في الشرقية بيئة جيدة لارتباع خيولهم وإبلهم في فصل الربيع وذلك لما كانت تتمتع به الشرقية من الخصب والمراعي الجيدة والمساحات الشاسعة إلى جانب متاخمتها من الشرق للصحراء حيث كان يتهيأ للعرب الصيد وتأديب خيولهم وتدريبها مع الإقامة في جو قريب من جو البادية التي ما يزال الحنين الشديد يجذب قلوبهم إليها[2].

وفشو الكرم في الشرقية حبب إلى العرب مصاهرتهم ومجاورتهم مثل قبيلة «طيئ» التي صارت مضرب الأمثال الشعبية في الكرم وخاصة حاتم الطائي الذي صار الكرم مرتبطًا باسمه فقيل الكرم الحاتمي. وقد استقرت قبيلة طيئ في أطراف الشرقية وعلى حدودها وعلى طول الحافة الرملية في شمال سيناء وفي دمياط وما حولها وفي ناحية بني شبل (مركز الزقازيق) ومنزل حيان (مركز ههيا) والمعينة (الهجارسة - مركز كفر صقر شرقية)[3].

فضلًا عما كان لقبيلة جذام أقطاعات في الشرقية منها هربيط وتل بسطة ونوب وغيرها، ولهذا السبب على ما يبدو اشتهرت العديد من مناطق الشرقية

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٧٠، ١٥٢.

(٢) أحمد شحاته: الحوف الشرقي، ص١٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢٣.

التي استقرت فيها بطون قبيلة جذام بالكرم الشديد من تلك المناطق بلدتي الجواشنة (مركز ههيا) والجواشنة (مركز السنبلاوين) نسبة إلى بطن الجواشنة وهم بنو جوش بن منظور بن بعجة المضروب به المثل في الكرم والشجاعة[1].

ولدينا أسر كثيرة هوت إلى هوة الفقر في الشرقية من جراء ذلك ولكن بيوتها المجيدة لا تزال تنطق بالفخار لتلك الأسر العريقة في الكرم والوفاء حيث آثروا غيرهم بالثراء الذي حققوه حيث نشب الغلاء وحدث الجدب والقحط في مصر أيام الشدة المستنصرية فهب (طريف بن مكنون) أحد أبناء قبيلة جذام بالشرقية يمد الموائد في مضيفته لتتسع لاثني عشر ألفًا يأكلون عنده كل يوم حتى اضطر إلى أن يهشم الثريد في المراكب وتحمل اللحم والثريد عبر الخلجان والترع لتسد حاجة الجوع ولم يتوقف الكرم النابع من الشرقية عند هذا الحد بل إن مهنا بن علوان وهو من بني بعجة الذين استقروا بالشرقية حين طرقه الضيوف في فصل الشتاء ولم يجد حطبًا يوقده ليدفئ ضيوفه ويصنع لهم الطعام فاستخدم أحمال من أعواد القمح بمحصولها (بثمارها) فجعلها وقودًا محتذيا في ذلك بما فعله حاتم الطائي حين نزل به ضيوف ولم يجد ما يسد رمقهم به سوى حصانه الوحيد فذبحه لهم واستحق بذلك أن يعد مثلًا للكرماء والكرم الحاتمي[2].

- **الشراقوة عزموا الوابور!!**

وقد أفضي الكرم الشرقاوي بأهل إكياد (مركز فاقوس الشرقية) عندما أنشئت سكة الحديد ومر أول قطار من فاقوس إلى الصالحية عام ١٨٦٣م. أن

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جا، ص٣٣٢، وانظر: أحمد شحاته: مرجع سابق.

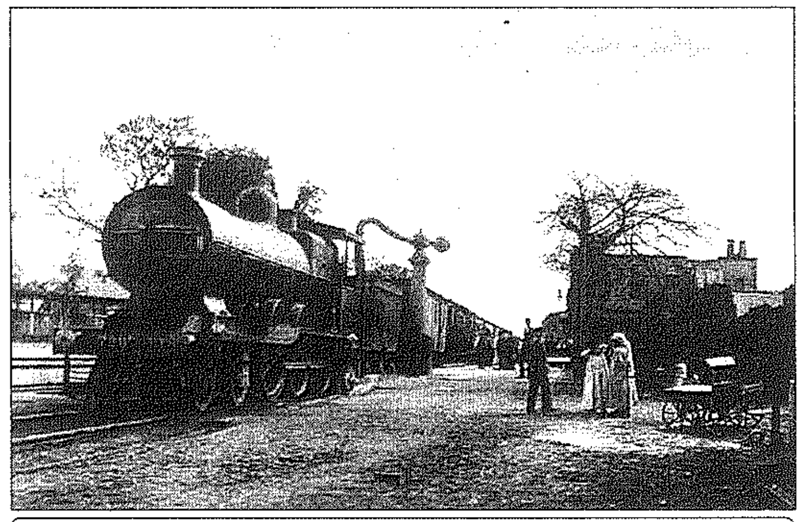
(٢) عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور، دار الإسلام للنشر، المنصورة، ٢٠٠٤م، ص١٦٦.

دعوا موظفي القطار وركابه لحفل أقاموه على قضبان الطريق رجاء أن ينزلوا على إرادتهم في ضيافة كريمة ولكن سائق القطار كان إنجليزيًّا فلم يحفل بدعوتهم ولم يأبه لكرمهم ودهم طعامهم وضرب المثل بهم في ذلك الحين «**بأن الشرقية عزمت الوابور**»[1].

ولا يزال يتداول الناس تلك الواقعة من حين إلى آخر بطرق عديدة تبعًا لرؤيتهم الوجدانية للحدث لنجد أن الرواية الشعبية والرواية التاريخية تسيران في خطين متوازيين في محاولة لإيجاد مبرر شعبي عن سبب قيام أجدادهم بدعوة القطار فذهبوا إلى أن القطار حدث به عطل في رمضان وقت إطلاق مدفع الإفطار فخرج أبناء الشرقية بما لديهم من طعام لإطعام الركاب وما هذه القصة إلا نتاجًا للخيال الشعبي للعامة من أبناء الشرقية. فأرض الشرقية.. أرض الكرم النابع من أصالة أهلها.. أهلها الذين عزموا القطار، إذ نجد في رواية شعبية أخرى تؤكد أن تلك الحادثة ليست طرفة من طرف التراث، لكنها حقيقة حدثت للقطار الذي كان يحمل ركابا من جنسيات مختلفة (مصريون وعرب شوام وأتراك وأجانب) عندما تعطل أمام قرية إكياد في يوم رمضاني، كانت الشرقية آنذاك محطة لعبور قوافل التجارة عبر سيناء، وكان القطار لا يعوقه عائق في طريقه للشام نحو تركيا، تعطل القطار وأذن المؤذن، وخرجت القرية عن بكرة أبيها بكل طعامها لركاب القطار ليفطروا معهم، كان منظرًا فريدًا تغني به صحفي إنجليزي وهو يصف المشهد بإحدى كبريات الصحف الإنجليزية، وكيف غضبت امرأة رقيقة الحال منه وشعرت بالإهانة عندما أراد أن يقدم لها ثمنًا للطعام، وشاعت حكاية العزومة داخل مصر وخارجها، فيرسل الملك مندوبًا يشكر أهل القرية، ويمنح الباب العالي في تركيا عمدة إكياد رتبة الباشوية تقديرًا وعرفانًا لأهالي القرية الطيبين. .يقول الموروث الشعبي أن العزومة صارت مضربًا للمثل بالشام، فيقال (أكرم من شرقاوي).

---

(١) مجلة مدرسة الزقازيق سنة ١٩٣٩، مرجع سابق، ص١٥٥.



القطار في محطة الزقازيق 1904م .. كان يتم تزويد القطارات بالمياه عن طريق ما يسمى بالغراب .. وهو عبارة عن ماسورة حديدية متصلة بالصهريج بمواسير .. ويتدلى من الغراب خرطوم لتوصيل المياه للقطارات

• قطار الشراقوة.. حشاش!!

وأهل الشرقية قوم يمتزج دمهم امتزاجًا شديدًا بالدم العربي .. كرماء إلى حد كبير .. وقد تداولت قصة عزومة القطار بأشكال متنوعة لعل أطرفها: «إنهم دعوا القطار يومًا إلى وليمة وضعوا فيها الأواني على السكة الحديدية فكان طبيعيًّا أن يحطمها القطار فتشاوروا في الأمر ظانين أن القطار غاضب منهم حتى أخرجهم واحد منهم من حيرتهم بأن القطار لا يأكل وإنما يدخن فأحضروا له التبغ بكميات وفيرة وانتظروا على المحطة وقدموا هداياهم إلى السائق بطبيعة الحال، وكان السائق ذكيًا ماكرًا أراد أن يفوز بتلك الكميات الوفيرة. فرمى أمام أعينهم بسلة من تلك السلال التي ملئت تبغًا إلى موقد القطار ثم ضغط على مفتاح خاص لإخراج البخار فخرج البخار كثيفًا حتى قال واحد من الداعين

«ياه..! داتكته ثُمن» وذلك بمعنىٰ «بالله..! إن نفاثة القطار تستنفد ثُمنْ أقة من التبغ»، والثُمنْ كمية كبيرة قد تملأ سلة صغيرة فعلًا[1].

ولذلك كان بعض هؤلاء الذين يقيمون الولائم لكل ضيف أو غريب ويصدقون كل ما يقال لهم مستبعدين الكذب علىٰ الناس مثار فكاهات لطيفة تروىٰ في شيء كثير من المبالغة.

- **فلاحة عزمت جيش الخليفة!!**

وظلت صفة الكرم لصيقة بالمجتمع الشرقاوي بدرجة أو أخرىٰ حتىٰ اشتهر أبناء الشرقية أنهم ليفون لأصدقائهم بواجب الولاء ويقومون بضمانهم ولو أدىٰ ذلك إلىٰ انتزاع أموالهم وفقد ضياعهم وأملاكهم، ولنا في ماريا القبطية صاحبة قرية (طاء النمل) وهي قرية (كانت من أعمال الشرقية) صغيرة لم يعرها الخليفة العباسي المأمون اهتمامه أثناء مرور بالشرقية علىٰ خلفية - الثورة الشعبية الكبرىٰ (٢١٦-٢١٧هـ) فخرجت الفلاحة المصرية تستغيث بالخليفة حتىٰ ينزل هو ورفاقه ضيفا عليها حتىٰ لا يعيرها أبناء جلدتها بعدم نزوله في ضيافتها وحين لبي الخليفة دعوتها جاء ولدها إلىٰ صاحب المطبخ وسأله: كم تحتاج من الغنم والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته.

فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيىٰ بن أكثم والقاضي أحمد بن داود فأحضرت لكل منهم ولا من القواد إلىٰ غيره ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئًا كثيرًا حتىٰ إنه استعظم ذلك وأكبره - علىٰ حد وصف المؤرخ المقريزي له - قدمت لهم نموذجًا من كرم أهل الشرقية لخليفة المسلمين ورفاقه فما كان جزاء

(١) انظر عبد الخالق العلمي: مجلة منطقة الزقازيق التعليمية، ١٩٤٩م، ص١٣٢.

الإحسان إلا إحسانًا والكرم إلا كرمًا أعظم فوهبها الخليفة من أراضي قريتها مائة فدان بغير خراج واقطعها عدة ضياع.

وحسبنا الرحالة الهندي (النعماني) حين يشيد بهذا الكرم معلقًا على ما لاقاه من كرم وحفاوة قائلًا: «إن هذا كان يحدث بلا غرض وبدون مقابل فقط من أجل الضيافة وإكرام الفقراء ومن المستحيل ذكر جميع تلك الأحداث الجزئية التي تدل على كرم أخلاق هؤلاء الناس معي»[1]. فأهل الشرقية معروفون بالكرم يبتون على الطوي ويكرمون الضيف ويحسنون إلى الغريب لا يفطرون في رمضان إلا أمام منازلهم، لعل عابر سبيل يأوي إليهم، أو جائعا يمر بهم، وفي الشرقية يعيش الضعيف في كنف القوي، والفقير في رحاب الغني. وفي المآتم حيث يكثر الغرباء يخرج أهل القرية جميعًا إلى مكان المأتم ظهرًا ومغربًا في انتظار موائدهم وعليها من ألوان الطعام ما أفرغوا في أعداده غاية الجهد، وحول هذه الموائد يلتف الغرباء من المعزين.

- **كرم الشراقوة بالصوت والصورة!!**

ولذوي المال من سكان إقليم الشرقية قصص تروى في الكرم العربي والعنجهية العربية بما فيها من فضائل كثيرة وإن كانت لا تخلو من الإسراف الذي يقلب طبيعة الأشياء أحيانًا. وقد صبغ الكرم قديمًا أفراح أبناء الشرقية من العرب بصبغته فجعل أفراحهم تخالف أفراح الكثير من أهل المدن وذلك أنه كان قبل يوم العرس بنحو الشهر يحتشد كل مساء شبان البلدة والبلاد المجاورة ويقفون على شكل نصف دائرة ويصفقون مع مد أيديهم إلى الأمام وجذبها إلى الخلف

---

(١) المقريزي: الخطط، جا، ص٨١. انظر: أحمد شحاته، مرجع سابق، ص١٥٦، ٤٢٤. وانظر: هويدا عبد العظيم رمضان: المجتمع في مصر الإسلامية، الجزء الثاني، طبعة مكتبة الأسرة، ص٨٠، ٨١. وانظر: شلبي النعماني: رحالة في بلاد الشرق العربي، ترجمة: جلال الحفناوي، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ٤٣٧، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٢٢٠.

بنظام واحد ويرتلون بعض الألفاظ بنغمة واحدة ويسمىٰ هذا العمل «دق الكف» وترقص أمامهم امرأة محجبة أو بنت محجبة كذلك لا يظهر منها شيء حتىٰ وجهها وتلبس حزامًا وتمسك في يدها عصا أو سيفًا وتسير أمامهم وهي تحجل وترقص بهز جسمها متنقلة من طرف نصف الدائرة الأيمن إلىٰ طرفها الأيسر ويطلق عليها «الحجالة» أو «البيه» وكل ربع ساعة تقريبًا يقف التصفيق والرقص ويبدأ أحدهم بإلقاء ثلث أغنية مترنمًا ورافعًا صوته ثم يستمر التصفيق وأخيرًا يغني الثلث الأخير ويعيد معه الثلثين السابقين وعند الانتهاء منها يهلل الجميع وتطلق طلقات نارية كثيرة. وهذه الأغاني ذات معان مختلفة فمنها ما يكون دائرًا حول الغرام أو النجوىٰ أو الشجاعة ومنها ما يكون دائرًا حول مدح «الحجالة» ولكل أغنية أسلوب خاص يتغنون به أثناء تصفيقهم. والويل لمن اقترب من «الحجالة» فسرعان ما تضربه علىٰ يده بالعصىٰ أو السيف.

وإذا جاء يوم العرس أعد هودج علىٰ جمل تركب فيه العروس ومعها بنتان أو ثلاث من أقرب قريباتها ويسير خلف هذا الجمل جمال تكثر أو تقل علىٰ حسب يسار أهل العروسين. وعلىٰ كل جمل أربع أو ست نساء يغنين في أثناء سير الموكب نحو بيت العريس. ويتباري الفرسان في إظهار مهارتهم أمام الموكب وكل فارس يأتي أمام جمل العروس ويرسل طلقات نارية كما يسير حول الموكب شبان ومعهم بنادقهم يطلقون منها طلقات نارية من حين لآخر. وعندما يصل الموكب إلىٰ منزل العريس تناخ الجمال وينزل من عليها ويحمل العروس أقرب الناس إليها كأخيها أو خالها ومن عادات الكرم المغالىٰ فيه أنه إذا مر موكب عرس علىٰ بلد فيها عرب الشرقية هب أهل البلد لدعوة الموكب ورفعوا رأس الذبيحة علىٰ هراوة طويلة (نبوت) فإن كانوا لا يضمرون شرًّا اكتفوا بتقديم الدعوة وتلقي الشكر وسار الموكب في سبيله وإن كانوا يضمرون شرًّا قدموا الدعوة وأصروا علىٰ قبولها وأصر أهل الفرح علىٰ رفضها لأنهم يرون في ذلك أكبر عار لأنهم هم

الأحق بدعوة الناس إلىٰ الوليمة فتنشب بين الفريقين معركة ويعتبرون الشرف في انتصارهم ورفض الدعوة، ولذا كان يختار جمل العروس من أشد الجمال وعند نشوب المعركة ينزع مقوده لكيلا يستطيع أحد الاقتراب منه إلا صاحبه[1].

- **خليل عفيفي.. شرقاوي في ألمانيا!!**

وعلىٰ كل حال فنحن نرىٰ الآن أن تيار المدينة قد جرف كثيرًا من عادات عرب الشرقية وتقاليدهم فاندمجوا في المصريين،كما يوجد الكثير من عامة الناس في مصر أصلهم من شبه الجزيرة العربية، ولكنهم لم يهتموا بإثبات جذورهم فضاعت وأصبحوا معتبرين كبقية المصريين وامتزجوا معهم وشكلوا سبيكة حضارية واحدة وربطت بينهم عوامل صنعها الله ودعمتها إرادة القدر ولم تفتعلها تصاريف الإنسان أو نقائص البشر.

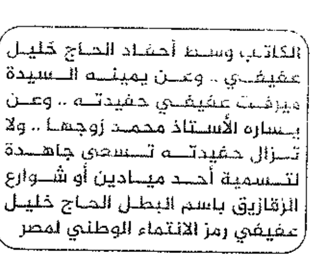
لذلك يصح القول: إن عوائد الكرم وطبائعه الشعبية التي وضحت معالمها في سكان الشرقية وأقرانهم من أقاليم مصر الأخرىٰ قد ارتبطت بجذورها العربية والوطنية في آن واحد حين انصهر العنصران علىٰ جنبات نهر النيل المعطاء لتنسج وشائج تعكس درجات عالية من السمو الإنساني الذي يتجه إلىٰ الآخر إما فداء له أو وصلًا ومحبةً وإكرامًا وحنوًا عليه وكلها وشائج ترتفع بالسلوك الإنساني وتجعل لوجوده وحياته معنىٰ وقيمة مضافة إلىٰ مجتمعه ناهيك عن أنها تخرجه من منظومة الأنانية والبخل والجشع والتي تطرد تلقائيا كل معاني «القناعة» ولا تدع مجالًا لمفهوم الكرم والإيثار الذي سيبدو بالنسبة لكثيرين أمرًا غير قابل للتصديق.

ومن كان يصدق أن رفات الزعيم المصري (محمد فريد) لم يتم استردادها إلىٰ مصر سوىٰ بأيدي رجل شرقاوي كريم هو «الحاج خليل عفيفي» التاجر بالزقازيق..

---

(١) مجلة مدرسة الزقازيق، مرجع سابق، ص١٠٠، ١٠١، وصفحات متنوعة.

الأمر الذي دفع بأحد تلاميذ مدرسة الحزب الوطني الذي أسسه الشاب والزعيم (مصطفى كامل) ، وهو المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بأن يدهش من أن يقوم بهذا الواجب عن الأمة بأسرها فرد ليس من الزعماء، ولا من الرؤساء والكبراء، وتساءل كيف لم يتسابق هؤلاء إلى القيام بهذا العمل؟؟ وهم أجدر به من سواهم ولكن شاء القدر أن يكون الشرقاوي (الحاج خليل عفيفي) هو الذي يضطلع بهذه المهمة السامية الجليلة فيسافر إلى ألمانيا ويتولى بنفسه وعلى نفقته الخاصة نقل الرفات الطاهر إلى مصر(١).



الكاتب وسط أحفاد الحاج خليل عفيفي .. وعن يمينه السيدة ميرفت عفيفي حفيدته .. وعن يساره الأستاذ محمد زوجها .. ولا تزال حفيدته تسعى جاهدة لتسمية أحد ميادين أو شوارع الزقازيق باسم البطل الحاج خليل عفيفي رمز الانتماء الوطني لمصر

وجد الحاج خليل عفيفي أن الأمراء والزعماء وأعضاء الحزب الوطني لم يفكروا في تنفيذ أمنية الزعيم محمد فريد كي يدفن في تراب مصر وتساءل كيف يليق بالأمة أن تترك زعيمها البار بها بعيدًا عن أحضان أمه الرؤوم مصر بعد أن جاهد بماله وحياته فداءً وحبًا لمصر وتراب مصر، فباع كل ما يملك واستطاع أن يجمع ٥٠٠٠ جنيه وسافر إلى ألمانيا سنه ١٩١٩م، حينما وصل ألمانيا أصيب بالتهاب رئوي لمدة ٣ شهور وعلم الزعيم سعد زغلول بمرض الحاج خليل عفيفي وكان في ذلك الوقت بإنجلترا فأرسل له طبيبه الخاص (حامد محمود) ليشرف على علاجه

(١) عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد، رمز الإخلاص والتضحية، ط٤، دار المعارف، ١٩٨٤، ص٤١٩.
وانظر: الطحاوي سعود: الخيول العربية في أعين عرب الطحاوية، مجلة الفنون الشعبية، العددان ٦٦، ٦٧، القاهرة، ٢٠٠٤م.

واستطاع الحاج خليل عفيفي الحصول علي إذن من الحكومة الإنجليزية لنقل جثمان محمد فريد إلى مصر ورفضت ألمانيا فكرة نقل الجثمان لأن القوانين الألمانية كانت تمنع نقل الجثث خارج ألمانيا، فجأة مات ضابط فرنسي في ألمانيا وطلبت فرنسا من ألمانيا بصفة استثنائية نقله إلى فرنسا ووافقت الحكومة الألمانية.



هذا الرجل
نقل جثمان
محمد فريد
من برلين
إلى القاهرة

اغتنم الحاج خليل عفيفي تلك الفرصة وطالب بنفس الاستثناء، وانتقل الجثمان في موكب مهيب في يوم ممطر إلىٰ القطار وشارك في الجنازة أعداد كبيرة من الطلاب المصريين والعرب بألمانيا، ووضع الحاج خليل صندوق جثمان محمد فريد في غرفته بالسفينة ونام بجواره باعتباره كنزًا وطنيًا.

وفي مصر استقبلت الأمة كلها جثمان محمد فريد في جنازة مهيبة جدا في الإسكندرية وأخرىٰ في القاهرة، كان الحاج خليل عفيفي موضع تقدير من الجميع، قام الأمير عمر طوسون رئيس لجنة استقبال الجثمان وأهداه خاتمه الخاص ولا تزال أسرته تحتفظ بهذا الخاتم كذكري لبطولة وشهامة جدهم الحاج خليل عفيفي. ودفن الزعيم محمد فريد في مقبرة بجوار السيدة نفيسة وتم نقل الجثمان مرة أخرىٰ سنة ١٩٥٣م لكي يدفن بجوار الزعيم مصطفىٰ كامل وكان مغيب الحاج خليل عفيفي سنة ١٩٢٣ بجسده ولكنه ظل حيًا في قلب ووجدان مصر.

ولعلنا نجد في هذا الموقف أنه قد اختلطت قيم المروءة والشهامة والكرم والنبل والإيثار ورد الجميل وهي قيم تدخل في أولويات ما اصطلحنا علىٰ تسميته بهموم العمل الوطني وقيمه التي أنتجتها ثقافتنا الإسلامية العربية وظلت لصيقة بمجتمعنا بدرجة أو أخرىٰ إلىٰ أن لاحقها التفسخ والتشويه والتغريب مما أدىٰ إلىٰ تراجعها وتآكلها ومن أسف أن ذلك تم لحساب قائمة أخرىٰ من القيم المادية التي تحولت بمضي الوقت إلىٰ قيم مركزية في مجتمعنا.

- **عودة الروح..من المنفى الأخير!!**

فهل آن الأوان أن يعود (عبد الله النديم) إلىٰ حضن الوطن الذي أعطاه النديم كل قطرة من دمه وكل لمسة من عبقريته؟ ألم يحن الوقت لكي نسترجع رفات رجل دافع عن الاستقلال السياسي والاقتصادي للوطن أمام التدخل الأجنبي والاحتلال العالمي ممثلًا في إنجلترا بالتحالف مع قوىٰ أخرىٰ. وظهر في

أثناء ذلك وميض النهضة العرابية فوافقت هوىٰ في نفس عبد الله النديم فضمه جماعة عرابي إلىٰ زمرتهم وشدوا أزرهم به. ألم يحن الوقت لرجل عرف قيمة العلم والتقدم وأهمية الكلمة والحرية والفن وأعطىٰ كل هذا لمصر أن يعود من الأستانة (بتركيا) منفاه ... الأمل معقود لاسترداد رفاته الطاهر إلىٰ الوطن الأم ... (عبد الله النديم) خطيب الثورة العرابية الذي حرك أفئدة وقلوب المصريين جميعًا حبًّا وحماسًا لوطنهم مصر (الحب الذي نسيناه).

عبد الله النديم الذي يمثل الشخصية المصرية الوطنية من جميع جوانبها هذا العبقري الذي حارب في معارك عرابي ضد الإنجليز وضد الخديو وضد الخونة من المصريين والذي أخذت أكبر إمبراطورية في ذلك الوقت تبحث عنه في كل مكان، فبعد هزيمة الثورة ينجح النديم في الاختفاء ويجن جنون جنود الاحتلال وعسس الخديوي، فيقلبون الأرض بحثًا عنه ويرصدون مكافأة ضخمة لمن يدل عليه (١٠٠٠ جنيه)، ولكن النديم كان مثقفًا وثائرًا شعبيًّا، فإن الشعب كان يحميه ويتعالىٰ علىٰ المكافآت، ويقدم له الشعب المأوي والطعام والحماية لمدة تسع سنوات كاملة، وكأن الجماهير تريد أن تقول له أن المثقف الذي يضع ثقافته في خدمة الشعب، فإن الشعب يفهم هذا، الجماهير التي ربما باتت بغير عشاء أو حتىٰ لم تر الجنيه في حياتها ترفض إغراء الألف جنيه وتتعالىٰ عليه، بل وتعرض نفسها للخطر من أجل حماية النديم، أليس مطلوبًا من جنود الاحتلال، ومن عسس الخديوي؟

- **الثائر الهارب**

أحب النديم الشعب فأحبه الشعب، وحماه بنور العين حتىٰ أن الكثيرين ممن التقوا بالنديم في تلك الفترة وعرفوه ترفعوا عن الصغائر، ولم يبلغوا عنه، بل ساعدوه علىٰ قدر الإمكان، بل أكثر من هذا كان بعض المسئولين في جهاز البوليس يتسترون علىٰ النديم إيمانًا بالوطن والحرية وحبًا في النديم كإنسان

أيضًا، فمأمور مركز السنطة يقابل النديم وجهًا لوجه ولا يقبض عليه مخاطرًا بوظيفته كمأمور، بل ويمنحه مالا من جيبه ليساعده في هروبه، وكاتب مركز السنطة أيضًا - وكان النديم مختفيًا في قرية الجميزة مركز السنطة - يعرف أين يوجد النديم فيكتب إليه أبياتًا من الشعر تقول:

ولقد نذرت إذا لقيتك سالما لأقـبلن مـواطئ الأقـدام

ولأثنين علىٰ سجاياك الـتي حثت علىٰ التحرير والإقدام

وهذه الأبيات توضح إلىٰ أي مدىٰ كانت الجماهير تحب النديم، ولعل تجربة التسع سنوات التي نجح الشعب فيها في إخفاء النديم عن عيون السلطة الاستعمارية والخديوي توضح إلىٰ أي مدىٰ كم هي عظيمة إمكانيات هذا الشعب، وإلىٰ أي مدىٰ كان هذا الشعب مستعدًا لتقديم كل شيء من أجل ابنه الفذ عبد الله النديم.

عبد الله النديم علم من أعلام الحرية وواحد من رجال مصر عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهذه الفترة من الزمن كانت عصيبة في حياة الشعب المصري، كثرت فيها الأحداث متسارعة ومتشابكة، فقد أجهز الإنكليز علىٰ ثورة الفلاحين بعد أن كان المصريون قد مهدوا لها بنهضة تناولت مختلف جوانب الحياة المادية والثقافية والاجتماعية. وبتواطؤ مع السلطان والخديوي والإقطاعيين فشلت الثورة العرابية واحتل الإنجليز مصر.

وعبد الله النديم عايش الأحداث وانخرط فيها وكان لصيقًا بتياراتها السياسية بل وفي الوهج منها اقترب من دائرة الخطر وازداد فيها احتراقًا واشتعالًا وفي كل ذلك كان ينتضي قلمه سيفًا علىٰ أعداء شعبه، فقد أحب مصر وانغمس في ترابها وساح في دروبها وعرفها كما يعرف المرء كف يده، وقرأ الألم في عيون أبنائها وغناها زجلًا شعبيًّا عبر عن هم المصري وكربه وبلواه.. ومن أجل تقدمها حارب

الجهل والتخلف وجهًا لوجه وكان صرخة رفض واحتجاج تمزق العذاب الذي نزل بأبنائها الفلاحين وعن كرامتهم دافع وعن حريتهم ناجز المستعمرين، وأمد شعبه بالعزم والحياة وقدح زناد الأمل في نفوس الفقراء وأضاء دروبهم المتربة وأكواخهم الطينية بوافر من الإيمان بحقهم في حياة نيابية ودستورية.

كان مثقفًا شعبيًّا نظيفًا صادقًا وشاهد عصر على مظالم إسماعيل وابنه توفيق، شيّد مع الفلاحين ثورتهم الوطنية ورأي فيها مشروعًا يفضي إلى مستقبل تسوده العدالة الاجتماعية لذلك أيدها وانخرط في صفوفها خطيبًا سياسيًّا نال الصدارة بين قادتها ثم جنديًّا محاربًا نافح بكلتا يديه عنها، وعندما انهار هذا المشروع لم يعتذر أو يندم على تأييده له واشتراكه فيه كما ندم الآخرون واعتذروا، بل طوي علم الثورة وإلى الريف فرّو فيه اعتصم، وذاب بين أبنائه كما يذوب النهار على مذبح الشفق.. وبهذين الموقفين: الاحتفاظ بعلم الثورة والثقة بشعب مصر تفرد عن غيره من العرابيين.

- **أبو المسامير من الشرقية!!**

عبد الله النديم الذي ولد بقرية الطيبة بمحافظة الشرقية سنة ١٨٤٥م وتم نفيه إلى الأستانة ١٨٩٣م وتم منعه من الكتابة ولكنه اصطدم بأحد أفراد حاشية السلطان عبد الحميد ويسمى (أبا الهدى الصيادي) مستشار السلطان وكان يسميه (أبا الضلال) وكتب فيه كتاب (المسامير)، أظهر الشيطان شخصية مهزومة أمام أبو الضلال في مقدمه و٩ مسامير فكان كتابه أحد نفائس فن الهجاء في التاريخ العربي ... وفي إقامته الإجبارية بتركيا تعطّلت مواهبه وتوقفت، وسكت فجأة عما كان يطالب به الأدباتي الزجّال الغريد والمعارض، ووجد في الأفغاني عزاء له وسلوةً وفي الأمسيات كان الأستاذ والتلميذ يلتقيان تحت

أشجار الحدائق التي خصصها عبد الحميد لهما، يتذكران أيام النضال وأحداث الثورة العرابية، ويطوفان على سيرة الرفاق في سيلان الذين قدم عهد المنفى بهم ويستعرضان دوحة الشباب وما كان فيها من وارف الأغصان، وعن طريق الأستاذ تعرف على وزراء وأعيان... لكن النديم لم ينس مصر، وعندما زار الخديوي عباس الثاني الأستانة طلب منه العودة إليها فأجيب طلبه سنة ١٨٩٥[1]، وفعلًا قفز إلى الباخرة يغمر قلبه الحنين إلى وطنه، ولكن جواسيس عبد الحميد أبرقوا على الفور إليه، فأوقفت الباخرة وانتزع النديم منها وسيق إلى المنفى الذهبي من جديد... بعد أشهر مرض النديم وتراجعت صحته، ونهش السل الرئوي صدره وأحس بدنو أجله، فأخبر أمه وأخاه في مصر واستقدمهما، ولكن الموت جذبه إليه قبل أن يصلا، فتوفي وحيدًا غريبًا عام ١٨٩٦ دون أن يترك زوجًا أو ولدًا أو حطامًا، وكل ما تركه سيرة عطرة وحياة حافلة.

هذا الرجل العظيم مات خارج الوطن ومقبرته معروفة ومحددة أما آن الأوان أن يعود النديم إلى حضن الوطن الذي أعطاه النديم كل قطرة من دمه وكل لمسة من عبقريته، ألم يحن الوقت لرجل عرف قيمة العلم والتقدم وأهمية الكلمة والحرية والفن وأعطي كل هذا لمصر أن يعود؟

أنا لا أطالب الدولة بذلك وإنما أطالب جموع المصريين وجمعياتهم الأهلية بأخذ موقف فعال وجمع مبلغ من المال لا أظنه سيكون كبيرًا والبدء في خطوات عملية تعبر عن مطلب شعبي لنقل رفات هذا المصري العظيم إلى وطنه ليعاد دفنه بين من أحبهم وعاش من أجلهم حقًا .. كل الرجال يموتون ولكن ليس كل الرجال يعيشون كما عاش هؤلاء الأبطال.

---

(١) نزيه حمزة: عبد الله النديم سيرة عطرة وحياة حافلة (اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٠م)، صفحات متنوعة بتصرف.

• شرقاوي .. كريم .. عفيف!

(ع) وقد حالف عفاف وصدق الشرقية الزمان حتىٰ ضرب بأهلها المثل فيه وليس أدل علىٰ ذلك من تلك القصة الشعبية التي يرددها العامة في الشرقية من أنه قد شاهد أحد أمراء الوجه القبلي ابنة أمير بوباستس (صان الحجر) في حفل فطلبها لنفسه وعرض عليها أموالًا وافرة. فردتها قائلة للرسول: «اذهب فلست بغيا أُسام بالمال ولن ينال ودي مادمت حية»[1].

والتزم أهل الشرقية الصدق فدعاهم ذلك إلىٰ الصراحة فبرءوا من الغش والنفاق والمداهنة، وذهب عنهم الرياء وخلف الوعد والخيانة لأن هذه الرذائل وليدة الكذب وقد أشار الفنان الشعبي بالشرقية إلىٰ مثل هذا المعنىٰ قائلًا:

يا دنيا إيه السبب كدا ماشيه بالمألوب(بالمقلوب)
بئه(بقه) آيل(قائل) الحأ(الحق) ليه في مجلسو(مجلسه) معيوب
واللي ينافئ(ينافق) الناس يبئه(يصبح) عندهم محبوب
والحر اللي بيمشي شريف ع الدوام مسبوب
حته(حتىٰ) الفصيح انخرس وتاه مع الأسلوب
أما الغني لو غبي كلامو(كلامه) ع الدوام محبوب
وإن عاب كتير في كلامو(كلامه) محدش نائض لو(ناقد له) عيوب
إيه الحكاية يا زمن ما يكنش دا المكتوب
معلش بئه(بقه) يا زمن أنا حا أصبر كما أيوب

وقد رماهم أهل الأقاليم الأخرىٰ بالبله (العبط) بل وذهبوا أبعد من ذلك بوصفهم بأنه: «شين، كاف، عين» اختصارًا لقولهم: «شرقاوي، كاورك» (نسبة

(١) مجلة مدرسة الزقازيق، مرجع سابق، ص١٥٥.

لتاجر الدخان والغاز كاورك) ليتصدىٰ لهم الوجدان الشرقاوي بتلقائية ليرد عليهم بقوله بل: «شرقاوي، كريم، عفيف» رافضًا كل محاولات تشويه صفة الكرم لديه بكل ما تحمله من معان وقيم لا تزال لصيقة به بدرجة أو أخرىٰ من التعبيرات التي لا تزال شائعة بين الشعبيين إلىٰ اليوم والتي تجري علىٰ ألسنة أولاد البلد، في الافتخار بذكائهم وفطنتهم، وأنهم ممن لا تنطلي عليهم الحيل: «إنت فاكرني كاورك؟» أو «هُوَّ أنا داقق عصافير؟».. والسبب في إطلاق هذين التعبيرين علىٰ السُذَّج، ذلك الوشم المعروف لدىٰ الناس، برسم طائر علىٰ الجبينين، من عن يمين الجبهة وشمالها، ولم يكن يتحلىٰ به سوىٰ عوام الناس وطيبي القلوب (السُذَّج) منهم.

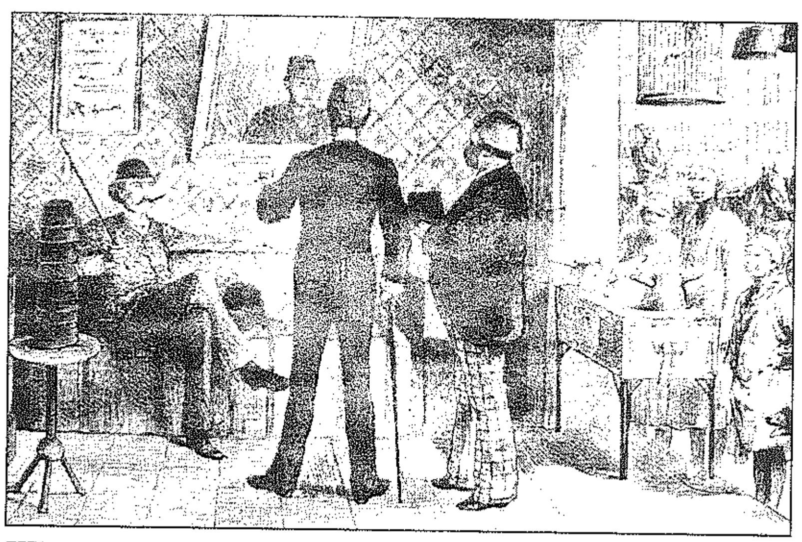
• يا ما تحت السواهي دواهي!!

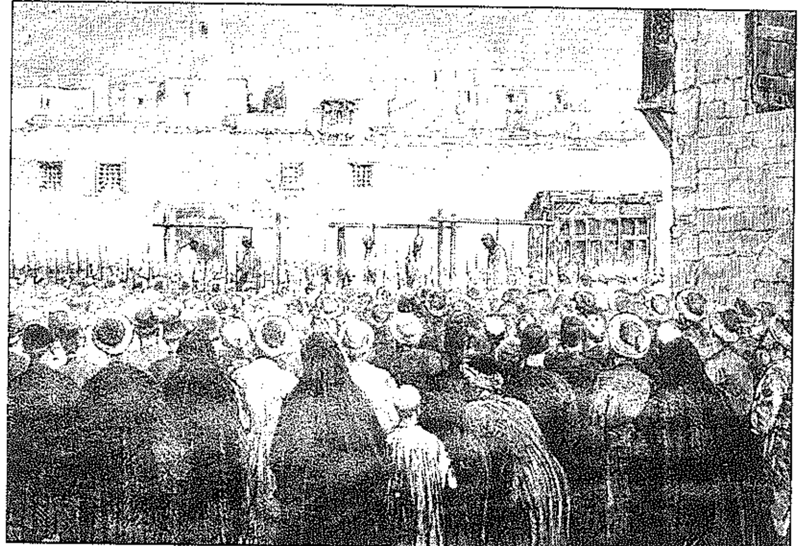
ولعل وقوفنا علىٰ تفاصيل إحدىٰ الحوادث الإجرامية التي وقعت منذ أكثر من نيف ونصف قرن من الزمان تبين لنا أن الكثير من الفلاحين في الشرقية دهاة وذوي مكر شديد حتىٰ إن جرائم القتل عندهم تقيد عادة ضد مجهول. أما الحالات التي يعرف منها القاتل أو المجرم فهي استثناء لا يؤخذ به ولا يقاس عليه؛ لأن الفاعل الممسوك باليد هو واحد من اثنين: إما متهور متسرع لا يبالي بالعواقب وذلك لا يتأتىٰ إلا في الحالات التي يفقد العقل فيها سيطرته علىٰ الأعصاب ونادرًا ما يكون ذلك في غير حالات العرض وما يتعلق به، وإما أن يكون غبيا ضيق التفكير يترك وراءه في كل خطوة دليلًا ينم عليه أو شاهدا يرشد إليه وذلك ليس من طبيعة أهل الشرقية.

وتتلخص القصة في أن النائب أخطر للقيام للتحقيق في جريمة قتل اتهم فيها أهل القتيل شخصًا معينًا بالقتل، وقد قامت الشرطة بتفتيش منزل المتهم

ولكنهم لم يعثروا على شيء يفيد التحقيق وقد حاور المتهم وكيل النيابة وداوره حتى لم يفز منه بطائل يلقي ضوءًا على ما غمض من القضية وذلك كله رغم اعتقاد وكيل النيابة وإيمانه بأن ذلك المتهم هو القاتل لا ريب ولم يجد المحقق بُدًّا من أن يقوم ويفتش منزله بنفسه وهناك في الدار لاحظ أن زوج المتهم كانت تحاول إبعاده عن مكان معين ولكنها كانت بعملها هذا أقرب ما تكون إلى من يلفت النظر إلى ذلك المكان بدلًا من أن تبعده عنه وهناك عثر المحقق في الفرن على ثوب من ثياب المتهم قد غسل حديثًا ولف على سكين ملوث بالدم ففرح المحقق بذلك الدليل فرحًا شديدًا واستجوب المتهم الذي أوحى إلى المحقق عن طريقة إنكاره ملكية الثوب والسكين بأنه هو الفاعل من غير شك، واكتفى المحقق بذلك وزج بالمتهم في السجن حتى تصل نتيجة التحليل من الطب الشرعي لبقع الدم التي وجدت على الثوب والسكين، وكم كانت دهشة المحقق حينما وصلت النتيجة بعد أكثر من أسبوع تقول أن الدم دم دجاجة مذبوحة وبذلك استطاع المتهم بالتعاون مع زوجته أن يبعد أنظار المحققين عن مكان معين قد خبأ فيه دليل ارتكابه الجريمة بأن ألهاهم بتلك الخدعة التي تدل على المكر الشديد حتى يبعدوا عنه فرحين بما عثروا عليه ليستطيع هو أو زوجته - إن سجن هو - إخفاء معالم الجريمة كلها فلا يتبقى أساس واحد يمكن أن يقام عليه الاتهام بعد مضي أكثر من أسبوع، ولقد كان ذلك ما حدث بالضبط إذ ما كادت نتيجة التحليل تصل على هذا الشكل إلى المحقق حتى أفرج عنه المتهم فورًا حيث لا وجه لإقامة الدعوى[1].

(١) انظر مجلة منطقة الزقازيق التعليمية ١٩٤٩م، ص١٣٠.





شنق خمسة من بدو الشرقية بالزقازيق لقتلهم بروفيسور بالمير وكابتن جيل
والملازم كرانجتون - فبراير عام ١٨٨٣م - اللوحة بتوقيع الفنان هاريسون.

THE MURDER OF PROFESSOR PALMER

In connection with the crime of the five Arab miscreants and their fellows executed at Zagazig for the murder of Professor Palmer and his companions, a Blue Book has just been issued. It details the circumstances under which the party were treacherously surprised and massacred, and the steps subsequently taken, under Colonel Warren, to discover

شنق خمسة من بدو الشرقية بالزقازيق لقتلهم بروفيسور بالمير وكابتن جيل والملازم كرانجتون فبراير عام ١٨٨٣م.
الخبر من الصحف الإنجليزية

- **بلبيس واللي جري فيها!!**

وبرغم الكرم الشرقاوي الشهير، فقد كان لبعض القبائل العربية التي مرت ببلبيس وسكن بعضها هذه المدينة رأي آخر تركوه لنا من خلاله بعض الأمثلة التي مازال الناس يذكرونها لأبناء بلبيس في المناسبات المختلفة، ومنها: «فتنا علىٰ بلبيس ياما جرىٰ لينا تبيع العيش بالميزان والمش بالفنجان». وقد رأي بعض الناس أن هذا المثل دليل علىٰ بخل أهل بلبيس لأنهم لم يعطوا بني هلال أثناء مرورهم أو مكوثهم ببلبيس خبزًا بدون ميزان أي بدون تحديد الكمية وتحديد المبلغ، بينما فسرها أبناء بلبيس بقولهم إن الهلالية جاءت في وقت حروب ولم تكن هناك أوقات سلام حيث تكثر المواد الغذائية وكان لا بد من أن تحدد الكميات حتىٰ لا تنفذ هذه المواد.وربما لهذا نسمع بعض عرب الشرقية يقولون: «البلابسة أبالسة».

وعلل البعض الآخر من أهل بلبيس أن مدينتهم كانت متحضرة لكونها كانت عاصمة الشرقية وسارت علىٰ طرق التموين المنظم فوضعت التسعيرة للمواد

الغذائية فسعرت العيش والمش ولم تترك هذه المواد تباع جزافًا[1].

تصل لنا من أزمنة العهد العثماني رسائل شفهية قادمة من عمق التاريخ الشفهي للشرقية تفتح نوافذ من الماضي تصور لنا الكثير من العادات التي انقرضت من المجتمع مثل عادة الصفع، فقد ظهرت جماعة من اللصوص كانوا ينتهزون فرصة ازدحام الطرقات بالمارة يقومون بخطف العمائم لأن الناس قد اعتادوا حفظ نقودهم بداخلها، ثم يقوم هؤلاء اللصوص بصفعهم بعد خطف العمائم كنوع من التحامق، وقد أشار الوجدان الشعبي لهذه العادة فقال: «اللسان عدو القفا»، و«لو وقعت من السما صفعة ما سقطت إلا على قفاه» فلم يكن الناس راضيين عن حكم الأتراك العثمانيين فقالوا: «مصر خيرها لغيرها».

• عصافير السجائر.. طارت!!

أما كلمة «كاورك» نسبة لأشهر تاجر دخان وغاز في الزقازيق[2] الذي أنتج ماركة باسمه تطلق على نوع من السجائر ذات العلب التي كانت تتميز بطائر مرسوم على غطائها، فأصبح هذا الطائر رمزًا لهذا النوع من السجائر، كما أصبحت كلمة: «كاورك» مقترنة في أذهان الناس برسم هذا الطائر الذي يشبه طائر الوشم بشكله الفني الجذاب[3]، كما أن الكلمة مشتقة من Kevrok الأرمينية والتي تعني فلاح. ومشتقة من العثمانلي كورك/گورك Kevrek بمعنى رقيق، سهل الكسر، وكان العثمانيون يطلقونها على المجند الحديث في الجيش العثمانلي، وغالبًا كان من الفلاحين، والكلمة كانت تعد من الشتائم أو النظرة الاستعلائية المتعجرفة التي اتصف بها الأتراك على الدوام، وعلى جانب آخر كانت الزقازيق

(١) السيد محمد عاشور: بلبيس بلد الأنبياء والرسل، مكتبة الغد، ص١٣٤.

(٢) إبراهيم عبد المسيح: دليل وادي النيل ١٨٩١-١٨٩٢م، ص٢٩١.

(٣) رمضان عبد التواب: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٧م، ص١٦٦.

تعد أكثر المدن الإقليمية التي جذبت الأرمن ويرجع هذا أساسًا إلى تأسيس مصانع ميلكونيان وجامسراجان للسجائر بها وقد راجت ماركة «أبي نجمة» التي أنتجاها في الزقازيق وانتشرت في مصر والسودان، وقد نتج عن تكاثر أعداد الأرمن في الزقازيق بناء كنيسة ومقابر خاصة بهم في عام ١٨٩٨م بناحية كفر النحال[1].

- **يا أبو الريش إنشا لله تعيش!!**

وكان أهل الشرقية لفترة قريبة أشد الناس تصديقًا للمعتقدات الشعبية فالطفل إذا لم يعش إخوته من بعده اعتقدوا أن روحه شريرة وأن علاج هذه الروح لا يكون إلا بفضيحة هذا الغلام. ويعدون لهذه الفضيحة عدتها، فيجمعون من ريش الدواجن ما يصنعون به تاجا يضعونه فوق رأسه ثم يركبونه حمارة ظهره إلى وجهها ممسكًا في يده اليمني بريشة دجاجة وبيده اليسرى قرص جاف من روث البهائم. ثم يتظاهر بأنه يكتب على القرص بهذه الريشة.

كل ذلك وأطفال القرية يحيطون به ينادون بحناجرهم الفتية «يابو الريش إنشا الله تعيش»، وقد يسألوا هذا الطفل «هل أنت ناطح أم رافس»؟ يريدون «هل تنطح كما ينطح الثور؟ أو ترفس كما يرفس الحمار؟».

ويلزمونه بجواب ينطق به مكرهًا غير مختار، فإن قال «أنا ناطح» وشموه بوشم أخضر في منبت شعره فوق جبهته، وإن قال «أنا رافس» وشموه بوشم أخضر فوق عقبه الأيسر، وإن قال«أنا رافس ناطح» وشموه في الموضعين معًا[2].

(١) محمد رفعت الإمام: تاريخ الجالية الأرمينية في مصر، القاهرة ١٩٩٩م، ص٨٨.

(٢) انظر: سعد الخادم: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، سلسلة الألف كتاب، عدد٨٨ ٤، القاهرة ١٩٥٦، ص٢١، عمرو عبد العزيز منير: الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية، مكتبة النافذة، القاهرة ٢٠٠٨م، ص٧٧.



أطفال من الشرقية ١٩٢٥م

وعمومًا ستجد أن انتشار التعليم وكثرة الانتقال والاحتكاك والانفتاح أزال الكثير من غشاوة ما يدعيه بعض البخلاء من أنه «عبط الكرم الشرقاوي» وقلة التجربة فأدركوا الحسنيين!! وقد يصل الأمر ببعضهم إلى درجة يضرب بها الأمثال، كما يوصف البعض الآخر بطيبة القلب التامة مع حسن الظن في التفكير، مختلطًا بصفاء الطوية والتسامح في التعبير[١]، وبالرغم مما يتندر به بعض مواطنينا عن «عبط» أبناء الشرقية إلا أنه قد ظهر من بين هؤلاء «العبط» أكبر زعيم اقتصادي عملي أدرك أن الاقتصاد هو عصب الحياة وأنه الهدف النهائي للاستعمار.. إنه الزعيم الوطني طلعت حرب الذي أسس بنك مصر بعد أن كانت مصر لا تعرف إلا البنوك الأجنبية التي تأخذ بتلابيب حياتنا كلها

(١) مصطفى علي الطاروطي: فكرة ونداء، مجلة صوت الشرقية، العدد الأول، ١٥ أغسطس ١٩٦٣م، ص١٦.

وبالمال تعز وتذل. فالشرقية كالرحم الذي لا ينضب بل تصدر أبنائها للجهات العقيمة دون وصاية من أب!!"[1].

وليس أدل على هذا أن الشرقية أنجبت للأم الرؤوم مصر روادا ساهموا بالقدر الوفير في رسم خريطة الفكر والفن والإبداع والدين والعلم في مصر والعالم العربي على مر العصور، ولعل الأمثلة تفوق الحصر إذ نشير إلى: عبد الله النديم، عبد الله الشرقاوي[2]، عزيز أباظة[3]، وأحمد عرابي، محمود باشا الفلكي[4]، يوسف إدريس، صلاح چاهين، إبراهيم الدسوقي أباظة[5]، مرسي جميل عزيز،

(١) محمد مندور: صوت إقليمنا الحبيب، مجلة صوت الشرقية، العدد الأول، ١٥ أغسطس١٩٦٣م، ص٥.

(٢) هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم، شيخ الجامع الأزهر زمن الحملة الفرنسية وهو شافعي المذهب، ولد كما يقول الجبرتي (وهو معاصره ومؤرخه) في حدود سنة ١١٥٠هـ في قرية «الطويلة» من إقليم الشرقية ولذا لقب بالشرقاوي. حفظ القرآن في قرية «القرين» بالقرب من الطويلة، ثم قدم إلى الأزهر، وأخذ يتلقى علوم الدين والعربية على شيوخ أجلاء، من أمثال: الملوي، والجوهري، والدمنهوري، وغيرهم من أئمة عصره.

(٣) ولد بقرية الربعماية مركز منيا القمح بالشرقية ويعد أميرًا للمسرح الشعري في مصر والوطن العربي. ولد في عام ١٨٩٩ وتلقي تعليمه الابتدائي في المدرسة الناصرية الابتدائية، وأكمل دراسته في كلية فيكتوريا في الإسكندرية ثم المدرسة التوفيقية بشبرا ثم المدرسة السعيدية؛ درس القانون وتخرج في كلية الحقوق بالقاهرة عام ١٩٢٣م، وهو أكبر أنجال صاحب العزة محمد بك عثمان أباظة.

(٤) محمود باشا الفلكي (١٨١٥-١٨٨٥م)، من أبناء مديرية الشرقية الذين حفل بآثارهم العلمية البارزة تاريخ مصر المجيد، وهو من بلدة الشبانات بالشرقية، موطن أبيه وأسرته، ولأخيه الشيخ أحمد الفلكي بها ضريح يزوره الناس، ويقام له احتفال بمولده كل سنة. جاء مولده وقت أن كانت والدته بمنزل أبيها بالحصة من أعمال مديرية الغربية فولد بها أتم ثقافته الابتدائية بمدرسة الإسكندرية، ولما رأى أهله فيه ذكاء مشبوبًا، وفطنة متوقدة نظموه في سلك تلاميذ مدرسة المهندسخانة بالقلعة على ميل منه ورغبة فتخرج فيها عالمًا بارز الشخصية في الهندسة وعلم طبقات الأرض وما يتصل به من جغرافية وفلك، فوكل إليه تدريس علوم التفاضل والتكامل والفلك بمدرسة المهندسخانة ببولاق أول عهدها بالوجود سنة ١٨٣٤م. ففتحت مصر عينها على عالم يسأم الركود، وينشد الحقيقة ويروم الكمال. فأصدر تقويمًا عربيًا سنة ١٨٤٦م وطبع بمطبعة بولاق، ووضع باللغة الفرنسية رسالة في المقاييس والمكاييل المصرية، ترجمت إلى العربية وطبعت بالأستانة، وترجم كتاب حساب التفاضل والتكامل.

(٥) تولى إبراهيم أباظة الوزارة خمس مرات وقد ولد بكفر أباظة بالزقازيق عام ١٨٨٢م. وكان سكرتيرًا لحزب الأحرار الدستوريين ووقف بصلابة منددًا بفظائع الاحتلال الإنجليزي في أعقاب ثورة ١٩١٩م. =

السيد علي الدرويش[1]، محمد مندور، محمد غيمي هلال[2]، خالد محمد خالد، هاشم الرفاعي، فكري أباظة، عبد الحليم محمود، صبري السربوني، محمد زكي عبد القادر[3]، ألفريد فرج[4]، منيرة المهدية[5]، محمد عبد الوهاب، عبد الحليم حافظ، صلاح عبد الصبور.. وهناك كثيرون غيرهم. من الرواد الذين أثروا

= وغادر دنيانا في يناير ١٩٥٣م. وهو والد الأديب الكبير ثروت أباظة ووالده هو صاحب العزة إبراهيم بك السيد أباظة عمدة كفر أباظة.ولد سنة ١٨٥٦م، وتعلم بمدرسة خاصة أنشأها السيد باشا أباظة لأنجاله ثم انتقل إلى مدرسة بنها الثانوية مع بعض أخوته، ثم دخل مدرسة (الإدارة والألسن) الحقوق القديمة وتوفي فجأة في غزالة بالغا من العمر ٥٧ عامًا عن ثروة واسعة، وترك من الأنجال ثلاثة هم إبراهيم بك دسوقي أباظة مأمور ضبط مديرية الجيزة، ومحمود أفندي إبراهيم أباظة وكان طالبًا بجامعة أدنبرج، وعبد الله أفندي فكري أباظة.

(٣) هو السيد علي بن حسن الدرويش بن إبراهيم الأنكوري المولود بالشرقية بناحية بني شبل، قدم أبوه إلى مصر سنة سبع ومائتين وألف من هجرته ﷺ، وبني ببنت الشيخ عبد الرحمن السمنودي بعد سنتين من قدومه وزرق بالشاعر منها عام أحد عشر ومائتين وألف هجرية في غرة المحرم، ونشأ بمنزل أبيه بقنطرة الأمير حسين بمصر المحمية، وانتقل إلى جوار ربه في ١٢٧٠هـ-١٨٥٣م. وله ديوان يسمى (الإشعار بحميد الأشعار) جمعه تلميذه الشيخ مصطفى سلامة النجاري، وطبع على الحجر بمصر سنة ١٢٨٤هـ.

(٤) محمد الغنيمي هلال أحد أهم أعلام الحركة النقدية في مصر ولد بقرية سلامنت مركز بلبيس بالشرقية ولم يعش د. محمد غنيمي كثيرًا بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧م وغادر دنيانا في صمت في يوليو من عام ١٩٦٨م.

(١) ولد الكاتب المبدع محمد زكي عبد القادر عام ١٩٠٦م، بقرية فرسيس بمحافظة الشرقية. وله كتاب (لغة الصحافة)، ورحل عن دنيانا ١٩٨٢م. انظر: شكري القاضي: مائة شخصية وشخصية، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٢٦.

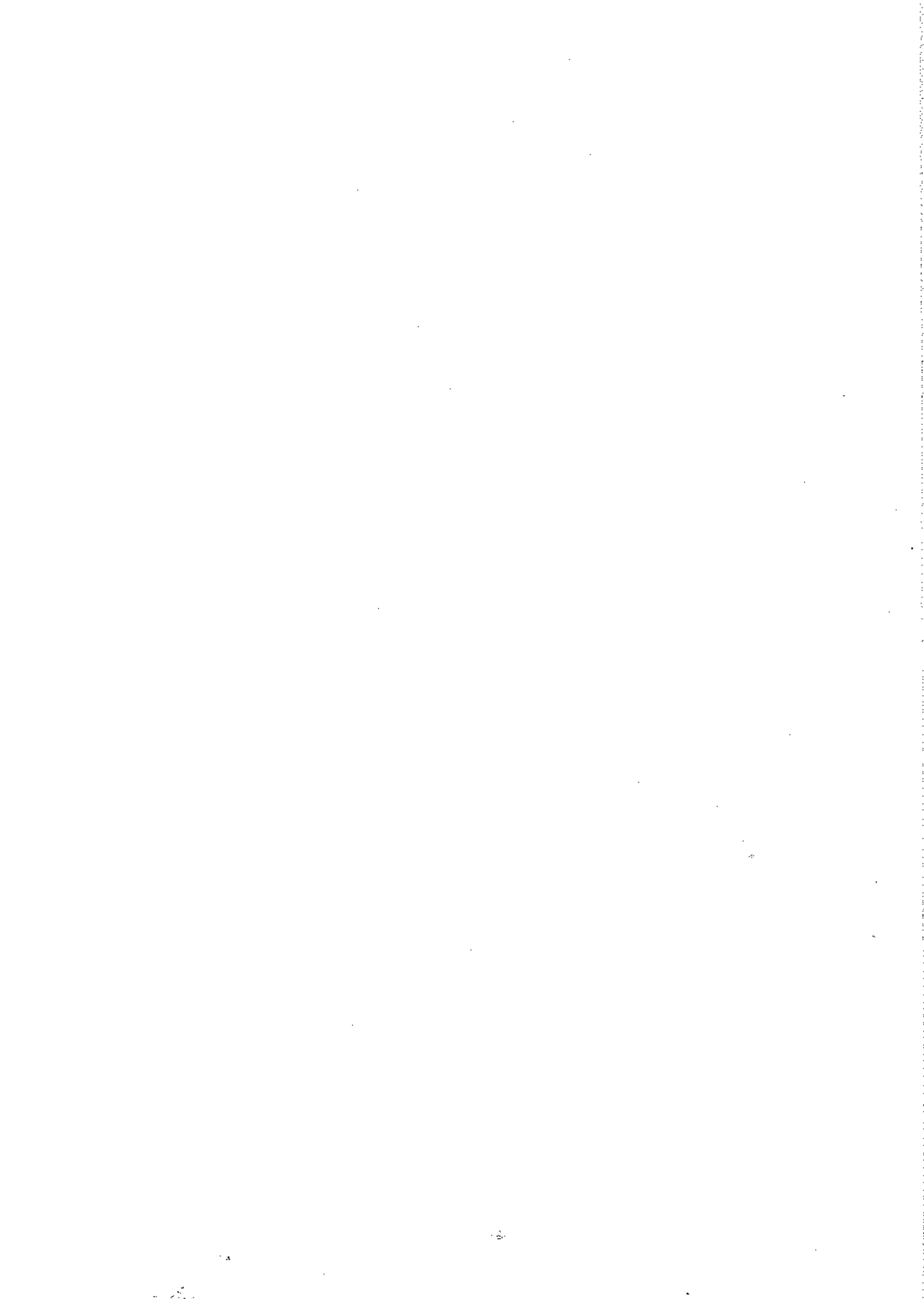
(٢) ولد ألفريد فرج بمنطقة كفر الصيادين بالزقازيق.

(٣) منيرة المهدية: أو سلطانة الطرب ولدت في الزقازيق عام ١٨٨٨م. اسمها الحقيقي (زكية حسن منصور) واشتهرت فيما بعد بلقب السيدة منيرة المهدية، وكانت أول امرأة مصرية تعتلي خشبة المسرح في شارع عماد الدين (مسرح برنتانيا) لتصبح برواية صلاح الدين الأيوبي السبب الحقيقي وراء الإقبال المنقطع النظير على شارع عماد الدين وبلغت مكاسبها من أوبريت كليوباترا - التي لحن الفصل الثاني لها ابن أبو كبير الملحن محمد عبد الوهاب - من عرضها ٦٠ ليلة فقط ١٥٠ ألف جنيه اشترت بهم عمارات الخديوي المشهورة. انظر: إصدارات المركز القومي للمسرح والموسيقى: زمان عماد الدين، القاهرة ١٩٩١م، ص٧٥؛ صالح جودت: ملوك وصعاليك، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨م، ص٢٩١.

وجداننا بوفير العطاء وصدق الرسالة وعفة اللسان ولا يزال التواصل قائما والعطاء لا ينفذ إذ تخرج - من خلال هؤلاء الرواد - أجيال جديدة تعلن عن نفسها وبإصرار ورغبة آسرين التقلب في تربه الفن والإبداع الخصبة لترفع مشاعلها وأقلامها مجسدة رؤاها آمالًا وآلامًا لتؤكد أن الإبداع والفن هما أنبل التوجهات وأجلها في النفس تأثيرًا وعمقًا.

بالقرب من الزقازيق ١٩٤٢م





البَابُ الخَامِسُ

قبائل الشرقية بين التاريخ والموروث الشعبي[1]

✍ في الشرقية تتسع الرؤية وتضيق العبارة، فالاتساع بحجم التاريخ وعبقرية الجغرافيا وقراءة الأنثروبولوچية، والضيق بقدر المخزون الموروث منذ آلاف السنين، والذي تختزله الثقافة الشعبية في طيات الجيولوجيا الإنسانية لتعيد إنتاجه في اختزال شحيح، تلك البيئة المعطاءة مازالت ترفد الإنسان لتعيد إنتاجه في اختزال شحيح، تلك البيئة الكريمة المعطاءة مازالت ترفد الإنسان بزاد لا ينتهي وتسقيه من كوثر جنة الثوابت القيمة - العربية والإسلامية - وتطبع على بطاقته الجينية أبرز الصفات المنتقاة من سلالة الفراعين البنائين المحاربين، والسمات المصطفاة من مجد قبائل عرب الشمال وسؤدد وجسارة عرب الجنوب ونفحة المجاهدين الأوائل في فتوح الإسلام، فرض المكان قانونه، ومارس الزمان سلطته لتتحول التضاريس بدن يكتنز باللحم وينبت بالدم ويسيل من فرط العرق، ويفعل التاريخ فعل الكائن الحي في الواقع والوقائع... في الشرقية فتش عن كل فرد تجد مخاضات السنين في المرآة تسقي بماء واحد يساقط من ذرا البدايات بمجرد هزة في جزع نخلة أو رعشة في ساق فسيلة.

حينما تمشي في دروبها وبين مراعيها تجد أنك تنتقل بين دفات المعاجم وعجائب الآثار وكتب التاريخ ومرافئ الحكايات الشعبية وساحات الإنشاد الديني، أنت في عاصمة الرعامسة والهكسوس وفي تل بسطة، وحينًا في قنتير وتانيس

---

(١) سبق وأن تم نشر تلك الدراسة مجزأة في بعض الصحف والمواقع الإلكترونية كبوابة الأهرام للحضارات، ومجلة ذاكرة مصر، والمجلات العربية المعنية بالثقافة الشعبية وقد آثرت جمعها وتقديمها للقارئ الكريم.

وفاقوس والختاعنة وبلبيس أو تسبح في بحر (مويس) حيث طاف بالصندوق موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنت في كل الأحيان تحيا وسط الكلأ الآمن لهزيل وتميم وجهينة وبكر وتغلب وقيس وجذام، وتستطيع أن تقفز لأي قرن غابر بمجرد أن تنقل قدميك خطوة أو خطوتين لتشارك في «هوجة» عرابي وتؤسس مع طلعت حرب وتكتب مع إدريس وتنشد مع عبد الصبور وتطرب للعندليب وتصيد مع عبد العاطي وتقاوم مع الشرقاوي[1].

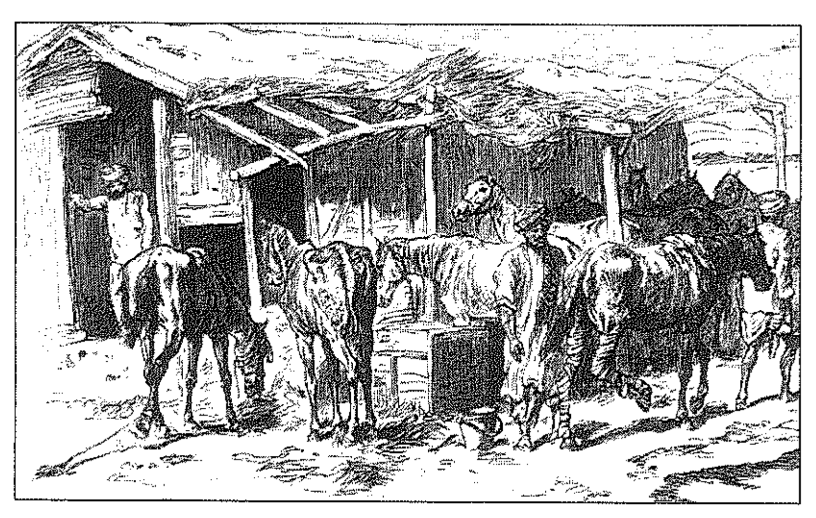
في محافظة الشرقية[2] «بوابة مصر الشرقية» التي استقبلت مواكب الإسلام

---

(١) عزازي علي عزازي: قضايا الإبداع والرؤىٰ المعاصرة (مطبوعات مؤتمر الشرقية الأدبي، الزقازيق ٢٠٠٢م)، ص٧.

(٢) كانت محافظة الشرقية قديمًا هي المقاطعة رقم ٢١ من مقاطعات الوجه البحري وعاصمتها القديمة بوبستا والتي أصبحت في فترة ما من التاريخ عاصمة لمصر كلها وقد تكون إقليم الشرقية باسمه الحالي في عهد الدولة الفاطمية وكان قبل ذلك مقسمًا إلىٰ عدة كور صغيرة كل كورة منها قائمة بذاتها وتم ضمها معًا وسميت الشرقية لوقوعها في الجهة الشرقية من الوجه البحري، وفي عام ١٣١٥هـ أطلق عليها الأعمال الشرقية، وفي سنة ١٥٢٧م أطلق عليها اسم ولاية الشرقية، ولما تولىٰ محمد علي حكم مصر سنة ١٨٠٥م كان القطر المصري يتكون من ١٣ ولاية تنقسم إلىٰ ٧ ولايات في الوجه البحري و٦ ولايات في الوجه القبلي ... وكانت الشرقية إحدىٰ ولايات الوجه البحري وأقدمها. ويدير الولاية في الوجه البحري موظف اسمه «الكاشف» ولما أمر محمد علي بعمل مسح عام لأطيان القطر المصري سنة ١٨١٣م أمر بتقسيم الولايات إلىٰ أخطاط يرأس كل منه موظف باسم حاكم الخط وذلك لتنظيم الأعمال بالقرىٰ وإمكان الإشراف عليها. ويشتمل كل خط علىٰ عدة نواح وبكل منها شيخ بلدة أو عمدة، وفي سنة ١٨١٦م قسمت ولايات الغربية والشرقية والبحيرة والدقهلية إلىٰ أقسام عين لكل منه ناظر، وفي عام ١٨١٩م أمر محمد علي بإبطال اسم مأمورية وإبدال وظيفتي كاشف وحاكم بمأمور ويقسم القطر المصري إلىٰ ٢٤ مأمورية منها ١٤ من الأقاليم البحرية و١٠ من الأقاليم القبلية؛ وقد قسمت محافظة الشرقية إلىٰ مأموريتين من إجمالي الـ ١٤ وهما نصف أول الشرقية ويشمل: قسمي أبو كبير والصوالح، ونصف ثاني الشرقية ويشمل: أقسام بلبيس، ههيا، شيبة النكارية، العزيزية. عام ١٨٢٩م تم ضم الشرقية تحت لواء مديرية الأقاليم البحرية بعد أن قسم القطر المصري إلىٰ ثلاثة أقاليم هي: الأقاليم البحرية، الأقاليم الوسطىٰ، الأقاليم الصعيدية. واستمرت الأقاليم ومأموريتها في تغير مستمر سواء من جهة موقعها أو حدودها أو تسميتها أو وظائف من يهيمن عليها من حكام، وقد قام محمد علي سنة ١٨٣٣م بإعادة أسماء أقاليم الوجه البحري الجغرافية القديمة التي كان مقسمًا =

واستقرت في ربوعها الأصالة العربية، في هذه المنطقة ظل تاريخ وعادات القبائل العربية التي استقرت في ربوعها لفترات متفاوتة مسكوتًا عنه (بقصد أو بدون وعي) في الدراسات العلمية ذات الصيغة التاريخية أو حتى الدراسات الشعبية رغم تزايد الاهتمام بدراسة الفئات والشرائح الاجتماعية داخل مصر وخارجها من جانب علماء الاجتماع والسياسة والقانون والتاريخ والفولكلور.



= إليها من قبل تعديل حدود أغلب أقاليم الوجه القبلي والبحري واستبدال اسم مأمورية الذي كان يطلق على الإقليم كله أو أجزاء منه باسم مديرية كذلك استبدال اسم مأمورية الذي كان يطلق على رئيس المأمورية باسم مدير ثم اختيار المدينة أو البلدة التي تصلح قاعدة لكل من المديرية وذلك لإقامة المدير ومَن معه من موظفين فيها على أن تكون مختارة في وسط كل المديرية بقدر الإمكان وبذلك سميت الشرقية باسم مديرية وقاعدتها بلبيس ضمن ٧ مديريات في الوجه البحري ومثلهم في الوجه القبلي كل مديرية تضم تحت لوائها مجموعة أقسام، صدر قرار عام ١٨٧١م بإطلاق كلمة مركز بدلًا من قسم على مديريات الوجه البحري، وقد استقرت حدود المحافظة على جيرانها من المحافظات الأخرى في الستينيات مع بدء تجربة الحكم المحلي واستبدال المديريات بالمحافظات. للمزيد راجع: محمود أحمد عبد الرازق، مصر بين الماضي والحاضر، القاهرة ٢٠٠١م، ص٥٦، وانظر: عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور، ص١٤.

وأقصد بالقبائل العربية أولئك البدو الرُّحَّل الذين وفدوا علىٰ مصر من شبه جزيرة العرب بعد فتح عمرو بن العاص في فترات متفاوتة ثم استقروا فيها إلىٰ الآن أو قطنوها مدة ورحلوا عنها ثم عادوا إليها ولكن معظمهم حافظوا علىٰ عروبتهم وأنسابهم وأحسابهم ولم يصاهروا أهل مصر وفوق ذلك اثبتوا عروبتهم أمام لجان فحص العربان في سنتي (١٩١٠ و١٩١١م)، وهي لجان شكلت من عمد القبائل ومن رؤساء مجالس القرعة وكانوا يثبتون اسم كل فرد وبصمه أصابعه وقد يسألون الكبار منهم عن أنسابهم وأحسابهم أو عن أعمال العرب الدقيقة فإن عجزوا سقطت عروبتهم.

وكان هؤلاء العربان سواقط قيد جعلت لهم دفاتر خاصة لقيد مواليدهم ووفاياتهم في البلاد والمديريات وذلك ابتداء من سنة ١٩٠٦م، وقد أحصوا إحصاء تقريبيًّا في سنة ١٨٨٣م في عهد الحملة الفرنسية وإحصاء آخر في سنة ١٩٠٧م ومع ذلك فنهم مَن كان لا يزالون منتشرين في الصحاري والمراعي والحدود الشرقية والشمالية للشرقية وهم رحل غير مستقرين ولا مقيدين[1]، وإذا كانوا ينوون الإقامة في أي بلدة أثناء عبورهم الطريق كان يتعين علىٰ عمدة البلد أن يتحقق من عددهم وحالتهم والقبيلة التي ينتمون إليها واسم كبيرهم ومشايخهم وكان يختار لهم محلًا قريبًا من المساكن وبعيدًا عن المزارع والسواقي حتىٰ لا يحدث احتكاك بينهم وبين الأهالي يكون سببًا في اختلال الأمن[2]، وهذا لا يمنع من وجود بيوت في مصر أصلهم من شبة الجزيرة العربية ولكنهم لم يهتموا بإثبات عروبتهم أمام لجان فحص العربان المذكورة فضاعت وأصبحوا مقيدين كبقية المصريين.

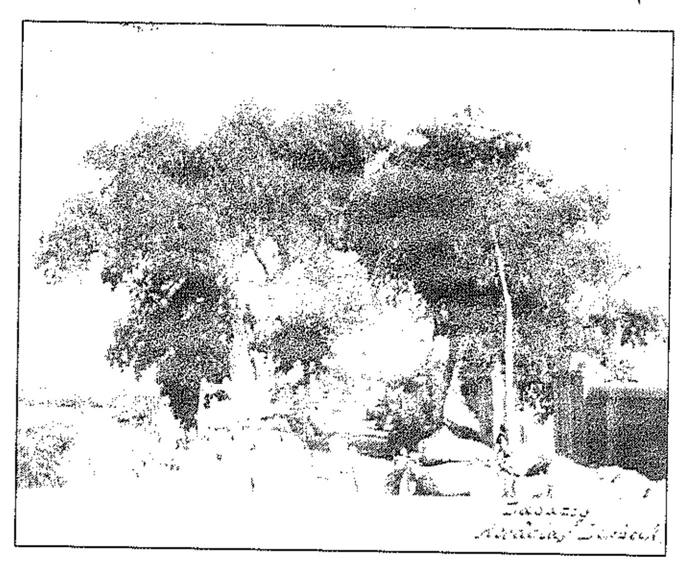
(١) أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م)، ص٣٢-٣٨.

(٢) علي حلمي: الدليل لعمد ومشايخ البلاد (الطبعة الثانية، مطبعة الرحمانية بمصر، القاهرة ١٩٢٥م)، ص٦٥.

• القبائل العربية وتاريخهم

في مدة فتح عمرو بن العاص لمصر كانت قناة السويس غير موجودة وكانت جل وسائل الري غير متوفرة والقناطر والسدود والخزانات الموجودة الآن في الشرقية غير مقامة وكان النيل يغمر البلاد مدة الفيضان فإذا انحسرت المياه بعد الفيضان تركت مستنقعات وأراضي مغطاة بالبردي والكلأ والحشائش الصالحة لرعي الأغنام والماعز والإبل والخيل في معظم أراضي الشرقية وبخاصة الشمالية والمجاورة للصحراء منها فشجع ذلك القبائل العربية بعد الفتح علىٰ الرحيل إليها لقربها من بلاد الغرب وأخذوا يتنقلون في ربوعها طلبًا للرزق ولم يجدوا فارقًا كبيرًا بين صحاري الشرقية ومراعيها ومناخها وبين صحاري بلادهم ومراعيها ومناخها واستوطنوا وأخذوا يرعون ويتاجرون ويفلحون الأرض ويزرعونها وساعدهم علىٰ ذلك إن أغنامهم وماعزهم وأبلهم وخليهم كانت تقطع الحشيش وتسمد الأرض فتجعلها صالحة للزرع ولذا كان من أقوالهم المأثورة عن الغنم (إن في جرتها سلاسل ذهب) يعنون إن الغنم تدر الخير بنتاجها وصوفها ولبنها وفوق ذلك تخصب الأرض فتصلح للزرع وان كان في ذلك تضييق علىٰ رزقها وتتسع الأراضي الزراعية وإلىٰ عهد قريب كان كثير من الفلاحين يقدمون الأراضي المنزرعة بالبرسيم الأخضر والقطن بعد جنيه والقمح والفول والشعير بعد حصادها للإعراب من أصحاب الأغنام والإبل فيرعونها بدون مقابل نظير تسميد الأرض - وبعد الفتح استوطن كثير من العرب في الجهات الشرقية من مصر واستمروا بعد ذلك يفدون وينتقلون ويستوطنون حتىٰ أواخر أيام الدولة العباسية إذا سادت الفوضىٰ أرجاء الدولة العربية وحل القحط بمصر فرحل بعض القبائل من الشرقية ومن مصر كلها إلىٰ الغرب وبخاصة طرابلس ولما عاد الأمن والرخاء إلىٰ مصر في عهد الفاطميين عاد بعض القبائل إلىٰ مصر ومنذ ذلك العهد يسمىٰ العرب الذين لم يرحلوا إلىٰ الغرب عرب الشرق والذين رحلوا وعادوا إلىٰ مصر عرب الغرب ومن القبائل التي رحلت إلىٰ الغرب وعادت

وأصبحت من عرب الغرب قبيلة الهنادي ومنها الطحاوية وسمالوس التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى وادي سمالوس ببلاد المغرب(١).

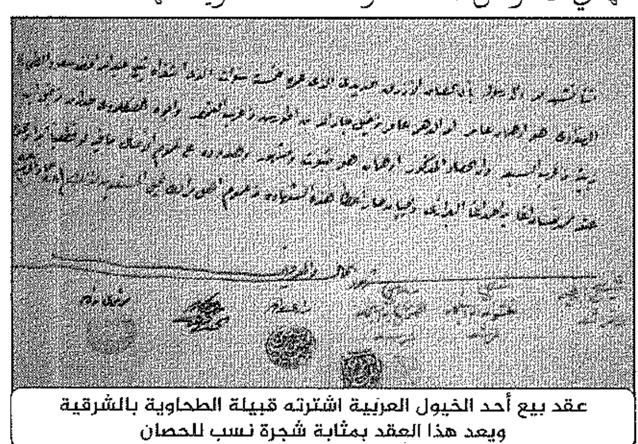


وبقيت الحال على ذلك حتى سنة ١٠٩هـ/٧٢٨م؛ إذ أحضر ابن الحبحاب - وهو أحد حكام مصر في ذلك الوقت - مائة بيت من قيس وأقطعهم أرضًا في بلبيس وزودهم بالخيل والإبل ثم ناط بهم حراسة القوافل بين ساحل البحر الأحمر وداخل البلاد وأفادوا من ذلك الربح الواسع مما جذب بيوتًا أخرى من قيس لتحلق بهم حتى صاروا في عام واحد ١٥٠ بيتًا فأحدثوا نقلة اجتماعية كبيرة في البناء الاجتماعي لسكان الشرقية، حيث جاءت هجرتهم وفقًا لرغبات رجال الإدارة والحكم في الإكثار من القبائل التي ينتمون إليها في البلاد التي

(١) أحمد لطفي السيد: مرجع سابق، ص١٠ وما بعدها. وانظر: الشرقية وسيناء: بحث نشرته منطقة الزقازيق التعليمية (الزقازيق ١٩٤٩م)، ص٤٢؛ وانظر: المجلة السنوية لمدرسة الزقازيق الثانوية، عدد عام ١٩٣٩م، ص٨٩.

يديرونها[١]، كما جاءت لإحداث توازن القوىٰ مع القبائل اليمينية من لخم وجذام في المنطقة، فضلًا عن التوازن في البناء الاجتماعي لسكان الشرقية من العرب وأهل الذمة[٢].

وأمرت قبيلة قيس بشراء الخيول وتربيتها وتدريبها خاصة مع انخفاض تكلفة تربيتها لجودة مراعي الشرقية، ولم تكتف قبيلة قيس بشراء الخيول وتربيتها وتدريبها فقط لاستخدام القبيلة وأفرادها بل إن الأمر تعدىٰ ذلك إلىٰ تجارتها مع باقي القبائل العربية الأخرىٰ فضلًا عن إمداد القوات العسكرية العربية بالفسطاط بها أيضًا وذكر المقريزي: «أن الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهر حتىٰ يركب»[٣]، ومعنىٰ هذا توفر أعداد كبيرة من هذه الخيول التي يستفاد منها في الأغراض المختلفة وخاصة العسكرية منها.



عقد بيع أحد الخيول العربية اشترته قبيلة الطحاوية بالشرقية
ويعد هذا العقد بمثابة شجرة نسب للحصان

(١) أحمد السيد سرحان: الحوف الشرقي من الفتح العربي حتىٰ نهاية الدولة الفاطمية (رسالة دكتوراه - غير منشورة - آداب الزقازيق ١٩٩٥م)، ص٣٥٨.

(٢) نفسه، ص٣٥٧.

(٣) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) (ت٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ج١، طبعة الذخائر)، ص٨٠ وما بعدها.

ولما غامر محمد علي باشا بحروبه في بلاد العرب ساهم عرب الشرقية وسينا في هذه الحملة بنصيب أكثر من غيرهم؛ إذ قدموا له الخيل ودربوا له الجند على طريقة الكر والفر المعهودة في الحروب عند الوهابين[1]، وفي هذه الحملة السودان والشام عرض محمد علي باشا على عرب الشرقية وغيرهم تشكيل فرق ترسل عددًا من رجالها الأشداء تحت إمرة رئيس منهم يطلق علية الصاري وكان بمثابة قائد لهم وكان محمد علي باشا يجزل لهم العطاء لما كان يلمس فيهم من شجاعة وإخلاص وتضحية وقد منحهم ما يسمى امتياز العرب وهو تعهد يعفي العرب من التجنيد الإجباري ومن حراسة جسور النيل ومن السخرة وحفر الترع وإقامة الجسور وذلك نظير وعد العرب بتقديم الجند عند الطلب بوساطة عمد القبائل وقد ألغي هذا الامتياز بعد صدور القانون الجديد بالتجنيد الإجباري في ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧[2].

وقد منح محمد علي باشا العرب أراضي زراعية سميت إنعامات وذلك بدون ثمن نظير دفع ضريبة (أكياس) من النقود أو قدر من المحاصيل الزراعية، وقد طلب إلى عرب المشارقة حراسة حدود مصر.

وقد أفادت هذه الفرق الجيش من الوجهة العسكرية فكانت عليهم مهمة استطلاع العدو ومطاردته في أثناء الهزيمة وعند التقهقر وهم الذين أسروا رشيد باشا في موقعة قونية[3].

وكان العرب في عهد محمد علي باشا يعرفون الدروب وطرق القوافل ويحملون البريد والمعدات وكانوا خبراء في معرفة الطرق والمسالك والدروب[4]. وقد

(١) طارق البشري: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية (دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨م)، ص٢١.

(٢) أحمد لطفي السيد: مرجع سابق، ص٢٩.

(٣) مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية، ص٩٢.

(٤) نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها (الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص٥٤١.

ساعدوا محمد علي باشا مساعدة كبيرة في حرب الوهابيين والسودان واليونان والشام ولا زال أحفاد عرب الشرقية يذكرون ما استقر في ذاكرتهم الشعبية من أنهم حجوا بيت الله الحرام في حرب الوهابيين (وطيبوا أي فتحوا) عكا في حرب الشام وأن بعضهم قضىٰ ما لا يقل عن عشر سنوات في جنوب الوادي في حرب السودان وتزوجوا من السودانيات وأنجبوا خلفًا ومن هؤلاء الأجداد عامر ويونس وكريم ومجلي من الطحاوية والحاج عبد الله محمد من عائلة جمعة من سمالوس.

ولما أتىٰ عباس باشا الأول غضب علىٰ بعض القبائل في الشرقية فأدىٰ ذلك إلىٰ ارتحال هذه القبائل إلىٰ الشام وأعطيت أملاكهم في الشرقية إلىٰ أعدائهم من العرب نكاية بهم ولكنهم عادوا إلىٰ أملاكهم ثانية في عقد سعيد باشا وفي أثناء وجودهم في الشام عين مجلي سليمان قائدًا في الجيش العثماني.



اهتمام عرب الشرقية بتدريب الخيل وإرسالها إلى حلبة السباق
منذ عهود قديمة إلى الآن

ولما ظهرت العملية والسخرة في خفر الترع وإقامة الجسور ومد السكك الحديدية ولما كان العرب لم يألفوا هذه الأعمال ولم يألفوا الشدة والضيم ترك

البعض ديارهم وأملاكهم وهربوا إلى جهات مختلفة في مصر أو في غيرها خشية ألا يراعي امتيازهم ويساقوا ضمن المصريين[1].

وعندما ما قامت ثورة عرابي باشا (هوجة عرابي) اندفع العرب بسليقتهم وميلهم للحرب وانضموا إلى جانب الثوار وقاتلوا في كفر القنال والتل الكبير. وقبل إن تتعهد الحكومة المصرية بحراسة المحمل المصري إلى الحجاز ذهابًا وإيابًا كان عرب الشرقية والقليوبية بالتناوب يقدمون الإبل للمحمل وكان كل قبيلة تقدم من ٤٠٠ جمل إلى خمسمائة[2].

Capture of Zagazig

London, September 14.—The Indian troops, which pushed on to Zagazig immediately after the Egyptian defeat at Tel-el-Kebir, occupied that place without opposition at 4 o'clock on Wednesday evening. Five engines and one hundred railway carriages were seized. The Governor at once submitted, and the populace seem stupefied at the rapid advance of the British. Later.—Ourabi's papers have been captured at Zagazig, and several generals and many officers of the Egyptian army were made prisoners. The head-quarters of the British will be transferred to Zagazig. Later.—The majority of Ourabi's leading officers are now prisoners in the hands of the British. Sixty guns were also captured at Zagazig.

• قبائلهم في الشرقية

ومن أشهر قبائل العرب في الشرقية الهنادي وقد جاءت هذه القبيلة أيضًا إلى غرب مصر من طرابلس في القرن الثامن عشر واستقر الجزء الأكبر منها في البحيرة، كما استقر جزء من القبيلة في الشرقية، وكانت تلك القبيلة تمثل البدو الرحل الذين لا يعرفون الزراعة أو التجارة بل يعيشون على الرعي والسلب والنهب وكانت من أقوى قبائل العربان في البحيرة والشرقية وقد بلغ تعدادها في

(١) إصدارات منطقة الزقازيق التعليمية ١٩٤٩م، ص٤٩.

(٢) نعوم شقير: تاريخ سيناء، ص٢٦٣؛ أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر، ص٩٢.

عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٠ ألفًا وبلغ عدد فرسانها أكثر من ثمانمائة(١)، وبلغ تعداد القبيلة مع نهاية القرن التاسع عشر نحو ١٠٥٠٤ نسمة(٢).

والهنادي تتفرع إلى بيوت منها الطحاوية، وهي بطن من قبيلة الهنادي، وقد انحدرت من جهة الغرب في القرن الثامن عشر ونزلت بناحية الزورة(٣) (السعادات) واستوطنها واندمجت بأهلها واحترفت الزراعة، ومن عرب الطحاوية فخذ يسمى «الفواخر» وموطنها ضواحي بلبيس، وفخذ آخر يسمى «البهجة» وموطنها أنشاص، ولهذه القبيلة فرع نما وتكاثر وأصبح له شأن كبير في مركز فاقوس وآخر في الحسينية(٤).


صاحب العزة/ السعدي بك بشارة الطحاوي

ومن أشهر رجال القبائل ممكن اشترك في الجمعية التشريعية بمديرية الشرقية صاحب العزة السعدي بك بشارة بن يونس بن الشافعي بن أبي بكر بن سعد من قبيلة الهنادي التي تنتهي إلى قبيلة سليم، وقد اشتهرت هذه العائلة في مديرية الشرقية بعائلة الطحاوي نسبة لطحاوي عم والد السعدي بشارة وترجع هذه العائلة إلى عهد الوالي محمد علي باشا وكانوا من المتعلقين بعرشه والمسبحين بفضله، وقد استوطنت هذه العائلة عند قدومها الديار المصرية مديرية البحيرة وكان يطلق عليها لقب الشافعي ثم غُيِّر هذا اللقب في مديرية الشرقية إلى الطحاوي، وقد اختار السعدي أرضًا مجاورة

(١) ليلى عبد اللطيف: سياسة محمد علي إزاء العربان في مصر، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٣.

(٢) عبد الله عزباوي: البدو ودورهم في الثورة العرابية، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٤.

(٣) الزورة: كلمة عربية معناها العزبة لبعدها عن القرية التي فصلت عنها، أصلها من توابع ناحية الجرنوس وفصلت عنها في تاريخ ١٢٣٠هـ انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي، قسم ثان، ج٣، ص٢٥٢.

(٤) إيمان محمد عبد المنعم: العربان ودورهم في المجتمع المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م، ص٤٩.

لأرض والده بناحية الأخيوة بمركز فاقوس (شرقية) واستصلحها وعاونته الحكومة بتوصيل المياه وقد أنشأ بها ستة عزب وشاد فيها مسجدين عظيمين ومكتبين لتعليم أبناء هذه الجهات مجانًا وأوقف على الجميع جانبًا من أجود أطيانه للإنفاق عليها من ريع تلك الأطيان. وكان من عاداته أن يخرج سنويا للصيد ببندقيته وكلبه مع إتمام الأهبة للسفر بالجمال والهجن والخيل مستصحبًا معه بعض رفاقه، وفي سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م أنعم عليه برتبة البكوية من الدرجة الثانية إزاء خدماته الجليلة، وفي سنة ١٩١٢م تم اختياره عضوًا في الجمعية التشريعية نائبًا عن عربان الوجه البحري[١].

وهم منتشرون في الشرقية وكان من أشهر عمدهم الشيخ محمد بك سعود والحاج عبد الحميد راجح وبيت سمالوس وكان من عمدهم الشيخ جوده خليفة غيث، والبهجة بجهة فاقوس وكان من عمدهم الشيخ محمد صميده والشيخ عبد المطلب جايل والفواخر وكان عمدتها الشيخ عبد السلام رشوان والأفراد بجهة ههيا وكان عمدتهم أبو زيدان، واسلم بجهة كفر صقر وكان عمدتهم الشيخ حسين عبد السميع، والنقيعات[٢]، وكان من عمدهم الشيخ إبراهيم أبو صالح وأبو نصر الله والطميلات[٣]، وكان عمدتهم أبو بغدادي والبياضيين[٤]، وكان عمدتهم أبو مرزوق وهذه القبائل الثلاث من المشارقة وهيتم وكان عمدتهم

---

(١) الكنز الثمين، ص٣٤٧، ٣٤٨.

(٢) النقيعات: مقرها في الشرقية في بلبيس والقرين، ولها فروع في الدقهلية والغربية.

(٣) الطميلات: وكان مقرها الجهات الواقعة شرق مديرية الشرقية ولذلك سمي الوادي الممتدة فيه ترعة الإسماعيلية إلى بحيرة التمساح باسمها (وادي الطميلات) - ووادي الطميلات يقع في التل الكبير بالشرقية وكان يسمى منذ تربيع ٩٣٣هـ باسم وادي العباسية لمتاخمته لأراضي ناحية العباسية، ويقال له اليوم وادي الطميلات نسبة إلى جماعة من العرب نزلوا به يقال لهم الطميلات. راجع محمد رمزي: قسم ثان، ج١، ص٦٦.

(٤) قبيلة البياضين: استقروا في بلبيس وعاشوا على تجارة الأغنام ومنهم جماعة احترفوا الزراعة وآخرون تخصصوا في نسج الأكلمة؛ إيمان محمد: العربان، مرجع سابق، ص٦٠.

الحاج سلامة شاهين والسعديون وكان عمدتهم الشيخ عبد الحميد شلبي وأولاد موسى وكان عمدتهم محمد بك بدران، والأخارسة وعمدتهم الشيخ عبد السلام عطوان، وبلي[1] الضعفا بحري[2]، والعيايدة بحري، ومطير بحري[3]، والسماعنة والصوالح والحرابي[4]، وكان تعيين العمد وعزلهم وكذلك تعيين صاري الجيش بفرمان وكان يمكن تعيين عمدة أو أكثر حسب تعداد القبيلة والتي قد تكون منتشرة في أكثر من مكان وهو المسئول عن توطيد روابط الألفة بينهم وبين الأهالي، وصيانة حقوقهم وأملاكهم وأملاك الحكومة[5].



السهم يشير إلى محمد بك سعود .. شيخ قبيلة الطحاوية بجزيرة سعود بالشرقية.. والصورة ترجع لعام ١٩١٠م

(١) قبيلة بلي: ترجع إلى عمرو بن ألحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو ابن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد دخلوا مصر قبل الإسلام واستوطنوا ما بين القصير وقنا وكانوا يقيمون بنقل التجارة الهندية، إيمان محمد: العربان ودورهم في المجتمع، ص٥١.

(٢) نعوم شقير: تاريخ سيناء، ص٧٢٤؛ أحمد لطفي السيد: قبائل العرب، ص٣٨؛ مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية ١٩٣٩م، ص٩٤.

(٣) قبيلة مطير: أو بنو عطا وهي بطن من عبس ودخلت مصر أيام الدولة الفاطمية ونزلت بمصر العليا ومصر السفلى فسكن جزء منهم بمديرية الشرقية متفرقين في قرى بلبيس. إيمان محمد: العربان ودورهم، ص٥٠.

(٤) قبيلة الحرابي: وهي فرع من العقاقرة من قبائل سليم التي وفدت على مصر من طرابلس في أواخر القرن الثاني عشر الهجري.للمزيد راجع أحمد لطفي السيد، مرجع سابق، ص١٩.

(٥) علي حلمي: دليل العمد والمشايخ، ص٦٦.



فرمان بمنح غالب بك الطحاوي رتبة بك

فرمان بتولية سليمان الطحاوي عمدة على قبيلة الهنادي

وعلى جانب آخر تنفرد بلبيس بصفة خاصة في كونها القلب الذي احتضن العديد من القبائل العربية في بداية نزوحهم إلى مصر. أهم القبائل الضاربة في بلبيس هي: العايد، والطحاوية، والبياضين، والحويطات، والمعازة، والعبايدة، ومطير، والقاطنون منها المتوطنون الذين اتخذوا بلادًا وقرى هم قبائل العايد، والطحاوية، والبياضين، ومطير.

ويقول عبد الفتاح حسن إبراهيم في سياق حديثه عن القبائل العربية التي استوطنت بلبيس: «أما القبائل الأخرى فليس لها موطن معين ولا قرى معروفة؛ لأنهم عرب رحل يعيشون في الصحارى وراء أنعامهم. وأشهر هذه القبائل وأعرقها وأقدمها قبيلة العايد، فإن لها في كتب التاريخ مثل المقريزي، والجبرتي، ومروج الذهب وغيرها من أمهات كتب التاريخ فصولًا مسهبة جاء فيها بإيجاز: أن قبيلة العايد بطن من طي أصلها من اليمن نزحت إلى الحجاز عقب الإسلام، واستوطنت نجدًا إلى القرن السادس للهجرة، ثم قدمت مصر في القرن السابع حيث استقدمها الملك الظاهر بيبرس أحد ملوك دولة المماليك، وعهد إليها خفارة المحمل الشريف وحماية الحجاج من غارات العرب الذين كانوا يسلبونهم،

وينهبون المؤن التي كانت ترسل من مصر إلى الحرمين الشريفين وقتذاك، فحضر شيخ العرب محمد العايدي الكبير وأتباعه نحو سنة ٦٥٠ هجرية ونزلوا بأرض بطحاء بحري مدينة بلبيس بنحو ٥ كيلومترات فاستوطنوها وأنشئوا بها بلادًا وقرى تعرف الآن ببلاد العايد أو كفر العايد، وقد أقطعهم السلطان بيبرس تلك الجهات فتملكوها واحترفوا الزراعة على مر الزمن، واختصوا بزراعة النخيل، وقد ساعدهم على زراعته والإكثار منه وجود التمر الذي أحضروه معهم من بلاد العرب فكانوا كلما أكلوا تمرًا غرسوا نواه فنما بسرعة لخصوبة الأرض، ولنخيلهم هذا شهرة فائقة لجودة تمره وتعدد أنواعه ووفرة محصوله. الأمر الذي حفزهم على تخصيص سوق لتصريفه تعرف بـ«سويقة العايد» يؤمها التجار من شتى البلاد وأقاصيها لمشتري البلح العايدي والاتجار به طوال مدة موسم البلح، وهو الذي تنادي عليه الباعة باسم «البلح العايدي»[١].

وأشهر عائلات العايد شيخ العرب إبراهيم، وشيخ العرب أيوب، وحسن أباظة، وصيام، والأعسر، وسرعان ما اندمجت هذه العائلات في الحياة الاجتماعية وتثقف أفرادها بثقافة العصور المتتابعة حتى نبغ فيهم في عهد محمد علي باشا الكبير العظماء، أمثال: شيخ العرب إبراهيم العايدي، وقد كانت له مكانة ملحوظة عند الوالي، وكذلك شيخ العرب أيوب سليمان العايدي، وشيخ العرب حسن أباظة العايدي، والعلماء أمثال الشيخ محمد علي إبراهيم العايدي، والشيخ أبو سالم العايدي، والشيخ علي الأعسر، والشيخ محمد عسكر، والموظفون أمثال: السيد أباظة باشا، وسليمان أباظة باشا، وأحمد أباظة باشا، وإسماعيل أباظة باشا، والدكتور خليل العايدي، والسيد أيوب بك، والحاج حسين الأعسر. وذرية هؤلاء يمثلون مناصب سامية في مختلف نواحي الدولة[٢].

أما الطحاوية فهي بطن من قبيلة الهنادي المنتشرة في شتي أنحاء البلاد

(١) عبد الفتاح إبراهيم: إصدارات وزارة المعارف العمومية ١٩٤٩م، ص١١٠.

(٢) مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية عدد عام ١٩٤٨م (ممزق الغلاف، ومفقود العديد من صفحاته).

انحدرت من جهة الغرب منذ قرنين من الزمان، ونزلت بناحية الزرورة «السعادات الآن» واستوطنتها، واندمجت بأهلها، واحترفت الزراعة وعنيت بتربية الخيول، ومنذ بضع سنوات أنشأت القبيلة لها قرية بالبر الشرقي للترعة الإسماعيلية شرقي السعادات سميت باسمها «الطحاوية» وعمدتها الشيخ طلب راجع الطحاوي. ومن عرب الطحاوية فخذ يسمى «الفواخر» فرع نما وتكاثر وأصبح له شأن كبير في مركز فاقوس.

أما البياضين فهم حديثو عهد بإقليم بلبيس حلوا بالقرب من بلدة بردين[1] في قرية نوبة والدهاشنة وبها عدة مساكن تعرف بعزبة «البياضين»، وهم فئة قليلة يعيشون على تجارة الأغنام، ومنهم جماعة احترفوا الزراعة، وآخرون تخصصوا في نسج الأكلمة والأخراج وما شاكلها.

ومن القبائل المنتشرة في مركز بلبيس قبيلة مطير - أو بنو عطا - وهي بطن من عبس كانت تسكن أيام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلاد العرب ثم دخلت مصر بدعوة من الفاطميين أيام العزيز ونزلت بمديرية الشرقية متفرقين في قرى مركز بلبيس. ومن هذه القرى عرب تل الجراد، والعواصية، ومنية سنتا، والعيداروس، والثفانية، وسندنهور، والحبلى.

وهذه القبيلة أكثر القبائل العربية محافظة على تقاليدها وطباعها، وجلهم مستوطنون، والقليل منهم منتجعون وراء الأغنام. ولهذه القبيلة عادات غريبة في أفراحهم وأعيادهم وسوامرهم يطول الحديث فيها، كما أنها لا زالت باقية على تراث السالفين من الأطعمة، فنجد مآكلهم الحريرية والعصيدة والجريشة،

---

(١) بردين واقعة في الجنوب الغربي للسكة الحديد الواصلة من بلبيس إلى الزقازيق بنحو ثلثمائة متر، وبها محطة السكة الحديد وسراي بجوار المحطة للبرنس حسين باشا كامل، وينسب إليها كما في الضوء اللامع الحسن بن أحمد بن محمد البرديني، ثم القاهري الشافعي ولد بها أيضًا، بها تفتيش البرنسيسات أمينة هانم أفندي، ونعمة هانم أفندي، وأشهر عزبها عزبة محمد بك سعيد أباظة، وعزبة خليل أفندي جاهين. وعمدتها سنة ١٩٠٠م هو الشيخ حسن شاور. سعودي شلبي: دليل الشرقية، ص٥٣.

والمجللة، والمرققة، والمفورة، واللصيحة. وكلها تحتوي على الخبز الطازج واللبن مطبوخًا بالسمن، وكل منها يصنع على هيئة خاصة، وهذه القبيلة لا زالت بها النعرة القديمة، فلا تزاوج مع الفلاح مطلقًا مهما علا واغتني، ومن الأمثلة المحببة إليهم التي تقع في نفوسهم موقع العقيدة «يأكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح» وهو مثل مشهور مَن حاد عنه أودى بحياته وحياة أسرته. كما أنها لا تزوج القبائل الأخرى إلا إذا كانت حليفة لها، وليكن بمهر مضاعف[1].

وقد بلغ عدد عرب الشرقية حسب تعداد سنة ١٩٢٧م نحو ٤٦٤٤٠ منهم نحو ٢٣٠٠٠ ذكور و٢٣٤٤٠ إناث، وبلغ عدد عرب الشرقية بحسب تعداد سنة ١٩٣٧م نحو ٩٣١٩، ومنطقة القنال ٣٠٨، ومنطقة سينا وهذا بخلاف العرب الرحل البالغ عددهم ١٢٠٠٠ نفس، وبلغ عدد العرب في مصر بحسب تعداد سنة ١٩٢٧ نحو ٧٧٦٨٦، ولكن الثابت أن عددهم آنذاك في الشرقية ومصر كان أكثر من ذلك بكثير. بسبب زيادة النسل ولصعوبة إحصاء المنتشرين في أطراف الشرقية والصحارى آنذاك[2].

• معيشتهم

في أول قدوم العرب إلى الشرقية كانوا يعيشون على رعي الغنم والماعز والإبل والخيل والمتاجرة في نتاجها وأوربا رها وكانوا قومًا رُحلًا يتنقلون من مكان إلى مكان طلبًا للكلأ والمسرح وكانت طبيعة البلاد حينئذ أكثر مساعد لهم على ذلك كما ذكرت وكانوا يسكنون في خيام يطلقون عليها بيوت الشعر وهذه تكبر وتصغر بحسب طاقة كل أسرة وهم بارعون وسريعون في نصبها وكان شبان كل بيت يرعون الأغنام والماشية ويساعدهم العبيد وبعض النسوة

(١) إصدارات وزارة المعارف العمومية، ١٩٤٩م، ص٥٥.

(٢) مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية سنة ١٩٣٩م، ص٩٤؛ إصدار منطقة الزقازيق التعليمية سنة ١٩٤٩م، ص٥٠.

المسترجلات الكبيرات السن وأما باقي النساء والبنات فيبقين في مقر الأسرة يغزلن الصوف بالمغزل في أثناء قيامهم بالرعي وكلهم ذوو براعة في هذه الأعمال وكانوا إلىٰ عهد قريب موضع إعجاب في هذه الصناعات لجودة صناعتها وجمالها وثبات ألوانها غير أن الحضارة قضت علىٰ هذه الحرف الآن ولم يبق لها من أثر سوىٰ قطع من البسط (الأكلمة) ويقوم بصنعها بعض الأعراب الذين يسكنون أطراف المديرية وكان علىٰ النساء المقيمات فيٰ موطن الأسرة أن يعددن الطعام ويطحن الحبوب علىٰ الرحىٰ أو الطاحونة.

أما كبار السن فعليهم تدبير شئونها والبحث عن أماكن الكلأ، وكان يكوّن من بعض هؤلاء الكبار مجلس يسمىٰ (المجلس العرفي) يقضي في الخلافات التي تنشب بين أفراد القبيلة الواحدة أو بينهم وبين القبائل المختلفة وقد أتىٰ علىٰ هذه المجالس حين من الدهر كان معترفًا بها من الحكومة.

ويلاحظ أنه منذ عهد محمد علي باشا أخذ الاهتمام بوسائل الري يزداد وزادت معه مساحة الأراضي وضاقت أراضي المراعي فرحل كثير من عرب الشرقية إلىٰ أطراف المديرية شمالًا وشرقًا وجنوبًا ولا يزالون حتىٰ الآن يعيشون عيشة البداوة ومعظمهم من قبائل المشارقة والبياضيين وهيتم والمعازة وهم لا يخالطون الأهالي إلا قليلًا وذلك في الأسواق عندما يذهبون لشراء ما يحتاجون إليه من المأكل والعلف والحبوب والملابس أو في الصيف عند ما تجدب الأرض فينزحون إلىٰ الريف حيث يجدون المراعي وبقايا القمح والفول والشعير والبرسيم التي حصدت فيضربون خيامهم في أقرب مكان للرعي وقد ينزحون إلىٰ الريف في الربيع لشراء البرسيم الأخضر لرعي لماشيتهم.

وأما بقية عرب الشرقية فقد أصبحت معيشتهم خليطًا بين البداوة والحضر؛ إذ يزرعون بعض الأرض ويبنون المساكن والمضايف والاستراحات مع محافظتهم علىٰ خيامهم وأغنامهم وماعزهم وإبلهم وخيلهم يسرحونها إلىٰ أماكن الكلأ، وتعود

من حين لآخر لترعي الحشائش والبرسيم وبقايا القمح والشعير والفول والبرسيم المحصود وأوراق القطن في أراضيهم الزراعية، وعلىٰ توالي الأيام وتقدُّم وسائل الري، اهتم العرب بالزراعة وأهملوا تربية الأغنام والحيوان وأصبحوا متحضرين وبعضهم يعتبر من أمهر الزراع، وقد احتفظوا بقليل من الأغنام والماعز والخيل التي يكفيها البرسيم وأوراق القطن وبعض الإعشاب في الأراضي الزراعية.

- **عاداتهم**

من عادات العرب في الشرقية الكرم حتىٰ يكلف أحدهم نفسه ما لا يطيق ليكرم ضيفه والأخذ بالثأر والاعتداد بالنفس والكبر وحب السيطرة وحب الظهور وأن يحترم صغيرهم كبيرهم حتىٰ أنه لا يشرب القهوة ولا يدخن ولا يمزح في مجلسه واستمروا لفترة طويلة لا يخالطون بقية المصريين ويصاهرونهم ويسمونهم (الفلاحين) وكثيرًا ما كانت تقوم بينهم المناوشات ويقولون فيما بينهم: «نرميها السباع ولا نرميها للفلاح» ولكن الآن قد بدءوا يتزوجون من بناتهم ولكنهم لا يزوجون بناتهم منهم إلا نادرًا وكانوا يتفاخرون بكثرة العبيد أو كما يسمونهم (في جزيرة سعود التابعة لمركز الحسينية بالشرقية) «الحبة السمراء»[١]، ولا يزال لديهم عدد محدود منهم وسبب ذلك أن العبيد ألفوا حياتهم ولم يقبلوا مفارقتهم ومنذ ما يقرب من عقدين أو أكثر من الزمان كانوا يكرهون التعليم ويحتقرون من يذهب إلىٰ المدارس ولكنهم الآن بدءوا يرسلون أبنائهم إلىٰ المدارس ويوجد عدد كبير منهم أصبحوا أعلامًا في الأدب والطب والمحاماة وقد أظهر بعضهم ونباهة وهم في قرارة أنفسهم لا يحبون الاشتغال بالفلاحة.

ولكن فشو الكرم في الشرقية حبب إلىٰ العرب مصاهرتهم ومجاورتهم مثل

(١) لقاء مسجل بالصوت والصورة مع الشيخ الطحاوي سعود من مشايخ العرب الطحاوية بجزيرة سعود مركز الحسينية بمحافظة الشرقية يوم ٢٠٠٨/٤/١١م.

قبيلة «طيئ» التي صارت مضرب الأمثال الشعبية في الكرم وخاصة حاتم الطائي الذي صار الكرم مرتبطًا باسمه فقيل الكرم الحاتمي. وقد استقرت قبيلة طيئ في أطراف الشرقية وعلى حدودها وعلى طول الحافة الرملية في شمال سيناء وفي دمياط وما حولها وفي ناحية بني شبل (مركز الزقازيق) ومنزل حيان (مركز ههيا) والمعينة (الهجارسة - مركز كفر صقر شرقية).

فضلًا عما كان لقبيلة جذام اقطاعات في الشرقية منها هربيط وتل بسطة ونوب وغيرها، ولهذا السبب على ما يبدو اشتهرت العديد من مناطق الشرقية التي استقرت فيها بطون قبيلة جذام بالكرم الشديد من تلك المناطق بلدتي الجواشنة (مركز ههيا) والجواشنة (مركز السنبلاوين) نسبة إلى بطن الجواشنة وهم بنو جوش بن منظور بن بعجة المضروب به المثل في الكرم والشجاعة.

ولدينا أسر كثيرة هوت إلى هوة الفقر في الشرقية من جراء ذلك ولكن بيوتها المجيدة لا تزال تنطق بالفخار لتلك الأسر العريقة في الكرم والوفاء حيث آثروا غيرهم بالثراء الذي حققوه حيث نشب الغلاء وحدث الجدب والقحط في مصر أيام الشدة المستنصرية فهب (طريف بن مكنون) أحد أبناء قبيلة جذام بالشرقية يمد الموائد في مضيفته لتتسع لاثني عشر ألفًا يأكلون عنده كل يوم حتى اضطر إلى أن يهشم الثريد في المراكب وتحمل اللحم والثريد عبر الخلجان والترع لتسد حاجة الجوع ولم يتوقف الكرم النابع من الشرقية عند هذا الحد بل أن مهنا بن علوان وهو من بني بعجة الذين استقروا بالشرقية حين طرقه الضيوف في فصل الشتاء ولم يجد حطبًا يوقده ليدفئ ضيوفه ويصنع لهم الطعام فاستخدم أحمال من أعواد القمح بمحصولها (بشمارها) فجعلها وقودًا محتذيا في ذلك بما فعله حاتم الطائي حين نزل به ضيوف ولم يجد ما يسد رمقهم به سوى حصانه الوحيد فذبحه لهم واستحق بذلك أن يعد مثلًا للكرماء والكرم الحاتمي[1].

(١) عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور (الطبعة الأولى، دار الإسلام للنشر ٢٠٠٤م)، ص١٧٧.

وعرب قبائل الشرقية عندهم عناد ويمليون إلىٰ تسمية أبنائهم بأسماء مخيفة أو ثقيلة علىٰ السمع مثل (حنظل - وغومة - وفدغم - وضرغام - متعب - زعار - ومناع) ويسمون عبيدهم وبناتهم أسماء مبشرة أو مفرحة أو خفيفة علىٰ السمع مثل فرج وسعيد وسعد ومصباح وسعدة وعزيزة وغالية وذلك لأنهم يعتقدون أن للاسم تأثيرًا في أذن السامع وفي إيحائه؛ ففي جانب الرجل يخيف الاسم عدوه، وفي ناحية العبد والمرأة يطمئن الاسم السامع ويشرح صدره.. وفي ذلك يقولون:

أسـماؤنا لأعـدائنا　　　وأسماء عبيدنا لنا[1]

الحال نفسه في نظرتهم لتسمية خيولهم العربية الأصيلة فهم يسمون خيولهم بأسماء قوية حماسية تبعث علىٰ الهيبة والاحترام والخوف لدي من يسمعها ومن تلك الأسماء التي يطلقونها علىٰ خيولهم: دهمان، المعنقي، صنديد، مشعان، جدعان، ناصر العرب، فارس الصحراء، جدران، ابن الليل، فارس العرب. ولهم وجهة نظر في ألوان خيولهم؛ فهم يرون أن اللون الأبيض واللون الأشهب (لونه أبيض والذيل أسود) هما أكثر الألوان تحملًا للعطش، ثم يرون أن اللون الأحمر واللون الأدهم (مابين الأحمر والأسود) واللون الأسود هم أقل الألوان تحملًا للعطش وأكثرهم عرقًا، ومن الألوان الأخرىٰ؛ الأشقر، الماوردي، والكستنائي والأزرق الحديدي (لون الحديد وشعره أميل للأسود)، وقد يأتي المهر المولود لأبيه أو لأمه أو لأجداده في اللون وفي الحجل فلا غرابة في ذلك. ويفضل عرب الشرقية الحجل (البياض في أيدي وأرجل الخيل) في الخيل ويبحثون عنه عند الميلاد مباشرة، وهناك بعض الصفات التي تتوارثها الخيل من أجدادها من الرشاقة والجمال والحجل ومن الممكن أن تستمر هذه الصفات حتىٰ الجيل الخامس.ومن بعض مجاريدهم (أشعارهم) في الخيل قولهم:

---

(١) عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور، ص١٨٥.

شوقك شوق كحيلة الأصيلة(أحد بيوت الخيل)
تغلب في الميز(السباق)وصُباره
ما فيها من الشين(العيب)وقية
تعجب في الناس النظارة
بالسوم(أعلى ثمن) الغالي مشرية
جيدة في الخيل وسيارة
وصاحبها عنده مالية
ما يطلب من واحد بارة(عملة)

ويحفظ كثير من عرب الشرقية وصفات طبية مفيدة ولهم ثقة فائقة في الكي والخزام ولهما عندهم فن يجيده بعضهم، كما يلجأ بعض الناس إلى عرب الطحاوية ومعهم آنية من الأواني ويطلبون قليلًا من لبن الخيل لمداواة بعض الأمراض، مثل أمراض العيون والأمراض الجلدية وما إلى ذلك من أمراض. وأيضًا يستخدم بعضهم سبيب الخيل (شعر الذيل) في علاج السنطة وهي أن تربط السنطة بالسبيبة حتى تجف وتسقط. وترى النساء أن للحدوة (برواز من الحديد يوضع أسفل الحافر ليحافظ عليه) علاقة بالخير الوفير، ويرون أن هذه التميمة تجلب عليهم الرزق والفأل الحسن.

ومن الاعتقادات الشائعة أنه إذا كان عند جارك فرس فافتح بينك وبينه نافذة ليأتي منها الخير، وتربط خرزة زرقاء زجاجية في عرف أو ذيل الفرس أو شعر سنام الجمل ليجلب الحظ السعيد. بل وأدوات الخيل وكل ما يلزم الخيل عند عرب الطحاوية يصنعونها بأنفسهم، فهم ينسجون بأيديهم (مقاود) الخيل أي (الأمراس) المنسوجة من صوف الأغنام الطبيعي، والمغزول عندهم ذي الألوان الطبيعية (الأبيض، البني، الأسود) وكذلك ينسجون شرائح (العدة العربي)

وبعض (الخراج)[1] والتي تعلق على المسند الخلفي للعدة العربي وفيه جيبان يستخدمهما الفارس في حمل أغراضه الخاصة وأدوات القهوة وذلك أثناء ترحاله وسفره، فهم يستخدمون لقيادة الحصان (القرطمة)[2]، وهي تحل محل اللجام فهم لا يستخدمون اللجام بالمرة ولكنه يستخدم مع الخيل الشرسة الصعبة المراس، ويستخدمون مع القرطمة (الرشمة)[3] على أن تكون سيورها مصنوعة من الصوف الطبيعي ذي الألوان الطبيعية وأحيانا يزينون حزام الرأس (عدار)[4] بالودع مع استخدام الصوف المنسوج بأيديهم.

وأحيانًا يصنعون من الصوف أيضًا (لبب)[5] به بعض الكراريت (شرابات) المدلاة ويعلق على صدر الحصان وينتهي أطرافه بالمسند الأمامي للعدة العربي، إلا أنهم لا يفضلون ذلك ويكتفون بلف المرس الصوف أو الشعر حول رقبة الحصان وعقده بعقدة معينة جميلة. أو ربط المرس في المسند الأمامي للعدة ويقومون بترك باقي المرس وبه عقدة السيف فيسمونها عقدة السيف وهم مهرة في صناعتها وحلها لها شكل جميل راق ومعبر.

لا بد من وضع قلادة من الصوف تتمشى مع لون الخيل منذ صغرها ويغيرونها مع مراحل السن، وهذه تزين الفرس وتمنع الحسد؛ لأن الحسد معروف في عالم الخيل فيجعل من ينظر إلى الفرس يحول نظره إلى القلادة[6]، ويحفظ كثير منهم وصفات طبية عربية مفيدة ولهم ثقة فائقة في الكي والخزام عندهم

---

(١) الخراج: جمع خرج وهو يصنع من الصوف الطبيعي.

(٢) أخف حدة من اللجام ويستخدم مع الخيل الناضجة من سن سنتين فأكثر.

(٣) وهي لركوب المهارة وهي سلسلة من الحديد ويخرم بها فم المهر ويستخدم أيضًا مع القرطمة لربط الحصان منها.

(٤) وهو ما يلف حول رأس الفرس ويحمل الرشمة وتزين بأشياء كثيرة ويكون خفيفا وشحيحا.

(٥) لبب: وشاح من الصوف يوضع على صدر الفرس وتتدلى منه بعض الكراريت الجميلة.

(٦) الطحاوي سعود لقاء مسجل يوم ٢٠٠٨/٤/١١م بجزيرة سعود حسينية بالشرقية، وانظر: الطحاوي سعود الخيول العربية مجلة الفنون الشعبية، العدد٦٦/٦٧، صفحات متنوعة.

فن يجيده بعضهم وكثيرًا ما أبرأ الكي والخزام ووصفاتهم العربية مرضى استعصى علاجهم على الأطباء، ونساء عرب المشارقة محجبات ولا يخالطن الرجال إلا لضرورة العمل، وأما نساء الغرب فسافرات ويخالطن الكبار منهن الرجال بعد الزواج.

• ملابس عرب الشرقية

وزي العرب في الشرقية على أنواع كثيرة فرجال المشارقة يلبسون الطاقية الصوف أو الوبر (والكوفية) والعقال ونساؤهم يلبسن نقابا محلى بقطع من الذهب أو الفضة وعرب الغرب يلبسون الطربوش المغربي لا يعتمون عليه وبعضهم يلبس العمامة والشملة (الحرام) والبعض يلبس العقال والطاقية (الكوفية كعرب الشرق).



صورة لعربي من الشرقية يلبس الكوفية والطاقية والعقال

الصورة تعود لعام ١٩٣٠م تقريبًا

وكانوا إلى عهد قريب يلبسون جلاليب من الصوف من غزل ونسج وصبغ أيديهم ويغلب على جميع رجال العرب لبس العباءة ونساء عرب الغرب سافرات ويتميز كل نساء العرب بلبس حزام عريض أحمر أو أبيض ويلبسن الحلي من الذهب أو الفضة في أنوفهن (الشناف) وآذانهن وأصابعهن ومعاصمهن (الدملج) وأرجلهن (الخلخال) ونحورنهن وكلما كانت الحي كبيرة كلما دل ذلك على ثراء لابسته ولو أدى إلى تشويه أذانهن وأنوفهن ويتخذن الوشم الأخضر على الشفة السفلى والذقن وظهر اليدين للزينة.

ولهجة عرب الشرقية عربية محرفة وتختلف في جهة عن الأخرى فمثلًا (يا وِلد بدل يا وَلد ويا بِنِت بدل يا بِنْت والجمل بدل الجمل وهاضيش بدل ما هذا والغلا بدل الحب، وغادي بدل هناك وإقهوي بدل قهوة).

- **نظام المقاضاة عندهم**

ولعل أحسن العادات عندهم هو نظام المقاضاة، والقضايا نوعان: نوع خفيف وفي هذه الحالة يذهب الطرفان إلى قاض من قضاة العرب وهم أشخاص مشهور عنهم الاستقامة والصدق والعدل وقوة الحجة وعادة لا تخلو كل قبيلة من عدد من الرجال تتوافر فيهم هذه الصفات ويرضى الطرفان بحكم القاضي وينفذونه في الحال أو بعد مدة وجيزة يحددها القاضي. أما النوع الثاني وهو المهم إذا كانت الخصومة شديدة لسبب من الأسباب فيذهب الطرفان المتخاصمان إلى رجل محترم من أفراد القبيلة ويجتمع الطرفان في منزله ويسمى صاحب المنزل في حالة (ملم) أي جامع سر الاختصام في منزله وهذا الرجل عليه أن يختار ثلاثة قضاة من رجال العرب ويعرض الأسماء الثلاثة على المتخاصمين، وعلى الطرف الأول أن يختار اثنين من الثلاثة، ويهدف الثالث أي لا يقبله، وعلى الطرف الثاني إن يهدف قاضيًا من الاثنين فيكون الطرفان قد قبلا التحكيم إلى قاض واحد ثم يذهب الطرفان إلى هذا القاضي في موعد محدد وأول ما يفعله القاضي أن يحدد مبلغًا من المال يدفعها كل طرف الخصومة ويسمى هذا المبلغ (الرزقة) وهذا المبلغ يظل عند القاضي حتى ينتهي الفصل في الدعوى فيأخذ القاضي مبلغ المحكوم عليه أما الآخر فإن مبلغه يرد إليه وهذه الرزقة يأخذها القاضي نظير ما صرف من مأكل ومشرب وغيراهما، وفي كثير من الأحيان يرفض القاضي هذه الرزقة إذا كان موسرًا وبعد أن تقدم كل من طرفي الخصومة الرزقة يطلب القاضي من كل منهما ضامنًا ويسمى عند العرب الكفيل. يقوم بكل ما يتأخر فيه صاحبه.

وفي يوم الجلسة يطلب القاضي من كل طرفي الخصومة شخصًا ليدلي بحجته أمام القاضي وبعد سماع المرافعة وحجج كل فريق يصدر القاضي حكمه فإن قبل الطرفان هذا الحكم نفذ في الحال أو في مدة يحددها القاضي وإذا لم يقبل أحد من الطرفين هذا الحكم هذا الحكم تحال القضية على القاضي الثالث وفي هذه الحالة ينفذ الحكم الذي وافق عليه اثنان وهذا مجمل وجيز لنظام القضاء عند عرب المشارقة.

وهناك حكم فصل للقضايا المهمة التي لا يوجد أدلة وألا وهي (البشعة) وهي عبارة عن آنية من معدن كالنحاس أو الحديد لها يد طويلة تبلغ نحو ٦٠ سنتيمترًا وقطرها يبلغ نحو ٢٠ سنتيمترًا وصاحبها رجل يسمى جربيع من عرب المشارقة بمدينة بلبيس بالشرقية والطريقة أن يذهب إلى جربيع هذا كل من المتهم والمتهم ويدفع المتهم مبلغًا من المال لجربيع الذي يضع كومه من الخشب ويشعل فيها النار ويحمي فيها البشعة حتى تحمر تمامًا وفي أثناء ذلك ينصح المتهم إن يصدقه القول ويعترف فإذا لم يعترف وأصر على لحس البشعة كشف جربيع على فمه ولسانه وأخرج البشعة من النار ومسحها بيده وقدمها لمتهم ليلحسها بلسانه وهم يعتقدون أنه إذا كان بريئًا فأنه لا يصاب بسوء أما إذا كان مذنبًا فأنها تضره ضررًا بليغًا ولا أدري ما السر في هذه الآنية اللَّهُمَّ إلا إذا كان الاضطراب والرعب يجفف الريق في حالة الشخص المذنب فتكون النتيجة وهو مطمئن القلب بمجرد لحسها في حين أن الاطمئنان والهدوء في حالة الشخص البري يجعله يقدم عليها وهو مطمئن القلب في تصيبه بسوء وكثيرًا ما دفعت هذه البشعة بعض المذنبين إلى الاعتراف وكثيرًا ما كانت سببًا في حقن الدماء وعادة لا يلجأ إلى البشعة ألا في الأمور المهمة كالقتل والأخذ بالثأر وجربيع هذا لا يبشع الفلاحين مطلقًا ولا يبشع عرب الغرب ألا نادرًا[1].

(١) لقاء مع بعض عرب الطحاوية يوم ٢٠٠٨/٤/١١م؛ مجلة مدرسة الزقازيق سنة ١٩٣٩م، ص٩٩.

ونظام التقاضي عند عرب الغرب يختلف قليلًا عنه عند عرب الشرق وذلك أنه عند حدوث أية خصومة يعقد ما يسمى المجلس العرفي وهو يشكل من قاضيين أو أربعة كل طرف النصف من بين الرجال المعروف عنهم العدل والفراسة وحصافة الرأي ويشتهرون بأنهم قضاة العرب ثم يجتمع القضاة في مقر الأسرة أو القبيلة التي حدث فيها النزاع وقد يجتمعون ويقررون ما يسمي حق العرب يدفعه كل كأمانة تحت يد القضاة وهو عبارة عن مبلغ من المال يكبر ويصغر بحسب أهمية النزاع فقد يكون خمسة جنيهات أو عشرة وقد يكون مائه أو مائتين ثم يدلي كل طرف بحجته ثم يجتمع القضاة ويصدرون حكمهم فمن كان مذنبا ضاع وأعطي للأخر كما ترد للبري أمانته وقد يتناول صاحب الحق عن حقه فتصفو القلوب وتزول الأحقاد وكثيرًا ما تعترف الحكومة بأحكام المجالس العرفية.

- **الألعاب الشعبية عند قبائل عرب الشرقية**

أنهم يهوون اقتناء الخيل وهم مهرة في تربيتها وتدريبها وركوبها ويعتقدون أن الخير معقود بنواصيها ويعرفون بيوتها وأنسابها وأحسابها، ويدربونها على جميع ألعاب الفروسية من كر وفر ورقص على المزمار والطبل وركوع ونوم وغيرها ويجب هنا أن نذكر أن الخيل تنسب لأمهاتها لا لآبائها فهذا الحصان ابن فلان ولكنه من بيت أمه - الدهمة مثلًا.

ومن بيوت الخيل التي أحضرها عرب الطحاوية وعليها تأسست مرابطهم (الدهمة - العبية - الصقلاوية - التامرية - الخلاوية - الشعيفية - النواقية - الشويمة - المعنقية - الخرساء - الكحيلة) وتتفرع من هذه البيوت فروع كثيرة، وعندما عمل عرب الطحاوية على شراء أمهات الخيل واستقدامها من الشام

عمل كل شيخ على شراء أنواع من الخيل تختلف عما يقوم أخوه بشرائه من بيوت الخيل، ليتمكنوا من التبادل فيما بينهم من الطلائق الإنتاج[١].

ويحبون الرماية والصيد والقنص إذا يخرج بعضهم في الربيع والخريف على ظهور جيادهم وهجنهم ومعهم كلاب الصيد (السلوقي) والصقور والشواهين والعبيد والأدلاء والزاد والخيام إلى إطراف الشرقية وإلى سيناء وساحل البحر الأحمر لصيد الحيوان كالغزال والبدن والأرنب البري، أو الطيور كالحباري والسمان والقطا والحجل والخضاري والبلبول وأبو فروة، ويحطون رحالهم في أحد الأدوية كوادي الجفرة أو وادي الوطن، ويخرجون من هذا المكان للصيد والقنص، وطريقتهم في ذلك أن الصياد يتبع أثر الصيد ويطارده فإن كان غزالًا أطلق في أثره صقرين أو ثلاثة بعد رفع الغطاء عن عيونها وتوجيهها نحوه، وإن كان أرنبًا اكتفى بصقر واحد، وإن كان بدنًا لا تطلق الصقور في أثره لأنها تخشى قرونه الطويلة ثم يطلق كلب أو الكلاب في أثره كذلك فتطير الصقور حتى تكون فوق الصيد فتنقض عليه وترفرف بأجنحتها على عينيه ووجهه وتنشب مخالبها فيه فتعطل حركته حتى يدركه الكلب فيمسك به من رجله ويزيد في تعطيل حركته ويأتي الصياد ويأخذه، وكثيرًا ما يستعمل الصياد بندقيته وخاصة في صيد الطيور وقل أن يخطئ الصياد الهدف سواء كان الطير حاطًا أم طائرًا وكثير من العرب يفضل صيد الطائر وهو طائر، ورياضة الصيد والقنص رياضة مفيدة تكسب العرب صحة وعافية وتروح عن نفوسهم وهم يعتقدون أنها تذبل الأمراض وتشفى العلل لركوبهم ومشيهم في الهواء الطلق[٢].

(١) لقاء مسجل مع الشيخ الطحاوي سعود، والشيخ الدكتور حاتم الطحاوي يوم ٢٠٠٨/٤/١٥م.
(٢) الشرقية وسيناء، مرجع سابق، ص٥٥.



الكلاب السلوقية والصقور أهم أدوات قبيلة الطحاوية في الصيد
الصورة ترجع لأوائل القرن العشرين
والسهم يشير إلى موقع العبيد في القبيلة والذين يطلق عليهم (الجبة السمراء)



الصقور والعبيد في خدمة القبائل العربية بالشرقية
الصورة ترجع إلى عام ١٩١٠م ويلاحظ موقع العبد وسط أسياده

• ومن أمتع ألعابهم الشعبية: لعب الجريد

وهي تقام في الموالد والأفراح وفيها يقف الفرسان بعضهم في مواجهة بعض على بعد مائتي متر على الأقل وكلما زاد عدد الفرسان على خمسة في كل صف كلما كان ذلك أدعى إلى السرور، ويقوم فارس من أحد الصفين جريًا حتى يقابل زميلة الآتي من الصف المقابل فيلمسه بعصاه (جريدته) أو رمحه ويعود بسرعة إلى صفه وزميله يطارده بدون أن يمكنه من أن يلمسه بعصاه وإلا عد مغلوبًا؛ وقد يجري الفارس وراء منافسة ويرميه بعصاه فإذا أصابه عد غالبًا وإذا لم يصبه عد خاسرًا.

وأما إذا تمكن الفارس المطرود من التقاط العصا التي رمى بها وسددها إلى زميله فكأن الرامي الأول قد قتل بسلاحه، وفي ثلاثينيات القرن الماضي كانت هذه اللعبة رياضة محببة طالما كان الحقد والعداوة بعيدين عنها فلما استغلت للانتقام ونتجت عنها أضرار ابتعد عنها العرب وأوقفتها الحكومة إلى أن عادت باستحياء هذه الأيام.

وكان من ألعابهم القديمة لعب البارود وكانت قديمًا تقام في الأفراح أمام موكب العروس، وفيها يرمح الفرسان أمام هذا الموكب مظهرين براعتهم في

الفروسية، وقد يقف الفارس على ظهر جواده وهو يجري بأقصى سرعته ويطلق بندقيته، وقد يضطجع على جنب جواده بحيث تظهر ماسورة البندقية أمام صدر الحصان ثم يطلقها وهكذا. أما الآن فقد ظلت هذه الألعاب موجودة ولكن بدون نيران بسبب تضييق جهات الأمن المصرية على ترخيص الأسلحة وبرغم ذلك لا يزال يحتفظ العديد من عرب الشرقية بأسلحتهم القديمة والأثرية التي توارثوها عن أجدادهم، وقد أطلعني بعض عرب الطحاوية على أسلحة تاريخية لديهم بالإضافة لأسلحة حديثة يستخدمونها لحمايتهم أحيانًا، وخاصة تنشط تلك الأسلحة في الانتخابات المحلية والشعبية.

- **دق الكف**

وهي تقام في الأفراح؛ إذ يحتشد قبل العرس بنحو الشهر كل مساء شبان البلدة والبلاد المجاورة لها ويقفون على شكل نصف دائرة ويصفقون مع مد أيديهم إلى الأمام وجذبها إلى الخلف بنظام واحد ويرتلون بعض الألفاظ بنغمة واحدة وترقص أمامهم امرأة أو بنت محجبة لا يظهر منها شيء حتى وجهها وتلبس (حراما) يلف بشكل خاص من وسطها وتحزم فوقه بشكل خاص أيضًا وتمسك في يدها عصا أو سيفًا أو بندقية، وتسير أمامهم وهي تحجل وترقص بهز جسمها متنقلة من طرف نصف الدائرة الأيمن إلى طرفها الأيسر وبالعكس ومتقدمة ومتأخرة ويطلق عليها (الحجالة أو الببه) وكل ربع ساعة تقريبًا يقف التصفيق والرقص. ويبدأ أحدهم بإلقاء ثلث أغنية مترنمًا ورافعًا صوته ثم يستمر التصفيق، وأخيرًا يغني الثلث الأخير ويعيد معه الثلثين السابقين، وعند الانتهاء منها يهلل الجميع وتطلق طلقات نارية كثيرة. وهذه الأغاني ذات معاني مختلفة: فمنها ما يكون دائرًا حول الغرام أو النجوى أو الشجاعة، ومنها ما يكون دائرًا حول التغزل في (الحجالة) أو مدحها.



دق الكف بالشرقية

(الصورة من حفل زواج أحد شباب قبيلة الطحاوية بجزيرة سعود .. ويبدأ الدق بعد صلاة العشاء لمدة ٧ أيام متواصلة)

ولكل أغنية دحاء خاص يتغنون به في أثناء تصفيقهم، وقد يرتل أحدهم ما يسمى (المجرودة) وهي قصيدة طويلة دارجة في مدح الخيل أو الصقر أو الغزال أو الحجالة أو في الغرام.

والويل لمن اقترب من الحجالة فسرعان ما تضربه على يده بالعصا أو السيف، وقد يخرج من بين المصفقين رجل يلعب بالعصا أو السيف مع (الحجالة) محاولًا لمسها وهي تحاول منعه ولمسه، ويعتبر مغلوبًا مَن لمس وينسحب من الميدان. وهناك في الدحية عند العرب ما يطلقون عليه (بوشان)[١] وذلك عند أفراحهم، وهو موال عربي يقول:

(شعرك يا بنت سبيب خيل ويا بنت علقي على الخيل وكثري للأدهم عليقة بكرة سوق الاثنين لمي الحصي من طريقه).

يرى عرب الشرقية ويتفق معهم الكثير من العرب بسائر أنحاء مصر في أن الخيل تطرب[٢]. وتطرب إلى الطبول والمزمار البلدي، ولكنهم يرون أن الخيل

(١) موال يطلق أثناء الدحية.

(٢) تميل إلى الأنغام والموسيقى.

تطرب في مرابطها لا نتيجة لأدب وتعليم، ويرون أيضًا ويؤكدون أنه لا علاقة بينهم وبين من يعملون على أدب الخيل بالمرة. فالخيل عندهم كسائر أبنائهم فهم لا يسمحون لابنتهم أن ترقص كما لا يسمحون لخيلهم كذلك، ويرون أنه من العار أن يرقص الحصان والحصان الذي يرقص يطلقون عليه النار في التو والحين. فخيلهم لهم ولعزهم وجاههم وللإنتاج ولرياضاتهم المختلفة وخيلهم للحرب وللكر والفر[1].

- **ومن أمثلة أغانيهم**

(اللِّي غَلاهُ[2] بِالتَّحْنِين[3] إِنْسَاه يادَلِيلي[4] وَاتْرُكُهُ)

ومعناها: (الذي لا يجدي في حبه التحايل ويصر على الصد اتركه يا عقلي)

وحداؤها: (قديم الغية ينسي ليه)

ومن أمثلة المجرودة:

عِينَكْ عِينْ فَرِيدٍ[5] أَرْيَل[6] غريب ومكانه الأوعار[7]

إِلِّي رَاعَ[8] الْقَنَّاص اجْفَل[9] وروّح مرعوب[10] ومحتار

خايف ما لصَّقْرِ القاتل نِدَاوي[11] مِتْكُوبِ بِجَمَارْ

---

(١) الطحاوي سعود: لقاء مسجل ١١/٤/٢٠٠٨م.

(٢) الحب.

(٣) التاحيل.

(٤) عقلي.

(٥) غزال.

(٦) جميل.

(٧) الجهات الوعرة.

(٨) رأي.

(٩) خاف.

(١٠) خائف.

(١١) الصقر الطويل الجناحين.

والحقيقة أن كف العرب هو أحد فنون القبيلة، وهو عبارة عن نص قولي يقال في مناسبة معينة، بمراسم معينة، وغالبًا ما تكون الأفراح هي الزمان المناسب الذي تقام فيه مراسم الكف.

وإذا كان عرب قبائل الشرقية مثل قبيلة الطحاوية يقيمون «كف العرب» الآن، في أفراحهم فقط، فإنهم كانوا يقيمون هذه الاحتفالية منذ عشرات السنين في بعض المناسبات الصغيرة، مثل: ختان الأولاد، وليالي السمر الصيفية، ويمكن تفسير اقتصار طقس كف العرب، الآن، على حفلات الزواج، بسبب تعقيدات الحياة الحديثة، فضلًا عن عدم توافر الوقت الكافي لممارسة مراسم هذا الاحتفال، وتدخل العامل الاقتصادي، بالإضافة إلى ندرة الرواة والمنشدين، الذين يحتاجون إلى مواصفات خاصة لقيادة «كف العرب»[(١)].

عند تحديد ميعاد العرس الطحاوي، يقوم أهل العريس بدعوة أفراد الأسرة الكبيرة، وذلك عن طريق أحد العبيد[(٢)] لدعوة الرجال، وواحدة من العبيد لدعوة النساء، مع التنبيه عليهم بضرورة حضورهم قبل المغرب، وذلك لكي يتناول الجميع طعام العشاء قبل البدء في الكف. ويجب ملاحظة أن هذه الدعوة تكون قبل موعد العرس بأسبوعين كاملين يتم فيهما أداء كف العرب يوميًّا من بعد تناول العشاء إلى منتصف الليل تقريبًا.

---

(١) طريقة كف العرب اعتمدت فيها بشكل أساسي على الشرح المفصل الذي أهداني إياه الشيخ سعود الطحاوي وولده حسام الطحاوي وابن عمهما الصديق الدكتور حاتم الطحاوي المؤرخ المعروف، وهم من أكابر مشايخ قبيلة الطحاوية بجزيرة سعود بالحسينية بمحافظة الشرقية يوم ٢٠٠٨/٧/١٣ أثناء تصويري الميداني لدق الكف العربي في زواج أحد أفراد القبيلة، وقد لاحظت كثرة وجود الأسلحة النارية المستخدمة في الفرح بين مختلف الأعمار الشيوخ والأطفال والشباب!!

(٢) العبيد: تعني هذه الكلمة لدى عرب الطحاوية: الخدم (رجال - نساء) سود البشرة والذين يعيشون معهم منذ مئات السنين. ولا تحمل هذه الكلمة أي مدلول اجتماعي قهري؛ لاختلاف دلالات العلاقات الاجتماعية بين الطحاوية والعبيد؛ حيث تتميز هذه العلاقات بخصوصية تجعلها بعيدة عن الاستدعاءات الكريهة للكلمة.

وحين يبدأ الطحاوية في الوفود علىٰ منزل العريس، يكون أهله قد أعادوا تنظيم المضيفة، وعلقوا عليها الرايات البيضاء، بعد طلاء المضيفة بالجير، وكذلك فرشها بالرمال الصفراء ثم بالسجاجيد المشغولة يدوياً، ويقوم أحد العبيد علىٰ خدمة القهوة والشاي والماء، وكذلك علىٰ النيران المشتعلة والتي توقد عند مغرب كل ليلة من ليالي الكف.

وفي المضيفة يتسامر المدعوون - الذين هم في الغالب من داخل القبيلة فقط - فيما جرىٰ عصر اليوم في «الصابية»[1]، وكيف أن تلك الفرس الدهماء[2] قد هزمت ذلك الأشقر التامري[3].

وفي حين يجلس الرجال في المضيفة وأمامهم تجلس النساء في مكان آخر، غالبًا ما يكون أمام منزل أهل العريس مباشرة بحيث يكون مجلسهُن بعيدًا عن الضوء حتىٰ لا يراهن أحد، بينما يتمكّنَ من متابعة كف العرب، وهنا تبرز حكمة تحديد ميعاد العرس في منتصف الشهر العربي، حيث تسير ليالي الكف مع بداية ميلاد القمر، الأمر الذي يساعد علىٰ وصول القادمين من النجوع البعيدة، فضلًا عن توافق الليالي الأخيرة لكف العرب مع ارتفاع درجة الاهتمام بتجويد الكف وطقوسه، حيث تشتعل المنافسة فيه بين الرواة وبعضهم البعض، وحيث تمتاز الليالي الأخيرة السابقة للعرس بزيادة عدد الحاضرين، الأمر الذي يسهم في إكساب طقس كف العرب صورته الكاملة.

ويجب أن يتمتع الراوي بمواصفات خاصة، أولها أن يكون ذا صوت عذب وعال، حتىٰ يسمعه الرجال والنساء الجالسين في مكانين مختلفين وبعيدين عن بعضهما البعض، كذلك يجب أن يكون الراوي قد تربىٰ في أوساط كف العرب،

---

(١) الصابية: هي سباق للخيل يتم أمام منزل العريس يوميًا (أيام الكف)، من بعد صلاة العصر حتىٰ صلاة المغرب وتسمىٰ الميز.

(٢) الدهماء: المقصود هنا أحد بيوت الخيل التي تتميز بسواد لونها.

(٣) الأشقر التامري: الأشقر أحد ألوان الخيل، والتامري أحد بيوتها.

ويحفظ العديد من المجاريد كما يمتلك فنون القول بالإضافة إلى معرفته بكيفية ملاعبة «الحاشي»[1]، وعلى الرغم من أن معظم الرواة يعدون من كهول القبيلة إلا أن الملاحظ أن العديد من شباب الطحاوية صغيري السن (٢٠-٤٠ عامًا) بدأوا يدلفون إلى موقع الراوي، يدفعهم إلى ذلك حنينهم واعتزازهم بتراث أجدادهم.

ويمكن ملاحظة الفارق بين الراوي الكهل، والراوي الشاب، فعلى حين يفضل الكهل التغني بالمجاريد التي تتحدث عن الفخر بنسب الأسرة، وتراثها، وكذلك بمجاريد الصيد والقنص بالإضافة إلى مجاريد الغزل، التي تتحدث عن المحبوبة نجد أن الشاب يستعين بمجاريد الغزل التي تتحدث عن المحبوبة، وتصف محاسنها، ومكامن الجمال، فيها وهو الأمر الذي أفاضت فيه مجاريد الغزل والعشق، كذلك يمكن القول إن وجود هذا العدد الكبير من الأعمام والأخوال والنساء يجبر الراوي الشاب على عدم إتمام المجرودة بشكل نهائي.

كما يهتم الراوي الشاب بذكر المجاريد التي تتحدث عن الفخر كما يعمد بعضهم إلى إلقاء مجاريد تعبر عن أحوالهم الحالية، وعن ذكرياتهم القريبة التي مروا بها من خلال سفر قريب، أو مرور بتجربة دخول الخدمة العسكرية، أو بالتعيين في وظيفة حكومية جديدة.

وثمة فارق منطقي يمكن ملاحظته بين الراوي الكهل والراوي الشاب، ففي حين يهتم الأول بذكر المجاريد القديمة ذات اللغة الصعبة، والمعاني المبهمة، والتي لا يعرفها سوى كبار رجال ونساء العائلة، فإن الراوي الشاب الذي يجد صعوبة في حفظ وفهم المجاريد ذات اللغة الصعبة يلجأ إلى حفظ المجاريد التي استحدثت بعد ذلك، والتي تمتاز بلغتها السهلة إلى حد ما، وخاصة إذا كان في بداية ممارسته لدور الراوي.

---

(١) الحاشي: هي فتاة من العبيد تعد (ما يستروا) الكف، تم التحدث عنها بالتفصيل خلال المتن.

ويبدأ «كف العرب» بحيث يقف من أهل العريس خمسة أفراد أو أكثر يمثلون صفًا واحدًا، وجوههم ناحية المضيفة والضيوف بحيث يتسنىٰ للحاضرين مشاهدتهم، وتكون أكتافهم إلىٰ جانب بعضها البعض ويقومون بالتصفيق صفقة تلو الأخرىٰ ببطء وهم ينشدون «خير نسسي علىٰ الزينين»[1]، وهذه هي بادئة كف العرب التي تميزه عن غيره من سائر فنون العرب، وان يكون التصفيق أوله مع (خير نسسي) وآخره مع (علىٰ الزينين)، بواقع صفقة مشتركة لكل مقطع.

وبعد بداية الكف بدقائق معدودة، يزداد عدد المشتركين فيه بشكل لافت، بحيث يشكلون صفًا واحدًا طويلًا، ويبقىٰ الصف علىٰ هذه الحال في انتظار الحاشي، حيث نسمع صوت إطلاق الأعيرة النارية من بنادق الخرطوش من ناحية منزل العريس، الذي يبعد دائمًا عن المضيفة نحو مئتي متر تقريبًا، التي تفصل بين المضيفة ومنزل أهل العريس. ويؤذن هذا بخروج الحاشي من منزل والد العريس إلىٰ حيث الكف في المنطقة التي تفصل بين المضيفة ومنزل أهل العريس.

وفي الغالب يذهب اثنان من أهل العريس لاستعجال الحاشي، والتي تقومن أخوات العريس وبنات عمه بمساعدتها في ارتداء زيها الخاص، وهو عبارة عن ثوب من القصب بحيث تلتف من وسطها حتىٰ قدميها بملاءة بيضاء، وتلف رأسها بشال خفيف شفاف محلي بالقصب ثم تضع علىٰ جبينها عصابة من القصب أيضًا، وكذلك عند معصميها.

ويمكن ملاحظة أن «الحاشي» كانت تمسك في يدها سيفًا، ثم تدرج الأمر إلىٰ بندقية، إلىٰ أن أصبحت الآن مجرد عصا.

وقديمًا - أيضًا - كانت «الحاشي» من أهل العريس، إلىٰ أن عمد أحد الرواة إلىٰ الكشف عن وجهها، فأصبحت بعد ذلك من العبيد. وهي تأتي نهارًا إلىٰ بيت

---

(١) خير نسسي علىٰ الزينين: بالخير نلقي التحية علىٰ كل الحاضرين وأهل الجود. وهي عبارة تقال في أول مجاريد ليالي الكف، ولا تقال عند باقي المجاريد في الليلة نفسها.

العريس، حيث تقوم بمساعدة أهل البيت، ويجب عليها أن تكون ذات خبرة بليالي كف العرب، وعلى دراية بملاعبة الراوي، وهي تعد بحق (مايسترو) الكف؛ لأن الجميع يعمل بإشارة من العصا التي تحملها كما أن الحاشي تعرف جميع الحاضرين بالطبع وتعرف المستوى الفني أيضًا للرواة، ويمكنها أن تطلب بنفسها أحد الرواة الذين يعجبونها، والذين يفهمون في أصول كف العرب حيث تجد راحة في الرقص أمامه والانفعال بكلمات مجاريده علاوة على الملاعبة التي تحدث بينه وبينها.

وأحيانًا تشارك الحاشي نساء العائلة الزغاريد عندما يبدأ في التغني بـ(مجرودة العرب)[1].. وعند قدوم الحاشي إلى حلقة (كف العرب) يتغير كل شيء فيزداد عدد المشتركين، في الكف ويعلو صوتهم، ويشتد بهم التصفيق، ويشتعل المكان حماسًا، وتعلو الزغاريد، في حين تتداخل أصوات البنادق في جو ملحمي فريد.

وتقف الحاشي على بعد عشرة أمتار من حلقة الكف عصاها إلى الأرض، ثم ترفعها إلى الأعلى، ويشتد التصفيق المنغم إلى الإسراع، وتدخل الحاشي عدوًا مارة بطرفي حلقة الكف ذهابًا وإيابًا ثم تقف أمام الصف، وتأخذ في الرقص بشكل ينسجم مع إيقاع الكف لمدة نصف الساعة تقريبًا حتى إذا أرخت عصاها إلى الأرض توقف الكف فورًا.

وقد تلقي الحاشي العصا على الأرض وهي ممسكة بطرفها، ويعد هذا دلالة على عدم رضاها عن حماس الصف الواقف أمامها، فيفهمون ذلك ويزيدون من إتقانهم حتى لا تلقي عصاها وقد يدخلون معًا في دور عناد حتى يكلون هم من التصفيق، ولا تتعب هي من الرقص ويضحكون لأنها قد أتعبتهم، ويبدو أن الليلة ستكون عظيمة.

---

(١) مجرودة العرب: هي مجرودة تفخر بأمجاد العائلة، ويذكر فيها سادات النجوع، مع وصف أعمالهم الجليلة والاحتفاء بها، بالإضافة إلى وصف ما يتسم به العرب من صفات، كالكرم والجود والفروسية والشهامة... إلخ والمقصود بالعرب هنا عرب الطحاوية.

وعند إشارة الحاشي يتوقف الكف ويبدأ أحد «المصوابين»[1] بإلقاء «العلم» - والعَلم: هو بيت كامل، ويكون في المدح أو الغزل أو الرثاء أو الهجاء، ويتم إلقاؤه قبل المجرودة، ويقال عنه أيضًا «حِجة».

وهناك مَن يغني العلم فقط، ولكن لا بُد من العلم عند إلقاء المجرودة، ولا تقوم للكف قائمة إلا بوجود العلم، علىٰ أن تكون المجرودة في وسط العلم. ويجوز أن تكون في نهايته بشرط ألا تكون هناك غرزة إلا بعد إلقاء المجرودة.

وبشكل عام، يفتقد المصوابون الشباب إلىٰ العلم، حيث أنهم يحتاجون إلىٰ من يغني العلم لهم قبل البدء في المجرودة وغالبًا ما يأتي ذلك العلم من أحد كبار المشتركين في الكف، ويكون واقفًا بجوار المصواب.

مثال للعلم:

بيني وبينهم ارسام حدود، كداب والله يا منام الليل.

مثال آخر للعلم:

شكيت وما قضي مشكاي، وجرح الاولاف كادني.

وإذا كان صاحب المجرودة (المصواب) قد أنهي العلم قبل البدء في المجرودة؛ فهي هنا تنتهي بالغرزة التي سبق شرحها، وإذا كان لم يُنهِ علمه، وبدأ المجرودة بالفعل، فعند نهايتها سيجد مَن حوله يطلبون منه أن يكمل العلم، ثم الغرزة. وعندما ينهض الجميع من الغرزة نسمع صوتًا جديدًا يبدأ بعلم جديد، مجرودة جديدة، ويجب علىٰ من يلقي العلم أن يأتي بـ«شتيوة»[2] جديدة، علىٰ حين تقف

---

(١) المصوابون: الصوب هو كف العرب بكاملة، ومصوابون جمع مصواب؛ وهو الذي يجيد الكف تمامًا، ويحفظ منه كثيرًا.

(٢) الشتيوة: هي البيت الذي يفتح به الكف وهي عبارة عن نصف بيت من الشعر، لكنه يحمل معنىٰ بيت كامل، ويجب ألا تتكرر في الكف وعلىٰ كل مصواب أن يأتي بجديد فيها.

والشتيوة منها ما هو مثلث مثل:

جرح العين بهن يداوي

(خير نمسي على الزينين) حتى بداية المجرودة الأولى في الليلة التالية. ويجوز لمن يغني العلم أن يأتي بالمجرودة أثناء العلم ويقوم بتكملته عند نهاية المجرودة، والجميع يعلمون ذلك ويطلبون منه أن يكمل العلم فيفسحون له، وليس من حق آخر أن يغني قبل أن يفرغ المصواب منه.

والعلم تأتي معه «الغرزة»[1]، وهو بيت من الشعر يغني أوله، ثم يعود إلى الشتيوة ومعه الجميع، ثم يغني آخره وهكذا ... وإذا أراد أن يختم العلم بدون إلقاء مجرودة فعليه أن يختمه بطريقة حماسية رافعًا يده إلى الأعلى مخاطبًا الحاشي بكلمات العلم، فتفهم الحاشي وتبتعد إلى أبعد من عشرة أمتار وترفع العصا إلى أعلى، ثم يأتي صاحب العلم بالشتيوة الجديدة ويلقيها الحاضرون معه في الصف ببطء رافعين أيديهم بالتصفيق إلى أعلى، إلى أن تبدأ الحاشي في العدو فتنخفض أيديهم، ويتمايلون جميعًا إلى الأمام بالتصفيق أيضًا، دون أن تتحرك أرجلهم في شكل مناوشة للحاشي ثم يعودون إلى ما كانوا عليه ويكررون هذه الحركة، إلى أن يلقوا بالساق اليسرى على الأرض ممددة ويجلسون على الساق اليمنى، وتجلس الحاشي على ركبتيها، ويبلغ الحماس أوجه ويصبح العناد واضحًا

= ومنها ما هو مربع مثل:

أبو دملج خايل في أيديه   أنا والناس عناد عليه

مثال آخر:

قلتلها يا العين إنسـيه   إتساهيني وتسيل عليه

والملاحظ على الشتيوة المربع أنها تكون على شكل بيت كامل يتفق شطراه، لكنها تكون صعبة على الكف، وخاصة إذا كان الكف ضعيفًا (قليل العدد) لأنها أشد من المثلث وتحتاج دائما إلى كف كبير إلا أنها تعمل على حماس الكف. وهي تقسمه إلى فريقين عند إلقائها فيغني الفريق الأول الشطر الأول، منها بينما يغني الفريق الثاني الشطر الثاني.

وينبغي على صاحب الشتيوة عند بدايتها أن يلقيها كاملة وبصوت واضح وعال، ليسمع ويفهم الصف كله وليعرف كل فريق دوره فيها

(١) الغُرزة: هي حركة تمايل يتم تنظيمها بين الحاشي والصف الموجود أمامها، على أن تقوم الحاشي بدور (المايسترو) خلالها، وهي تحدث عند نهاية العلم أو المجرودة.

بينها وبينهم، إذا تعبت هي توقف الكف، وإذا تعبوا هم لا تتوقف الحاشي عن رقصها.

ويأخذ كف العرب شكلًا حماسيًا جميلًا ونسمع الزغاريد، وصوت البنادق ويقف الحاضرين من الجلوس ليشاهدوا هذه اللحظات العظيمة.

ثم تقف الحاشي، ويعود الكف إلى ما كان عليه، ويبدأ مصواب جديد بإلقاء العلم، ثم يبدأ في مجرودة غزلية رقيقة، بها أبيات مباشرة يقصد بها خطيبته، التي قد تكون ضمن الحاضرين في مجلس الحريم، حيث يمكن أن نسمع بعد هذه الأبيات ذات المعاني الرقيقة همهمات في مجلِسَهُن، وأيضًا نسمع الزغاريد، وبشكل عام تكون قصيدة الغزل عن عشق المحبوبة، وأحيانًا تكون أبيات عتاب على التي تركته وهجرته ولا يزل يرجوها.

ولم تترك مجاريد الغزل في المرأة شيئًا إلا وصفته وصفًا دقيقًا، وتلعب مترادفات مثل (الكحل، الجيد، الشعر الأسود، القمر، الحناء... إلخ)، دورًا كبيرًا في المجرودة الغزلية.

وأثناء الغرزة يتم ملاعبة الحاشي، وهذا لا يتم إلا لمن هو أهل للقيام بهذا؛ حيث يقوم أحد الحاضرين بالخروج عن الصف، ودخول حرم الحاشي، ويتم هذا أثناء حبكة الغرزة، بينما يتصاعد حماس الكف.

وإذا جلس هو تجلس هي، وإذا وقف تقف، وكلاهما يحاول أن يخطف من الآخر شيئًا: هي تقصد عمامته، وسيبقى عارًا عليه لو أخذتها، وفخرًا لها أن يقال إن لديها عمامة من فلان أو فلان، ويعد ذلك تقصيرًا من ملاعبة الحاشي، ولهذا يجب أن يفكر كثيرًا قبل ملاعبتها.

أما إذا كان ملاعبًا ماهرًا يخطف عصاها، ويصبح هذا دليلًا على عدم مهارتها، ولا يتم خطف هذه الأشياء (العمامة / العصا) بشكل مباشر، وإنما يتم ذلك أثناء رقصها هي، وغنائه وتصفيقه هو، على أن تتم عملية الخطف السابقة بشكل فني وسريع.

ويستمر (كف العرب) على هذا المنوال مع ملاحظة أنه يجب أن تنتهي كل «مجرودة» بخاتمة خاصة بها. والختمة: تقع عند نهاية المجرودة، وهي عبارة عن أبيات موزونة بالسجع، وتنتهي دائمًا بالشتيوة، وعادة ما يكون معروفًا لأهل الصوب (الكف) نهاية المجرودة، وعند إلقاء الختمة يكون إلقاؤها بشكل حماسي لافتًا للانتباه، وعندها يقف الكف تمامًا، ويكون الكف أكثر عددًا وكثافة عنه في أثناء إلقاء المجرودة، ويسمع بشده صوت الأعيرة النارية، وتزداد وترتفع الزغاريد مع ضرب النار، وذلك حسب مكانة المصواب وإجادته للمجرودة، أو لجودة المجرودة نفسها، أو لتعرضها إلى ذكر فضائل القبيلة ومشايخ النجوع.

ويمكن القول إن المصوابين الجـدد يفتقرون، كذلك إلى ختمة المجرودة، وعادةً ما يستخدمون ختمة واحدة في جميع المجاريد. ويعد هذا عيبًا.

مثال للختمة:

عيونك سـود ودبالات
غداري جوهر مجبودات
عليك إنضاري نشادات

وفي المثال السابق تظهر الشتيوة في البيت الأخير من الختمة، وهي هنا شتيوة (مثلث).

والمجرودة التالية هي الوحيدة التي تزغرد فيها الحاشي، وذلك لأنها تتعرض لمشايخ النجوع ومكانتهم. وينصت لها جميع الحاضرين بالكف باهتمام شديد؛ لأنها تمس كل العرب، وعندما يأتي المصواب إلى ذكر احد الشيوخ نجد أحفاده يسارعون بإطلاق الأعيرة النارية تحية لذكره. ونجدهم يطلبون من المصواب تكرار الأبيات التي تخصهم.

وصاحب هذه المجرودة، في الأصل هو الشيخ/ حريب رسلان الطحاوي، وكان

قد طلب بنت عمة للزواج، إلا أنه لم يتمكن من ذلك؛ لأنه من عادة العرب أن مَن يتغزل في محبوبته قبل خطبتها لا تتم خطبتها له، لهذا كانت من نصيب غيره.

وقام الشيخ حريب رسلان بتأليف هذه المجرودة من نسج خياله، وعلى منوال المجاريد الأخرى لدى عرب الطحاوية، وهو هنا يمدح الشيخ سعود الطحاوي، ويشير إلى عزه وجاهه ومكانته في الحكومة آنذاك، كما وصف زوجة سعود وكذالك وصف بنت سعود التي كان يرجوها، علاوة على قيامه بهجاء من ذهبت إليهم محبوبته، بحجة أنهم ليسوا أهلًا لها. ثم تتطرق إلى وصف سادات النجوع ومشايخها، وصفاتهم الحميدة. وفي الربع الأخير من المجرودة يتطرق إلى الحديث عن الخير والشر وإلى وصف ما يحدث في الآخرة لاستخلاص العبرة والعظة، ويجب أن تقال هذه المجرودة في ليلة واحدة، فقط من ليالي كف العرب، ويجب ملاحظة أن هذه المجرودة يمكن أن نسمعها في أكثر من كف بدون ترتيبها التالي، حيث إن كل من يحفظها له طريقته في إلقائها، علاوة على الاختلاف في العلم والشتيوة. وبشكل عام، يمكن القول: إن هذه المجرودة تعد من المجاريد ذات الكلمات البسيطة والمعاني المألوفة

وعندما تنتهي الليلة، في منتصف الليل تقريبًا، يقولون (دام يا حاشي) إيذانًا بانتهاء الكف، ويقوم أهل العريس بمصافحة ضيوفهم من أهل النجوع الأخرى، مع التأكيد عليهم بعدم التأخر في الليلة التالية.

ومن أشهر ألعابهم التي قد تجد أطفال العرب يمارسونها هي **السيجة**؛ وهي عبارة من مربع مكون من خمس وعشرين أغنية أو تسع وأربعين عينا ويلعبها اثنان لكل منهما اثنتا عشرة قطعة في الحالة الأولى وأربع وعشرون قطعة في الحالة الثانية، وذلك لترك العين الوسطى خالية، وتتميز قطع أحدهما عن الآخر بأن تكون قطع الأولى من الطين مثلًا والثاني من الحجارة أو الحصا، ويبدأ أحد

اللاعبين بوضع قطعتين بنظام خاص يرسمه الذهن، ويليه الثاني بوضع قطعتين وهكذا بالتبادل حتى تملأ العيون كلها ماعدا الوسطى.

ثم يبدأ احدهما بنقل القطعة المجاورة للعين الوسطى إليها، ويتبعه زميله بحيث لو وقعت قطعة أحدهما بين قطعتين من قطع زميلة (أكلها) أي رفعها وهكذا، ومن رفعت قطعة قبل زميله عد مغلوبا.

وهذه القطع تسمي (الكلاب) وهذه اللعبة تشبه الشطرنج إلى حد بعيد، ولها عند العرب فن مخصوص يجيده بعضهم، وقد يسافر أحدهم من بلد غلي آخر ليلاعب رجلًا مشهورًا بلعبها.

ومن ألعابهم أيضًا **الحكشة أو الجدلة**: وهي لعبة تشبه (الهوكي) تلعب بعصا معوجة من طرفها وكرة من الخرق ومجدول عليها بالجبال، وهي حجم كرة القدم، ويتكون كل فريق من نحو العشرة على الأقل، ويقفون متقابلين كل في مكان معين أمام زميله، وتلعب على أرض واسعة محدودة المعالم، ويبدأ اللعب من وسط الميدان ويمرر كل فرد الكرة إلى أعضاء فريقه ويحاول الآخرون أخذها منه، ومن أوصل الكرة إلى نهاية الملعب في ناحية خصمه (إلى الرد) عد غالبًا، ومن قواعدها عدم رفع العصا إلى أعلى من الرأس وعدم توجيه الوجه إلى جوانب الملعب والظهر غلي داخله وعدم إخراج الكرة إلى خارج الملعب، والجزاء في هذه الأحوال إعطاء الخصم الكرة ليضربها فرد من أعضائه من مكان الخطأ، وهي تلعب في الليالي المقمرة من شبان أشداء.

أما لعبة العشرة والعشرين: فهي تلعب على أرض منبسطة طولها ثلاثون خطوة واسعة، وتوضح عصا وعليها طاقية على بعد عشر خطوات من احد طرفي الملعب، ويقف أحد اللاعبين ومعه منديل كبير مجدول (طرة) في طرف المسافة الطويلة ويقف الثاني في طرف المسافة القصيرة ثم يلوح لهما الحكم بالجري وتكون مهمة من بدأ من المسافة القصيرة أن يخطف الطاقية ويعود إلى مكانه

قبل أن يدركه الثاني لأنه إذا أدركه يستمر بضربه (بالطرة) حتىٰ يصل إلىٰ مكانه.

ولأفراحهم خصوصية ومذاق خاص؛ وذلك أنه قبل يوم العرس بنحو الشهر يحتشد كل مساء شبان البلدة والبلاد المجاورة (ويدقون الكف الذي سبق شرحه) حتىٰ إذا جاء يوم العرس أعد هودج علىٰ جمل تركب فيه العروس، ومعها بنتان أو ثلاث من أقرب قريبتها، ويسير خلف هذا الجمل تكثر أو تقل علىٰ حسب يسار أهل العروسين، وعلىٰ كل جمل أربع أو ست نساء يغنين في أثناء سير المركب نحو بيت العريس، ويتباري الفرسان في إظهار براعتهم في ألعاب الفروسية والبارود كما سبق شرحه.

ويسير حول الموكب شبان ومعهم بنادقهم يطلقون منها طلقات نارية من حين لآخر، وعندما يصل الموكب إلىٰ منزل العريس تناخ الجمال وينزل من عليها. ويحمل العروس التي تكون محجبة أقرب الناس إليها كأخيها أو خالها وقد يحملها أحد عبيد أو خدم أبيها، وفي هذه الليلة تنحر الذبائح وتقام الولائم.

وقديمًا كان من عادتهم القبيحة في الأفراح انه إذا مر موكب عرس علىٰ بلد فيها عرب خرج هؤلاء لدعوة الموكب فإن كانوا لا يضمرون شرًا اكتفوا بتقديم الدعوة والترحيب والتهنئة وتلقي الشكر وسار الموكب في سبيله مرحبا من الداعين، وإن كانوا يضمرون شرًا لثأر قديم أو للحط من قدر أهل العرس أو النهب قدموا الدعوة وأصروا علىٰ قبولها وأصر أهل الفرح علىٰ رفضها لأنهم يرون في ذلك أكبر عار فتنشب بين الفريقين معركة يكون غرض الداعين منها أن يستولوا علىٰ جمل العروس ومن فوقه، وغرض أهل العرس إحباط مسعاهم، ولذا يختار جمل العروس من أشد الجمال شكيمة ومن أشرسها طبعًا، وعند نشوب المعركة ينزع مقوده لكي لا يستطيع أحد الاقتراب منه إلا صاحبه[1].

(١) مجلة مدرسة الزقازيق الثانوية عدد ١٩٣٩م، ص١٠٠؛ إصدارات منطقة الزقازيق التعليمية ١٩٤٩م، ص٥٩.

وفي كثير من الأحيان نجد أن الشاب العربي ليست له حرية في اختيار خطيبته، ولكن يختارها له أبوه وأمه؛ كما أن البنت ليس لها من الأمر شيء فلا تسأل ولا يؤخذ رأيها، وإنما يخطر الشاب والبنت بعد انتهاء الاتفاق، وتختار الخطيبة من بين أقارب الشاب، وتفضل بنت العم كما يفضل ابن العم، وفي بعض الأحيان النادرة يفهم الأب والأم ميل ابنهما فيختاران له من يحبها وبخاصة إذا كانت قريبته.

وكما أن العربي يغالي في أفراحه كذلك في أحزانه وبخاصة إذا كان الميت شابًا أو رجلًا؛ فتقام ليالي المأتم التي لا تقل عن ثلاث وتنحر الذبائح ويأتي المعزون، وتكون أمارات الحزن بادية على أهل الميت فيطلق الرجال لحالهم ولا يهتمون بمظهرهم وملبسهم وهندامهم، وتقيم النسوة منادب وهي عبارة عن حلقة من النسوة وسطها امرأة تندب وتلطم وهن يرددن حولها ويندبن ويلطمن الخدود، ويرددن عبارات تنم عن الحزن، ويستمر الحزن عامًا كاملًا لا تزين، ولا تعطر، ولا أفراح، ولا مواسم، ولا أعياد، وحتى الضحايا لا تنحر، وتلبس الملابس السوداء، وقديمًا كانت عندهم عادة سيئة ضارة وهي عدم بياض النحاس لمدة عام[1].

وعلى كل حال فنحن نرى الآن أن تيار المدينة قد جرف كثيرًا من عادات عرب الشرقية وتقاليدهم فاندمجوا في المصريين، خاصة بعدما أُلغي الامتياز الذي كان ممنوحًا لهم في ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧م. كما يوجد الكثير من عامة الناس في مصر أصلهم من شبه الجزيرة العربية، ولكنهم لم يهتموا بإثبات جذورهم فضاعت وأصبحوا معتبرين كبقية المصريين وامتزجوا معهم وشكلوا سبيكة حضارية واحدة وربطت بينهم عوامل صنعها الله ودعمتها إرادة القدر ولم تفتعلها تصاريف الإنسان أو نقائص البشر.

---

(١) نفسه، ص٦٠.

لذلك يصح القول: إن عوائد الكرم وطبائعه الشعبية التي وضحت معالمها في سكان الشرقية وأقرانهم من أقاليم مصر الأخرىٰ قد ارتبطت بجذورها العربية والوطنية في آن واحد حين انصهر العنصران علىٰ جنبات نهر النيل المعطاء لتنسج وشائج تعكس درجات عالية من السمو الإنساني الذي يتجه إلىٰ الآخر إما فداء له أو وصلًا ومحبةً وإكرامًا وحنوًا عليه وكلها وشائج ترتفع بالسلوك الإنساني وتجعل لوجوده وحياته معنىً وقيمة مضافة إلىٰ مجتمعه ناهيك عن أنها تخرجه من منظومة الأنانية والبخل والجشع والتي تطرد تلقائيا كل معاني «القناعة» ولا تدع مجالًا لمفهوم الكرم والإيثار الذي سيبدو بالنسبة لكثيرين أمرًا غير قابل للتصديق.



الباب السادس

الشرقية وحكايات عمرها ١٠٠ عام

- **الزقازيق بعيون إسكندرانية!!**

الزقازيق مدينة زاخرة بالأسرار تحوي بين طياتها أحداث الزمان، تمر الأيام يوم يفضي إلىٰ يوم، وسنة تقضي إلىٰ سنة، وعصر يفضي إلىٰ عصر ولا تزال الزقازيق تبوح بخباياها وتفصح بمكنوناتها فتطلق لخيالنا العنان، تدهشنا وتمتعنا، ونحن نعيش مع ماضيها هيا نتجول في الزقازيق في صيف (سنة ١٩٣٨م) حين ترك لنا أحد السكندريين الأدباء مقالة قيمة بمجلة مدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية مسجلًا فيها بعيونه جوانب من الحياة الاجتماعية في هذا الزمن البعيد عن الزقازيق فكانت مقالته بمثابة وصف تصويري لها نابعًا من واقع المشاهدة والتجربة الذاتية مما جعل من سطور مقالته (أتم صورة ترسم حتىٰ الآن لحياة الزقازيق في النصف الأول من القرن الماضي) ليس باستخدام اللغة التصويرية المجازية وإنما بفضل الوصف البسيط الواضح الذي استخدمه أستاذ اللغة العربية: عبد العزيز أفندي فياض (كاتب المقال) الذي جعل الأشياء تتمثل حية أمامنا.

في (٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٨م) نام عبد العزيز أفندي فياض في تلك الليلة مبكرًا! ونامت الشرقية، مع أننا مازلنا في الصيف، في الواقع نحن في شهر أكتوبر. ومازلنا في وقت مبكر الساعة السابعة مساءً.

وفي هذا اليوم ... كانت قد مضت ١٠٦ سنة علىٰ بناء الزقازيق و٢٧سنة علىٰ وفاة عرابي و٥٧ سنة علىٰ مقولته الشهيرة: «لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا..» و١٨ سنة علىٰ قيام طلعت حرب بإنشاء بنك مصر.

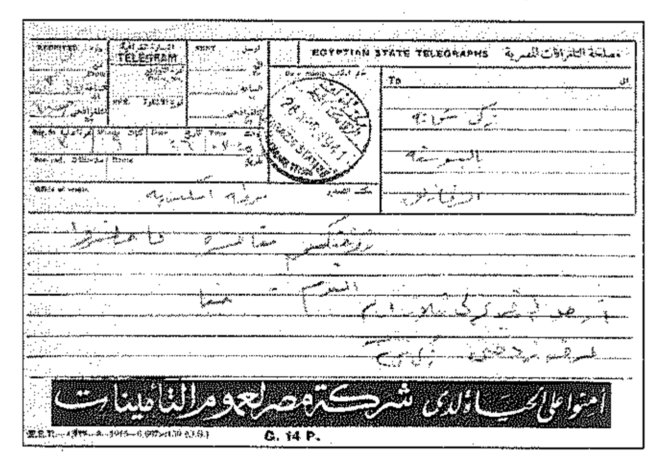


المقاهي والمحلات التجارية بشارع الحريري بالزقازيق ١٩٠٧م

مرة أخرى: نحن مازلنا في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٨م الجو حار، وإن كان هادئًا. وتلك الزقازيق على الحال التي رأيناها فيه، إلى أن نامت مبكرة في تلك الليلة ... حين فارق عبد العزيز أفندي فياض مدينته الإسكندرية - عروس البحر الأبيض المتوسط - كما كان ينعتها وقصد حاضرة مديرية الشرقية.. منذ ذلك الحين لم ينس يوم قدومه إلى الزقازيق للمرة الأولى.

في هذا المساء لم يكن الضيف السكندري يتوقع أن ما كتبه سنة (١٩٣٨م) عن الزقازيق لم يتغير كثيرًا وأنه لن يعنيها وحدها. فالزقازيق ليست المعنية فقط.. إنها مأساة الزقازيق أمام منطق المقاولات والجشع الذي يحكم أسلوب التعامل فيها اليوم، وأصبح يمثل ظاهرة مخيفة طالت قصورها وبيوتها التي طالما تألقت تحت الأشعة الذهبية لتظهر تفرد شخصية المحافظة وعظمة التقدم الحضاري للمدينة عبر العصور ... فهي العاصمة بالتاريخ والجغرافيا.. بالفروسية والقوة.. جزء من تاريخ القهر الذي كتم حسرته وتحجرت مآقيه الدموع.. نهبوا إمكاناته.. فاستحضر تراثًا لملء فراغ الجوع... رهنوا مقدراته فاستقوى بتاريخه على منطق فرض عليه الخنوع واستمر الكيد فما بين آلام أبناء عاقين وضغوط لصوص

معتدين اختصروا الشرقية في تكية فالمتعاون قهرًا والمتعاون عمدًا وثالث رآها وسيةً لا تستقيم إلا بالمحافظة على حمل ما خف وزنه وثقل ثمنه... وتصمد الشرقية أمام واقعها الواهن وحواسها اليوم تصبوا إلى آياد تتلاقى .. تدفع العجز وتزيل التجاعيد تبحث عن ذاتها وأخواتها.. عن الزقازيق الصبية البهية....!!



TELEGRAM

EGYPTIAN STATE TELEGRAPHS مصلحة التلغرافات المصرية

أمنوا على الحياة لدى شركة مصر لعموم التأمينات

G. 14 P.

ومرة أخرى يصحبنا السكندري عبد العزيز أفندي في رحلته ويحدثنا عن مرارة تجربته قائلًا: «أقلني قطار الصباح السريع إلى طنطا، ومنها استقللت قطارًا آخر يمر بميت غمر ويقف على جميع المحطات بين طنطا والزقازيق - ولذا يقطع المسافة في أكثر من ساعة ونصف سار بي القطار وهو يطوي الأرض وسط المروج وأنا غارق في لجج من الأفكار والأحلام هائم في بيداء الخيال والأوهام، أسبح تارة في ذكريات الماضي السحيق وأهيم أخرى في تقلبات الحاضر القريب وبغتة جمح جواد تخيلي وأطلق لنفسه العنان نحو الزقازيق فتصورتها في شتى ألوان الصور والأشكال: فتارة كنت أراها على نسق مدينة طنطا قد جمعت بين أبهة المدن وعظمتها وبساطة الريف وجمالة وتارة أتخيلها كالمنصورة في بهائها وروعتها وسحر موقعها وطبيعتها ثم أعود فأتصورها في شكل أروع من هذه

وتلك من حيث البناء والتكوين والانسجام نظرًا لحداثة نشأتها وأهمية موقعها. ولا عجب إذ نحا خيالي هذا النوع من الموازنة والتفكير. فالزقازيق تعد بحق مفتاح مصر من الجهة الشمالية الشرقية وحاضرة مديرية من أهم مديريات الوجه البحري. وهي في الواقع من أحدث المدن المصرية إذ نشأت في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير على إثر بناء القناطر المعروفة الآن بالقناطر التسع. ومهمتها توزيع مياه بحر مويس لري أراضي الشرقية؛ وقد وصفها المرحوم علي باشا مبارك في كتابه الخطط التوفيقية الجديدة. ومن هذا الوصف نستطيع أن نكوّن صورة حقيقية للمدينة في عهد نشأتها.

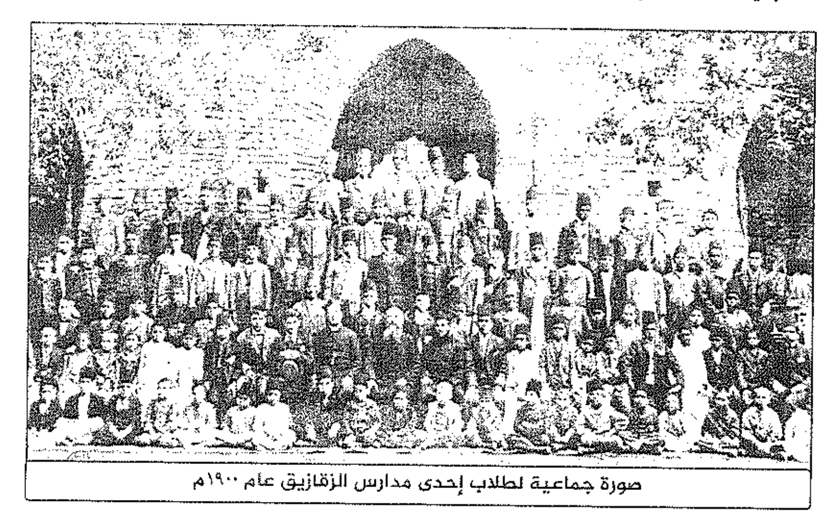
فعندما شرع المهندسون في بناء القناطر السابقة الذكر اضطر العمال والمستخدمون أن يستحدثوا أكواخًا من الطين وخصاصًا من القصب على جانبي بحر مويس لإقامتهم، وتبعهم في ذلك باعة المأكولات، ثم تكاثرت الناس شيئًا فازداد البيع وكثر بناء المساكن. وبعد الانتهاء من إقامة تلك القناطر سنة ١٢٤٨ هجرية (١٨٣٠ ميلادية) بقيت تلك الخصاص والمساكن عامرة حتى صدر الأمر العالي بالبناء والتجديد فكثر البناء باللبن والآجر وعندئذ «أقيمت المنازل الفاخرة والقصور المشيدة بالمونة والبياض والشبابيك والشيش والزجاج»، ثم بني ديوان المديرية بها، وهكذا انتقلت الشهرة من مدينة (بلبيس) المعروفة قديمًا (ببسة) إلى هذه المدينة.

خطرت لي كل هذه الخواطر وأنا جالس في القطار فتكونت في مخيلتي صورة رائعة لمدينة الزقازيق الناشئة التي طفرت دفعة واحدة فأصبحت مدينة تجارية عظيمة تضم هذا العدد الموفور من المحالج والمطاحن والمصانع، فتزداد مبانيها وعمائرها وأهلوها يوما بعد يوم ولاسيما بعد إنشاء السكة الحديدية بها. ثم حاولت أن أتصورها في عهدها الحالي وقد نمت وأينعت واكتمل شبابها وفتوتها بعد أن ولى عهد طفولتها.



اللوحة التأسيسية لمدرسة الزقازيق الثانوية العسكرية التي تخرّج فيها العديد من رموز أبناء الشرقية؛ كصلاح عبد الصبور وألفريد فرج ومحمد مندور ومحمد زكي عبد القادر ومرسي جميل عزيز و(عبد العزيز فياض) الذي ترك لنا وصفًا شيقًا للزقازيق عام ١٩٣٨م.

استيقظت من أحلامي على صوت صفير القطار مؤذنًا بسلامة الوصول فهرعت مع الركاب إلى النزول وسرت خلف الحمال الذي رفع حقائبي على كتفيه بعد أن طلبت منه أن يرشدني إلى فندق نظيف أبيت فيه. سرنا جميعًا وأنا أتلفت ذات اليمين وذات الشمال فلا أرى أثرًا مما صوره لي الوهم والخيال؛ ثم نزلنا على درج يؤدي إلى قبو ممتد في قطاع عرضي تحت قضبان السكة الحديدية ويفضي إلى أجزاء المدينة المترامية الأطراف على جانبي المحطة. وما خرجت من هذا القبو ووطئت قدماي أرض المدينة حتى حرت في أمري. وعبثًا ظللت أطيل النظر هنا وهناك علني أظفر برؤية وجهة المحطة وميدانها؛ وأخيرًا أيقنت أنه ليس للزقازيق محطة كسائر البلاد الأخرى: فالإسماعيلية وطنطا والمنصورة والمحلة الكبرى والقاهرة والإسكندرية وكثير غيرها من بلاد القطر المصري تمتاز بمحطات ذوات وجهات منسقة تنسيقًا بديعًا تشرف على ميادين وحدائق يرتاح لرؤيتها المسافر المقبل ويأسف على فراقها المسافر المدبر. ولكن الزقازيق خلت من كل ذلك وما هي في رأيي إلا مواصلة للسكك الحديدية تمر بها خطوط تسير في اتجاه بنها وطنطا والمنصورة وبورسعيد ويحيط بها سور من البناء يمتد إلى مسافة بعيدة وأمامها كوخ خشبي لصرف التذاكر يقع عند بداية شارع عباس المعروف بشارع «البوسته»، وشهرته هذه ترجع إلى أن مكتب البريد كان يقع فيه منذ بضع سنين ثم انتقل إلى داره الحالية بالشارع التوفيقي على شاطئ بحر مويس الشرقي.



صورة جماعية لطلاب إحدى مدارس الزقازيق عام ١٩٠٠م

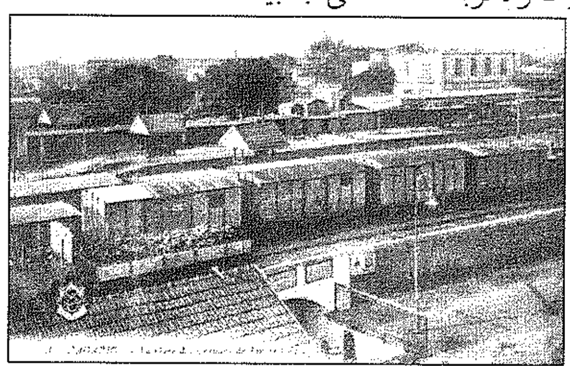
• كلوت بك في الزقازيق!!

ويجدر بي قبل الانتقال من هذه النقطة ألا أغفل الغرض الذي توخيته من وصفي لمحطة الزقازيق فهذه المحطة قد تكون لا غبار عليها إذا نظرنا إليها من الداخل ولا سيما أن محطة البضائع منفصلة عنها كسائر المحطات الكبرى، ولكن أكبر عيوبها في الواقع افتقارها إلى وجهة تشرق على ميدان رحب تقف فيه السيارات والعربات لاستقبال المسافرين كما هو الحال في أغلب المحطات؛ وهذا في نظري أهم مشروع يمكن أن تجمل وتزدان به مدينة الزقازيق.

ولنعد إلى شارع عباس فأقول إن أهل الزقازيق ينظرون إلى هذا الشارع كما ينظر أهل القاهرة إلى شارع فؤاد أو أهل الإسكندرية إلى شارع شريف. ومن الغريب أن هذا الشارع لا يستحق - كما يبدو لي - كل هذه الشهرة وكل هذا الإجلال. فإنا إذا أغضينا عن قربه من المحطة نراه شارعًا عاديًا غير رحب يقطعه السائر على الأقدام في أقل من ثلاث دقائق؛ ومبانيه متوسطة وقديمة. وإذا استثنينا شركة مصنوعات بنك مصر فليس فيه من المحال التجارية ما يستحق الذكر وكل

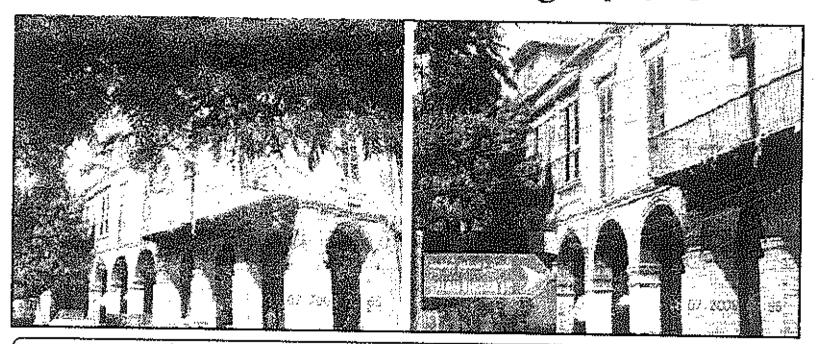
ما يمتاز به هذا الشارع ويسترعى الأنظار هو شرفات مستطيلة خشبية ترتكز على أعمدة خشبية وتمتد بامتداد وجهة المنازل.

وليس معنى هذا أن الزقازيق خالية (بالمرة) من الشوارع الكبيرة والأسواق التجارية المهمة فقد استحدثت هندسة التنظيم فيها شارعًا ليس له نظير في أمهات المدن المصرية هو شارع المنتزة العظيم الذي يبدأ من محطة البضائع وينتهي عند ترعة الوادي، وتتوسطه متنزهات مستطيلة الشكل فتقسمه إلى طريقين وتزيده بهجة وروعة وبضاء ليلًا بمصابيح كهربائية قوية ركبت على أعمدة من الرخام الصناعي (مزايكو) ترتكز على قواعد من الأسمنت المسلح صنعت في شكل هندسي بديع وسيكون لهذا الشارع فيما بعد أثر كبير في تجميل المدينة وذلك كلما تكاثرت وازدادت «العمائر» والأبنية الفخمة الشاهقة على جانبيه، وما يتلو ذلك من فتح المحال التجارية والمقاهي والملاهي. ويعتبر هذا الشارع بحق من أهم مشروعات هندسة التنظيم في المدينة، فأنه يشهد بحسن الذوق والبراعة والتفاني في خدمة المدينة. والدليل على ذلك ما كان عليه هذا الشارع منذ سنوات قلائل، فقد كان جسرًا مرتفعًا من الأرض تجتازه قضبان السكة الحديدية وتقف فيه عربات البضائع للشحن والتفريغ، أو بعبارة أخرى كان مخزنًا لمحطة البضائع وكانت القاذورات والأتربة مكدسة على جانبيه.



قطار البضائع - محطة الزقازيق - محافظة الشرقية سنة ١٩١٢م
نقلاً عن صفحة أهل مصر

أما بناء المديرية والبندر فيقع في شارع رحب له مماش جانبيه مسقفة تسمى «بواكي» على نسق شارعي كلوت بك ومحمد علي بالقاهرة، غير أنه محدود الطول وفيه مخازن الأقمشة القطنية والصوفية. ومن الشوارع المهمة بالزقازيق شارع مولد النبي، والحريري؛ وهو كثير الشبه بشارع عباس في شرفاته الخشبية المستطيلة، وفيه دار الخيالة وهي الدار الوحيدة المحترمة في المدينة وإن كانت في نظري لا تضارع دور «السينما» المتوسطة في كثير من المدن المصرية، سواء في البناء أو في الأجهزة أو في مكبر الصوت - وهذا أيضًا عيب ظاهر من عيوب الزقازيق؛ فالمقيمون بها في أشد الحاجة إلى دار محترمة للصور المتحركة. وقد أسست دار أخرى في شارع المنتزه ولكنها لا تستحق الذكر.



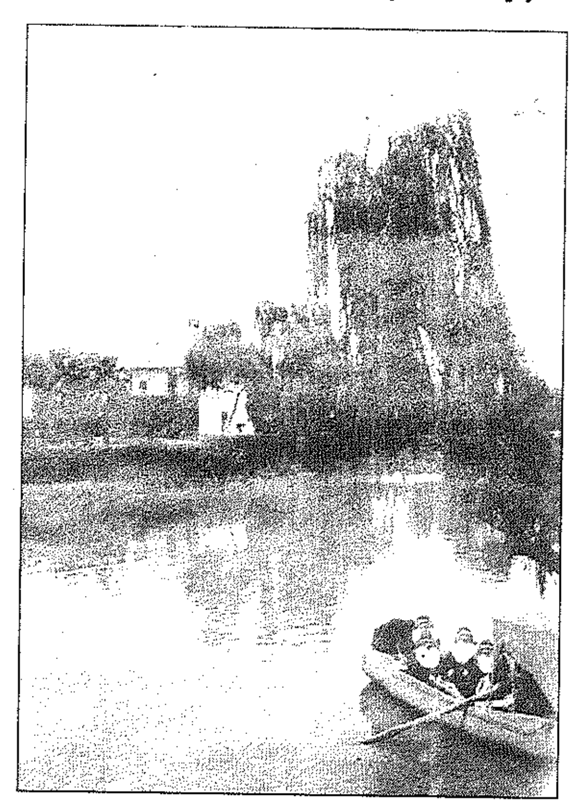
شارع الكونت الإنجليزي سليم شديد .. شارع المديرية حاليًا
ويظهر في الصورة البواكي التي تشبه بواكي شارع كلوت بك ومحمد علي بالقاهرة

ومن عيوب الزقازيق كثرة الغبار والتراب في فصل الصيف، وكثرة الوحل والطين في الأيام المطيرة - ولذا كانت شوارعها وأزقتها في أشد الافتقار إلى التمهيد والتعبيد والكنس والرش والبلدية هنا لا تألو جهدًا في القيام بواجباتها على الوجه الأكمل، فقد قامت هذا العام برصف وتعبيد جانب من الشوارع المهمة ولكنها في حاجة إلى المال لإتمام الجزء الأكبر منها.

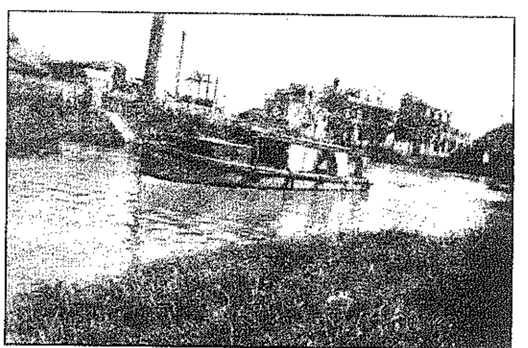
وقد أمكن الآن للزقازيق بعد عدة محاولات مخفقة سببت إفلاس بعض المقاولين أن تضم إلى باطنها مثل ما في بطون المدن الكبيرة من المجاري التي تتوقف عليها حالة المدينة الصحية ونظافة شوارعها وأزقتها والتقليل من رطوبة أراضيها ومبانيها. ويا حبذا العمل لو بادر أصحاب الأملاك إلى إيصال مجاري منازلهم بهذه المجاري العمومية لتصريف ماء المنازل إليها محافظة عليها وعلى صحة ساكنيها، فان رطوبة البناء تفضي إلى إخلاله وتفتت الأحجار - ولذلك لا يعمر البناء طويلًا - كما أنها تؤدي إلى برودة الحجرات وعلى الأخص في الشتاء، وهذا يضر بالآهلين ضررًا بليغًا. وقد لاحظت عادة سيئة منتشرة بين أصحاب المنازل الصغيرة وهي انتهاز فرصة المطر وتوحل الشوارع لإلقاء الماء القذر في الأزقة والحارات وبذلك يزيدون الطين بلة ويساعدون على استمرار الوحل أيامًا حتى بعد جفاف معظم الشوارع ولابد أن هذه العادة السيئة ستزول بطبيعتها عند ربط مجاري هذه المنازل بالمجاري العمومية.



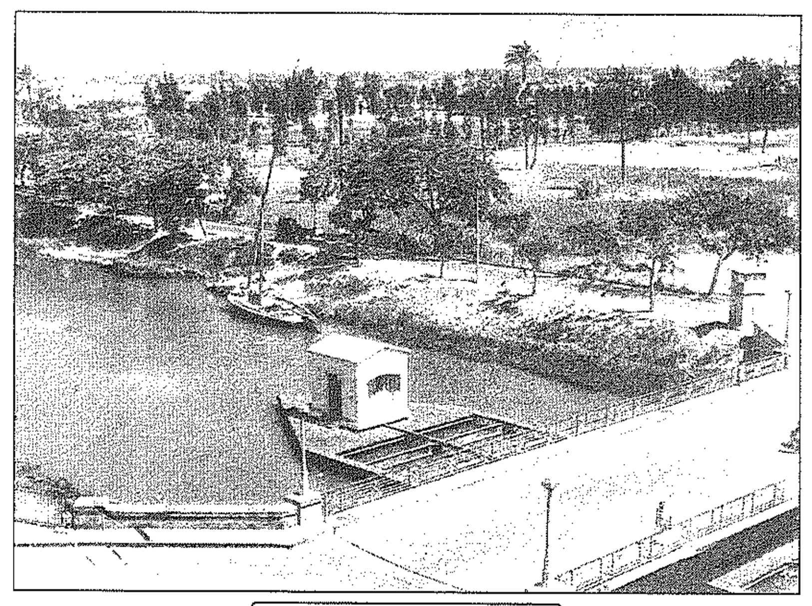
مقر مديرية الري بالزقازيق حاليا .. آخر ما تبقى من الزمن الجميل



مشهد رائع لراهبات
مدرسة نوتردام ديزابوتر
يعبرن النهر . مدينة
الزقازيق



قارب في بحر مويس
١٩١٩م



كوبري ديوان عام المحافظة ١٩٤٠م

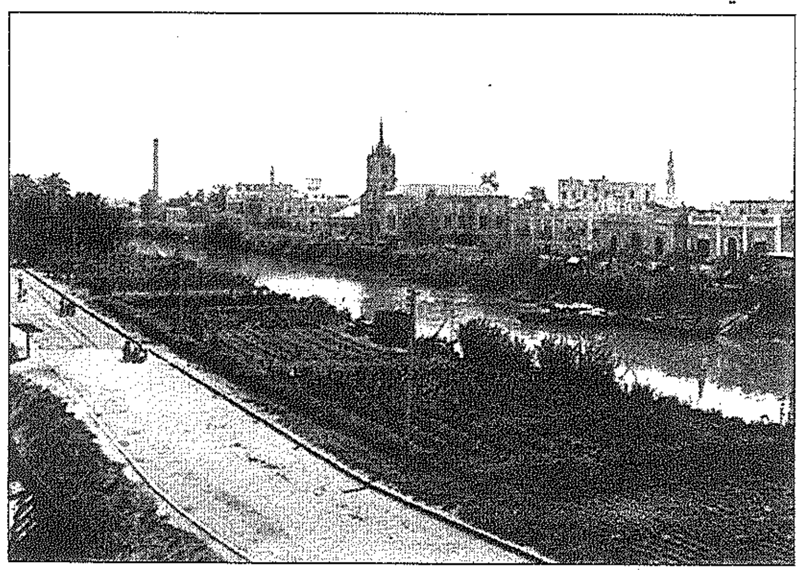
وبحر مويس هو أهم ترعة تعتمد عليها الزقازيق في ري أراضي الشرقية وإمداد السكان بماء الشرب بعد ترشيحه. ويجف ماء هذه الترعة مدة أربعين يومًا تقريبًا تبدأ من نهاية شهر ديسمبر فتستمد المدينة ماء الشرب في خلال فترة الجفاف من الماء الباطني فيتغير طعم الماء في هذه المدة ولا يكاد يسيغه الشارب دون تبريد أو إضافة بعض ماء الزهر أو الورد إليه. ويحف ببحر مويس شارعاه الشرقي والغربي. وتقع المدرسة الثانوية الأميرية ودار البريد والمصارف المهمة كالمصرف الأهلي ومصرف (بنك) مصر ومصرف (باركليز) ومصرف التسليف الزراعي ونادي رابطة الموظفين ودار الكتب و«وابور» النور والحدائق العامة على الجانب الشرقي، وعلى الجانب الغربي تقع المدرسة الابتدائية الأميرية ودار المدير ومصلحتا المباني ومشروعات الري. وللجانب الشرقي أهمية أخرى لأهل الزقازيق

فهو طريق منازلهم إذا أشتد قيظ الشمس يسلكه الناس زرافات ووحدانا في أيام العطلة والأعياد وعند الغروب في أيام الصيف لاستنشاق الهواء الطلق والاستراضة في حدائق البلدية الواقعة بجوار «وابور» النور وهذان الشارعان في أشد الحاجة لعناية هندسة التنظيم لشدة ما يعانيه المارة من التراب والغبار في الصيف والوحل والطين في الأيام المطيرة في الشتاء والشارع الشرقي على الأخص يفتقر إلى الكثير من التجميل وذلك بتوسيعه وبناء (إفريز) ذي حاجز حجري يطل على بحر مويس على نمط بعض أرصفة القاهرة والمنصورة النيلية أو على مثال إفريز ترعة الوادي المقابل للصاغة. مثل هذا المشروع يكسب البلد رونقًا وجمالًا ويزيد في اجتذاب (المستريضين) ولاسيما إذا غرست الأشجار على جانبي هذا الشارع وزود الإفريز المقترح إنشاؤه بمقاعد حجرية ثابتة بين كل مرحلة وأخرى لراحة السائرين.

ولن أتعرض إلى حاجة البلد إلى إنشاء الميادين الواسعة والمراحيض والمرافق العامة والإكثار من الجسور فهندسة التنظيم على ما يبدو لي شارعة وجادة في هذا السبيل. والأمل عظيم في ألا ينقضي وقت طويل حتى نرى المدينة قد زودت بكل ما يلزمها من هذا القبيل.

ويجدر بي قبل أن أختم هذا المقال أن أوازن موازنة سطحية بين الزقازيق الحالية والزقازيق القديمة الناشئة التي سبق وصفها لاستخلاص مدى تقدمها أو مقدار تأخرها - أقول إن نتيجة الموازنة مع الأسف لا تسر حبيبًا إنما تسر عدوًا؛ فالمحالج والمطاحن ومصانع الثلج التي شاهدناها قد اندثرت جميعها ولم يبق منها إلا النزر اليسير الذي لا يستحق الذكر وهذا أسطع دليل على ركود الحالة التجارية بهذه المدينة الآن وحركة البناء والعمارة التي كانت تزداد يومًا بعد يوم قد شلت وقتًا طويلًا بدليل وجود الكثير من المنازل القديمة متهدمةً؛ والأسواق ليست على حالة من الرواج محمودة بدليل كثرة المتعطلين من الشباب العمال.

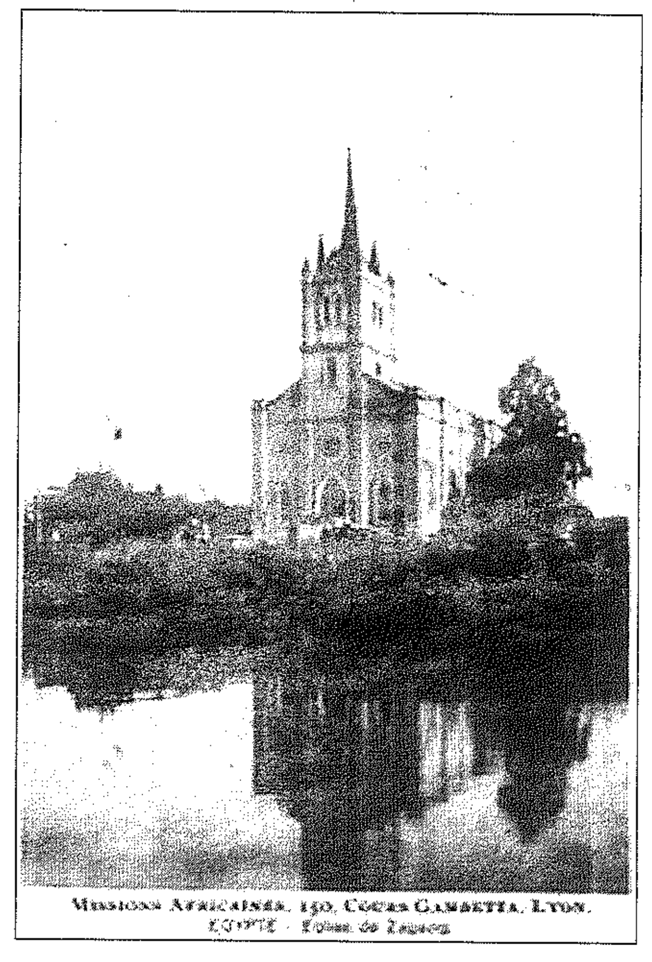
وقد يرجع ذلك إلى إغلاق آخر مصنع للدخان كان في هذه المدينة وكان يعمل به نحو أربعة آلاف عامل وإذا استقصينا علة هذا الركود التجاري والمعماري وجدنا أنه يرجع إلى جملة عوامل أهمها: أولًا: انصراف موسري المدينة عنها للإقامة بالقاهرة. ثانيًا: إهمال بعض الأغنياء منهم بيوتهم إهمالا أدى إلى تهدمها. ثالثًا: استيلاء بعض الأجانب على جزء كبير من الأملاك يستغلونها دون الاهتمام بإصلاحها وتجديدها. رابعًا: وقوع الكثير من الملاك في براثن المرابين؛ وطبيعي أن يعجزوا عن تعميرها وإصلاحها بل عن الاحتفاظ بها.



صورة ترجع إلى عام ١٩٠٠م تجسد جمال الشرقية والزقازيق

والأمل كبير في أن تستعيد الزقازيق مجدها القديم ونشاطها الغابر، فقد بدأ فعلًا فن المعمار يبعث من مرقده وظهرت آثاره في القصور العظيمة التي استجدت بشارع المنتزة وعلى ضفاف بحر مويس. والظاهر أن ذلك يرجع إلى

ازدياد عدد موظفي الحكومة بالمدينة نظرًا لإيجاد منطقة التعليم الخاصة بشرق الدلتا الجنوبية بها فضلًا عن نقل قسم مشروعات الري إليها(١).



(١) راجع النص الكامل للمقال بمجلة مدرسة الزقازيق الثانوية للأستاذ عبد العزيز أفندي فياض مدرس اللغة العربية بالمدرسة عام ١٩٣٩م، ص٣٧.

UNION POSTALE UNIVERSELLE

EGYPTE

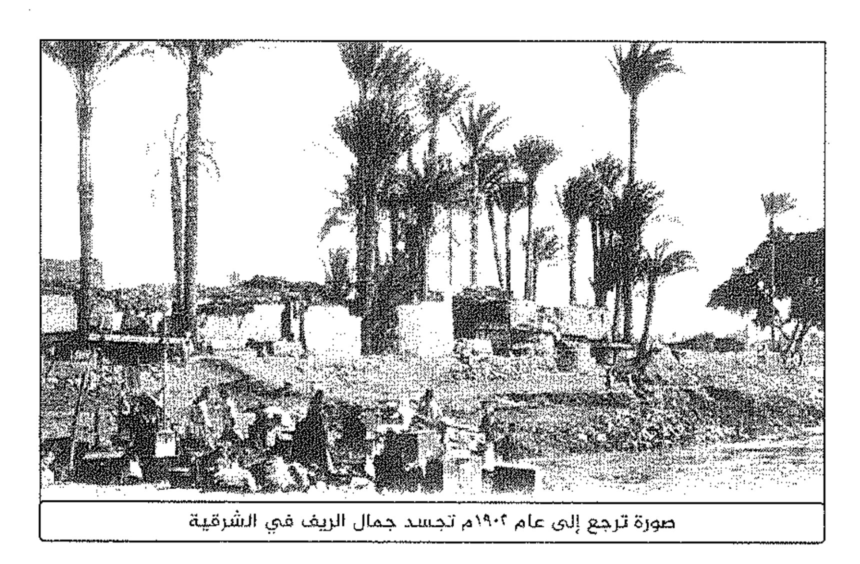
CARTE POSTALE

A Mademoiselles

Dilis de la Housse

102 Longue rue neuve

(Belgique) Anvers



صورة ترجع إلى عام ١٩٠٢م تجسد جمال الريف في الشرقية

• أنشاص من ٥٠ سنة!!

وفي عام ١٩٤٩م يكتب صلاح الدين أرناؤط المدرس بالكلية الحربية وصفًا بديعًا لما كانت عليه أنشاص بمحافظة الشرقية وهي المكان الذي شهد أول اجتماع للقمة العربية فيقول في بعض فقراته[1]: «... وظهرت في القطر اليوم حركة مباركة تسعىٰ إلىٰ تحقيق أسس الرفاهية لسكانه وبخاصة الريف وأهله الذين ظلوا أعوامًا طويلة في حاجة ماسة إلىٰ ما يتمتع به إخوانهم من ساكني المدن، ونظرة عابرة إلىٰ التفاتيش الملكية توضح لنا مبلغ ما تساهم به هذه التفاتيش من العمل علىٰ رفع مستوىٰ المعيشة بين الفلاحين وتحقق أسباب الرفاهية لهم، وعلىٰ رأس هذه التفاتيش مزارع أنشاص، ففي أولها تقوم محطة السكة الحديدية في بنائها الجميل ومصابيحها الكهربية الحديثة تزينها الأزهار والأشجار، وإنك لتجد بجوارها المستشفىٰ الذي يقوم بمعالجة الفقراء بالمجان، كما تجد إحدىٰ عربات التفتيش (الترولي) تنتظر وصول كل قطار لتسهل علىٰ القادمين والرائحين مهمتهم، فإذا ما أقلتك إلىٰ حيث تقوم مباني الإدارة استرعىٰ بصرك قصر الفاروق العزيز الذي هو آية في الدقة وجمال الصنع تحيط به حديقة فيحاء كما تحيط به بقية الأبنية في غير تفريق أو تمييز أو تكلف، صنعت كلها من الآخر وطليت من الداخل بالبلاط والزيت وامتدت إليها أنابيب المياه وعلىٰ مقربة من هذه البيوت تمتد الأراضي الزراعية التي للتفتيش، الفضل الأول والآخر في تحويلها من صحراء جرداء خاوية من الزرع والماء إلىٰ جنيات خضراء فيحاء تجود بأبرك الثمرات تتخللها ضياع (عزب) دورها من الآجر يسكنها المزارعون وقد حملت كل منها اسمًا خاصًا مثل أبو هيف والرواشدة وقطة ودوار الجبل والهنادي وما إليها، ويشتمل كل مسكن فيها علىٰ ثلاث غرف وردهة واسعة ودورة مياه صحية.

(١) انظر النص الكامل للمقال بإصدارات وزارة المعارف العمومية ١٩٤٩م، ص٩٥.

ومما يبعث السرور في النفس توصيل المياه الساخنة إلىٰ الحمامات القائمة علىٰ جانب كل ضيعة في فصل الشتاء ويتخلل كل ضيعة من هذه الضياع شوارع منظمة مستقيمة واسعة تسمح بمرور الهواء والشمس علىٰ الطريقة الصحيحة، وأمام كل منها مضخة كبيرة للمياه وحوض لشرب الماشية؛ كما خصصت ناحية من نواحي الضيعة لوضع الروث والسماد المختلفة من الحيوان فيها. أما المخازن فهي مجهزة بكل أنواع الآلات الحديثة جئ بها من المصانع المصرية كي تسهل علىٰ العمال ما يقومون به من أعمال الحرث والري والتخطيط والدرس وما إليها، فتري علىٰ سبيل المثال شبكة من الخطوط الحديدية التي تسير عليها عربات (الترولي) و(الديكرفيل) في جميع أنحاء التفتيش لتسهل ربط أجزائه بعضها ببعض في وقت قصير وتعين الفلاحين علىٰ نقل المحصولات والأتربة من مكان إلىٰ آخر، أما اصطبلات الماشية فقد أعدت وفق ما يقتضيه الإرشاد البيطري الدقيق الذي لم يدخر وسعًا في الاحتفاظ بمستشفىٰ صغير وصيدلية لمعالجة الحيوان والسهر علىٰ راحته وبذلك امتدت يد الرحمة إليه كما غمرت بفيضها الإنسان، هذا ويؤدي الفلاحون وجباتهم الدينية في جامع جميل الصنع مجهز بأحدث دورات المياه الصحية، وأرضه مكسرة بسجاجيد أعجمية غالية الثمن، كما زينت أركانه بمصابيح من البلُّور فما أبدعه مسجدًا يدخل السرور والاطمئنان في نفس المصلين.

وزيادة في السهر علىٰ راحة سكان هذه البقعة النائية وبعث الاطمئنان فيها أقيمت في إحدىٰ النواحي دار تحوي عددًا غير كبير من رجال الشرطة والجيش مزودين بالأسلحة والسيارات والهجان السريعة العدو، ونظام التعامل بين الفلاحين والتفتيش يقوم علىٰ أساس من التعاون والرحمة، إذ يستأجر الفلاحون الأرض القريبة منهم في مقابل عدد من قناطير القطن أو أرادب القمح وغيرها يقدمونها وقت المحصول في حدود طاقاتهم فلا يرهقون من أمرهم عسرًا، وزيادة في مساعدتهم تري التفتيش يهيئ لمن يريد من الفلاحين صغيرًا كان أو

كبيرًا فرصة العمل في الأرض التي يزرعها لحسابه الخاص في مقابل أجره لدي التفتيش حتىٰ إذا حل وقت المحصول خصم ما ادخره من قيمة الإيجار التي عليه وقد يستفرغها جميعها فيصبح محصول الأرض المؤجرة له من حقه ولا تنس ما ينعم به موظفو التفتيش وعمالهم من ميزات منها أن يخصص لكل منهم جاموسة يتمتع بخيراتها مقابل مبلغ زهيد من المال، كما أن العربات علىٰ اختلاف أنواعها والسيارات وخطوط السكك الحديدية كلها تبيح للموظفين الانتقال من جهة إلىٰ أخرىٰ بما يحملون من جوازات تسلمها لهم الإدارة وقت الحاجة، ويصرف للسعاة والخدم ملابس خاصة منها المطرز والمحلىٰ بالنقوش ومنها العادي لاستخدامها في العمل والحفلات الرسمية ليظهروا بالمظهر اللائق بهم، ولا يحرم عمدة التفتيش من مرتب شهري يساعده في أمور معاشه هذا، حدائق التفتيش الواسعة تنتج أحسن الثمار وأجودها ويقوم علىٰ العمل بها طائفة من الفلاحين المهرة فينعسون بالعمل بين الأزهار في ظلال الأشجار.

وقد شاءت إرادة الفاروق المحبوب أن يخص أنشاص وأهلها بحبه وعطفه فهو يقضي فيها أوقات فراغه بين أنواع التسلية المختلفة والرياضة المحببة إلىٰ نفسه الرفيعة السامية من استحمام في حوض السباحة إلىٰ الصيد أو ركوب الخيل والتجوال بين الحدائق الظليلة أو تأمل محتويات المتحف الخاص الذي يحوي أنواعًا شتي من الأحجار الجيولوجية والطيور المحنطة، وغيرها من الحيوان النادر الوجود، وإن أنس فلا أنسي المذياع الذي يدخل السرور والبهجة في نفوس السكان من وقت إلىٰ آخر بوساطة مكبرات الصوت التي انتشرت في كل الجهات حتىٰ لا يحرم أحد من متعة الاستماع بالأخبار والأغنيات، ويجد جميعهم حاجاتهم في أي وقت من الأوقات في الجمعية التعاونية التي تبيعهم كل ما يشاءون بأسعار معتدلة يؤدونها علىٰ نجوم مريحة، فعلىٰ هذا النحو يعيش جميع السكان في ألفة ووئام. يجمعهم عملهم الواحد ومصالحهم المشتركة يعطف بعضهم علىٰ بعض، ويتبادلون المعونة في ظل الفاروق الصالح العزيز الذي لم

يتوان في السهر على مصالح شعبه الوفي الأمين في الريف والمدن على السواء، ولم يأل جهدًا في سبيل تحقيق رفاهية أهل البلاد على اختلاف طبقاتهم فما أسعدها حياة وأبشر بمستقبلها الزاهر في ظل مولانا راعي النهضة الحديثة، ورائد الديمقراطية الصحيحة، وفقه الله العلي القدير إلى ما فيه السداد وأبقاه زخرًا وعونًا للبلاد.

- **آخر النساء المحترمات.. في بلبيس!!**

من مفارقات زماننا أن الباحث عندنا بوسعه أن يتعرف على الصورة الحقيقية لأوضاع التعليم بمصر في منتصف القرن العشرين بل والقرن التاسع عشر (أيام نظارة المعارف أو وزارة المعارف بعد ذلك) منذ عهد على باشا مبارك، بينما لا يكاد يعرف شيئًا عن واقع التعليم هذه الأيام خارج حدود الإنجازات والعناوين التي مررنا بها، فأيام على باشا مبارك كانت التقارير السنوية عن التعلم حافلة بالنقد والتحليل لمشكلات وأحوال التعليم والمجتمع الذي توجد به المدرسة، ومن ثَمَّ فإنها تمتعت بدرجة عالية من الشفافية فضلًا عن الموضوعية والرصانة، بينما تقارير هذا الزمان - على أحسن فروضها - لا تذكر سوى وجهة واحدة للواقع، وتعمد إلى تجميله على نحو مبالغ فيه، يصعب تصديقه في بعض الأحيان.

فهي الآن تشير إلى الإنجازات وتسلط عليها أضواء قوية ويجري قياسها بمعيار كمي دائمًا. فهي تتحدث عن أعداد الطلاب لا نوعياتهم، وعن أعداد المدارس لا تجهيزاتها وإمكاناتها، وأعداد المدرسين لا مستواهم ولا قدراتهم.. وهكذا، بحيث بدت تلك التقارير أقرب إلى الإعلانات التي تنشر في الصحف، منها إلى الدراسات الموضوعية التي تقوم المسيرة وتسلط الضوء على السلبيات جنبًا إلى جنب مع الإيجابيات وتبين لك مدى ملائمة وعلاقة المدرسة بالمجتمع مما يعطي للباحث أو المؤرخ صورة أكثر مصداقية مما حوته الكتابات التاريخية ذات الطابع الرسمي.

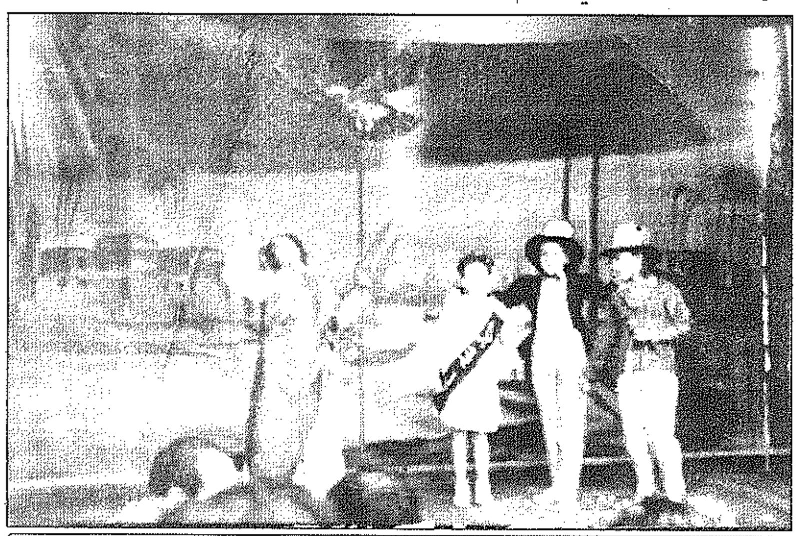


صورة لأحد قصور الملك فؤاد في بلبيس بقرية سندنهور .. به ٣٦٦ غرفة بها ٣٦٦ شرفة ويحيط به حديقة خاصة مساحتها ٢٣ فدانًا - يعاني من العبث والنسيان !!

وهو بالضبط ما تركته لنا قدرية المنياوي ناظرة مدرسة بلبيس الابتدائية عام ١٩٤٨م عن حال تعليم البنت الشرقاوية في بلبيس في سياق تقريرها الذي أعدته عن حال البنت الشرقاوية ومدي تقبلها للتعليم ورفعته إلى منطقة الزقازيق التعليمية في ذلك الوقت - وسوف نقتطع منه بعض الفقرات المطولة التي تصف حال البنت الشرقاوية في بلبيس آنذاك - فتقول: «بجوار الصحراء الممتدة الفسيحة تقع مدينة بلبيس، بين الرمال الصفراء من ناحية، والمزروعات الخضراء من الناحية الأخرى، فهي بين هذه المناظر الطبيعية الخلابة من أشجار ناضرة إلى حدائق مزهرة ومن مزارع مخضرة إلى رمال مصفرة تتيه بجوها الصافي، وسمائها الزرقاء.

نساؤها يتمتعن بقسط لا بأس به من الجمال، وهبته لهن البيئة البدوية الجميلة. وقد وهبت لهن تلك الصحراء الصامتة المنقبضة كثيرًا من الصمت فأغلبهن لا يجارين المرأة الحديثة في الخروج إلى ميدان الحياة الصاخب، وإنما يقبعن في

دارهن لا يفارقنها إلا لحاجة ملحة، وربما يرجع هذا الانقباض أيضًا إلى تأصيل العادات القديمة في نفوسهن، فبلبيس مدينة تاريخية قديمة، مر عليها الفتح الإسلامي على يد عمرو بن العاص، ونزلت بها جالية عربية فتأصلت جذور الدين الإسلامي في نفوس أهلها رجالًا ونساءً. فالنساء – كالرجال أيضًا – متدينات محتشمات يقدسن الحجاب ويصلين ويصمن وينبذن من الجديد ما ينافي شعورهن الديني، وقد أثرت لغة العرب فيهن تأثيرًا يتجلى في نطقهن بالقاف مما هو بمنأى عن اللغة الدارجة التي يتكلم بها أهل مصر في القرى والمدن فيقلن.. قالوا، وقلنا.



فريق التمثيل بمدرسة الزقازيق الابتدائية للبنات بالمنتزه
تتوسطهم البطلة سهير عبد السلام بالزي الأبيض ١٩٥٢م

ولقد أثرت تلك البلدة التجارية في عادات نساء بلبيس، فقد نحت المرأة فيها ناحية الاقتصاد لتوفر لرجلها رأس مال تقوم به تجارته مؤثرة ذلك على ظهورها بمظاهر الترف اللازمة للانخراط في سلك الحياة الاجتماعية الحديثة، فهي بذلك ربة بيت مثالية تشرف على شئون بيتها بنفسها في دأب وصبر راضية بالقليل

حتىٰ لا ترهق الرجل بالمال ولكنها تدبره له.

ويخرج النساء إلىٰ الشارع لضرورة قصوىٰ مبرقعات ببراقع مزينة بالذهب الأصفر اللامع، مرصعة من الوسط والجانبين، ولا يرتدين إلا ما كان حالك السواد حتىٰ لا تلتفت إليها الأنظار، وتشير كمية الذهب التي يرصع بها البرقع الواحد إلىٰ درجة أسرة السيدة التي ترتديه في الثراء.. ولا تبدي النساء شيئًا من زينتهن في الطرقات؛ لأنهن يملن إلىٰ الحشمة والوقار، ولا يخرجن عن العادات الموروثة من قديم الأيام، وغابر الأزمان. ولعل هذا راجع إلىٰ عدم وجود أجنبيات بالمدينة يبذرن بينهن التفريج والميل إلىٰ السفور، والفرار من الحجاب المضروب، والتقليد الموروث، ومع هذا فهن يجتمعن بالمنازل بعيدًا عن أماكن الرجال فيسمرن ويضحكن، ولكنه السمر البريء والضحك المشرق الجميل، فإذا أحسَّن بوقع أقدام رجل كفنن عن الحديث، وامتنعن عن الضحك واللهو، وفررن إلىٰ حيث لا تراهن عين، ولا يبصرهن طرف، فهن حييات خجولات، يسوءهن أن يراهن الرجال في أثناء المرح وتجاذب أطراف الحديث.



بنات الشرقية بين عامي ١٩٢٢-١٩٥٤م

الصورة مهداة من أرشيف مدرسة البنات الثانوية بالزقازيق

وبالرغم من كل ما تقدم فقد ساقهن التيار الجارف نحو تعليم بناتهن بين أمواجه فخرجت البنت إلىٰ المدرسة لتتعلم وتتهذب، وأصبح الأهالي لا يجدون في ذلك حرجًا، وكانت عقيدتهم في مبدأ الأمر أن تترك لتتعلم حتىٰ إذا نما جسمها احتجزها أهلها في المنزل ولو لم تتم مرحلة التعليم الابتدائي إبقاء علىٰ عادة الحجاب التي يحتفظون بها، وميلًا إلىٰ إدماجها في الحياة المنزلية التي تؤهلها لتكون ربة بيت في المستقبل. أما الآن فقد بدأت الأنظار تتطور، وأصبح بعض الآباء والأمهات يميلون إلىٰ أن تواصل البنت التعليم.

وكم كانت دهشتي عندما زارني بعض الأهليين راجين التوسط لدىٰ الجهات المختصة في فتح مدرسة ثانوية حتىٰ يتسنىٰ لبناتهم مواصلة التعليم.

حقًّا، فإن عجلة الزمان تدور والمرأة تشارك الرجل وتنازله في ميدان الحياة، ولابد للمرأة في هذه المدينة أن تسير في موكب تلك الحياة وتساير التقدم إن عاجلًا أو آجلًا، فإقبال التلميذات علىٰ التعليم وسهولة اندماجهن في الحياة الاجتماعية المدرسية التي هي بمثابة صورة مصغرة للمجتمع الكبير لأكبر دليل علىٰ مستقبل حياة المرأة في هذه البلدة المتحفظة.

فالبنات يشغفن بالألعاب الرياضية والاندماج في جمعيات النشاط المدرسي فيلعبن ويتعلمن الرقص التوقيعي وينتجن بأيديهن نماذج عظيمة من أشغال فنية وحياكة وأدوات للزينة وحلوىٰ وما إلىٰ ذلك، مبديات مهارة وبراعة فائقتين ممتزجتين بشعور عميق من اللذة والزهو.

ولست أغالي إذا قلت إن «بنت بلبيس» بما جبلت عليه من خُلق قويم موروث وما يضيفه التعليم عليها من رجاحة في العقل ستكون نواة لأصلح فتاة يشار إليها بالبنان»[١].

---

(١) إصدارات وزارة المعارف العمومية عامي ١٩٤٨م، ١٩٤٩م.

• محلاها بنت الشرقية!



وفي مجلة المدرسة الثانوية للبنات بالزقازيق[١] الصادرة عام ١٩٤٠م تكتب لبيبة المسلمي - ناظرة المدرسة آنذاك - تقريرًا مهمًّا عن حال تعليم البنت في الشرقية عمومًا، وقد أعادت منطقة الزقازيق التعليمية نشره مرة أخرى في إصداراتها عام ١٩٤٩م، جاء في فقرات منه ما يلي[٢]: «منذ عشرين عامًا تقريبًا وبنت الريف المصرية - والشرقية على الأخص - رهينة حجابين في حياتها: حجاب المنزل لا تبرحه وحجاب البرقع لا تسفره، فإذا خرجت من منزلها - ولا تخرج إلا نادرًا ولأمر مهم - كانت كتلة سوداء متحركة ملفوفة في دثار أسود من قمة رأسها إلى أخمص قدمها هو عبارة عن ثوب من الحرير (المكرش الشهير بالشعاري) أو الكتان المصبوغ.

وقد طرحت على رأسها سابريا (شاشًا) أسود من الحرير اللامع الرقيق تحته منديل زاهي اللون مطرز الحوافي يعصب شعرًا فاحمًا طويلًا ظهرت منه إلى الخلف جدائل مضفرة انسابت على ظهرها وقد ربطت أطرافها بشرائط حريرية ملونة قد تتدلى منه حلي ذهبية تعرف (بالصفا).

وقد غطت وجهها بنقاب أسود من جنس الثوب قد ازدان بثلاثة شماريخ من قطع الذهب المستديرة المسماة (بالمجر أو البندق أو الغوازي) عند الغنيات،

---

(١) أمام مديرية أمن الشرقية بشارع سليم شديد أمام مسجد العيداروس بالزقازيق حاليًا.

(٢) مجلة مدرسة الثانوية للبنات ١٩٤٠، ص٤١٤، إصدارات منطقة الزقازيق التعليمية ١٩٤٩، ص٤٠.

أو من النحاس المموه بالذهب عند الفقيرات. تعلوها قصبة غليظة من الذهب تحاذي أرنبة الأنف وتغطيه إلى أسفل الجبين بين الحاجبين تقتعد قطعة من المرجان الأحمر وتوسطت بندقيتين من الذهب الوهاج.. وقد زينت الجبين وموضع اللمتين بحلي ذهبية تسمى (العوايق) على أن هذا النقاب، وإن كان يحجب الوجه كله، إلا أنه ترك مكان الباصرتين مكشوفًا حيث تطل عينان نجلاوان تكحلتا بالسواد الإلهي أو الصناعي ذواتا أجفان وإطفاء جمال ساحر اشتهرت به الريفيات بالشرقية ورثنه عن قدامى المصريين والعرب الوافدين ..

وقد تدلى من جيدها على صدرها قلادة ذات أوشحة وشماخ متعددة من الذهب الخالص أو عقود من العقيق أو المرجان أو الكهرمان الأصفر أو الخرز أو الزجاج الملون.. وتحلي معصماها بأساور ذهبية أو زجاجية وكاحلاها بخلاخيل فضية أو حديدية أو ذهبية وتدلى من شحمة كل أذن قرط كالسوار الذهبي كبير وليس هذا الزي تلبسه كل الريفيات بالشرقية بل هذا كان خاصا بالغنيات منهن، أما الفقيرات فكن سافرات الوجه على عكس ما نراه هذه الأيام، إذا تسابقت الغنيات إلى السفور وبقيت الفقيرات جامدات إلا قليلًا عند الحجاب.



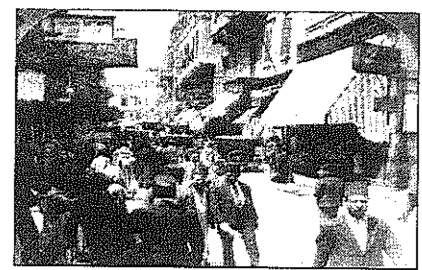
سيدة من الريف الشرقاوي .. يظهر على زيها شغل الملكي بتشكيلاته المختلفة ذات البعد البدوي النابعة من البيئة الشرقاوية
والصورة تعود لعام ١٩٢٠م تقريبًا

وليس هذا الكلام كذلك ينطبق على جميع قرى الشرقية بل إن بعضها كان السفور فيه زيا عاما لنسائه وبعضها كان الحجاب خمارا فضفاضا طويلا عريضا تشد عليه الشرقاوية حزاما من الصوف المجدول وعلى رأسها تطريحة من

القماش الأسود المطرزة حواشيه بخرز أحمر وقطيع معدنية، وهذا هو الزي الغالب عند الأعرابيات.

ولكن لما غزا العلم القرى وداخلتها الحضارة وارتفعت مستوى المعيشة فيها واقتربت القرية من المدينة بطرق المواصلات الحديثة تطلعت الريفية إلى أفق من الحضارة محدود، فقلدت المدنية في بعض أمورها ومنها زيها وملابسها فكشفت عن وجهها بالتدريج وقصرت من ثوبها فحسرته عن ساقيها ونزعت الخلخال.

وصار من يراها لا يشك في أنها الحلقة الأولى البدائية في التحضر والمدنية ستعقبها حلقات وأدوار لا تلبث في نهايتها أن تشابه أختها المدنية، وإن كانت الأخيرة قد تراجعت فأطلت من وثبها وحجبت بعض رأسها وأخذت تدخل في دور من الاحتشام حميد».



شارع البوستة بالزقازيق ١٩٤٠م



شارع الحمام (سكة الحمام) بالزقازيق ١٩٤٠م



عتبة خروج

✍ يمـر الزمـان وتمضي الأيام، وتتعـدد الألوان وتبقي الشرقية بنت مصر المحروسة شامخة عريقة تتلألأ كسبائك الذهب تحت قرص الشمس، تبتسم كالملكة المتوجة علىٰ عرشها فتضفي بهجة علىٰ الحياة، وتطبع علىٰ وجوه أهلها رقة وسماحة وكرم حاتمي، الرحيل بين ثناياها، والبحث في دروب ماضيها متعة تشعل الأشواق إلىٰ الماضي وتذكرنا ببهائها وعظمتها في الأزمنة الخالية ... لتبقىٰ قصة الشرقية ماثلة في الأذهان تضم اليوم تراثًا حضاريًّا فريدًا تمتزج فيه الحضارات المتعاقبة مع المنشآت الحديثة، فيضفي هذا المزيج علىٰ الشرقية تميزًا ورقيًّا نسجته يد التاريخ، لأبرز عواصم مصر القديمة التي تعدىٰ عمرها اليوم آلاف الأعوام، وتستطيع الاستمرار لأكثر من ألف عام.. لأنها بكل المقاييس أرض تستحق الوعي والانتباه ضد المتربصين بنا شرقًا وغربًا.. فهي الأصيلة بخيولها ومائها وعقولها وتراثها. وبالرغم من أنها نبيلة تحتضن جذوري كلها، إلا أنها منسية من أبنائها أبدًا. وقد دفعني سحر تراثها العريق إلىٰ الغور في الأعماق السحيقة لمجتمعها ومحاولة التعرف علىٰ مجتمع كانت عوالمه وحكاياته المدهشة وخصوصياته تزيد من غرائبية الأمر فيثير في داخلي مشاعر خاصة فيها الكثير من التعـلم من سـبر أغوار ذاكرة هذه الأرض الكريمة الطيبة المعطاءة. إن الاهتمام بالوطن والتعرف علىٰ مكنوناته واحترام خصوصياته، أفضل تعبير عن محبتنا له؛ لأن محبة الوطن تعني أولا محبة أناسه والاهتمام بثقافته واحترام تاريخه لأنني مع مبدأ: «الأقربون أولىٰ بالاهتمام»... الوطن مثل أي حبيب.. بالمحبة والمعرفة والاهتمام نحميه من عيون الحساد ومطامع الأشرار.. حب الوطن هو الخطوة الأولىٰ نحو سلامته وخيره.. وهذه هي مهمة الثقافة الوطنية الواقعية القائمة علىٰ محبة الإنسان والوطن وخالقهما الرحيم.. وبالرغم من أن مثقفيها

غرباء عنها وحالمون دائمًا بالخروج منها، فهم سرعان ما يعودون إلى أحضانها الدافئة. فهل كانت الشرقية طفلتي المدللة؟ نعم وافتخر بها كجزء من مصر.. قضائي الذي أعانقه وقدري الذي احتضنه وأين يهرب المريد وشوقه قضاؤه.. وقلبه قدره؟!

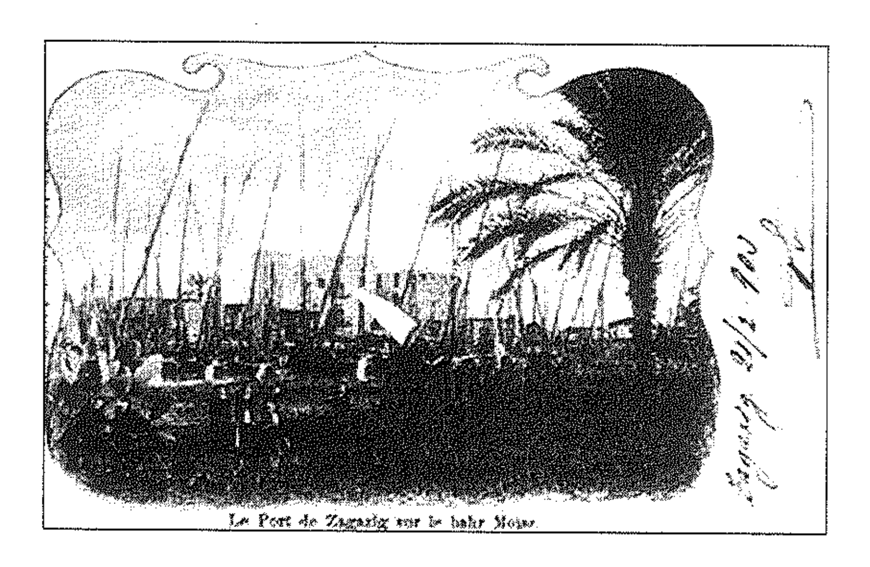
وختامًا..

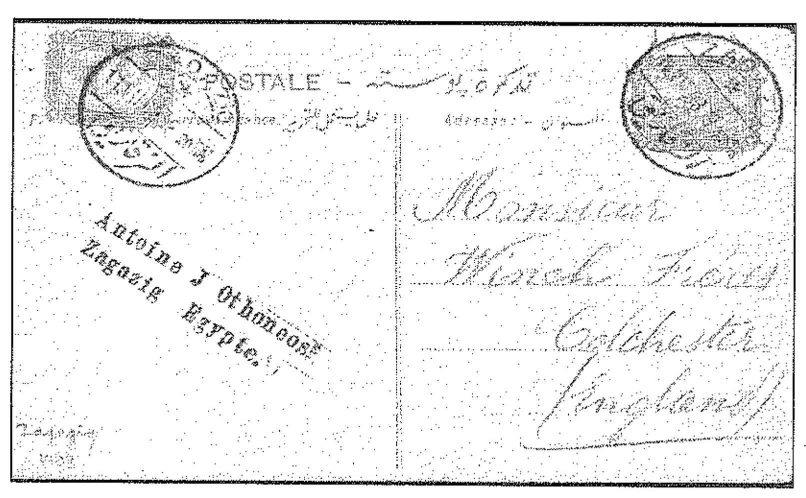
فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد ...

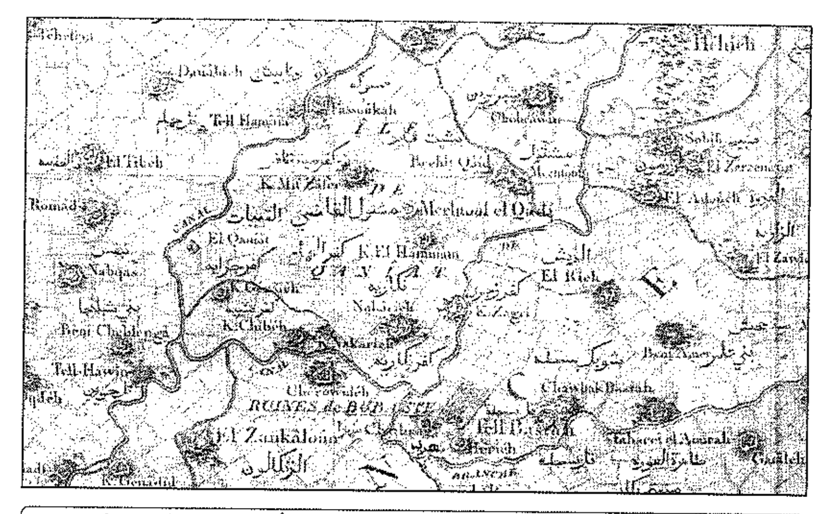
فلنبدأ.



صور ووثائق نادرة







خريطة الزقازيق - الشرقية - خرائط الحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر

12 MA. 1915

Monsieur E. K. Stratis

Zagazig

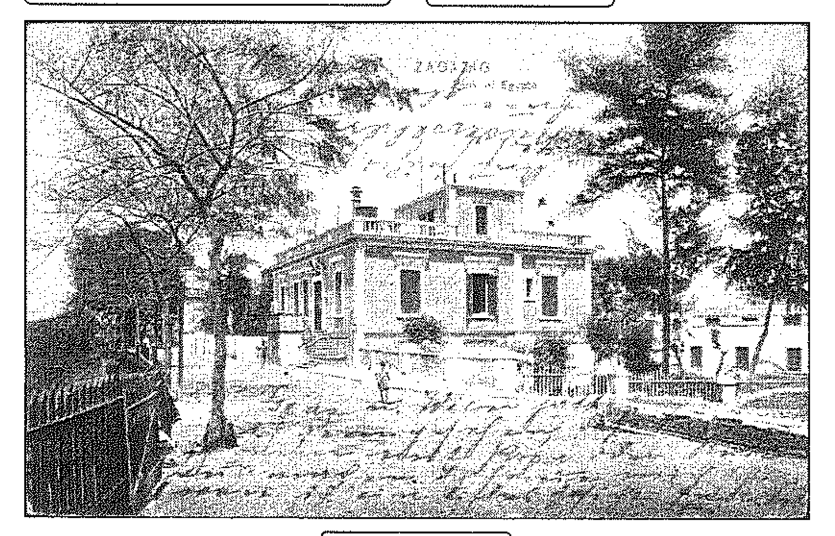
Egypte.





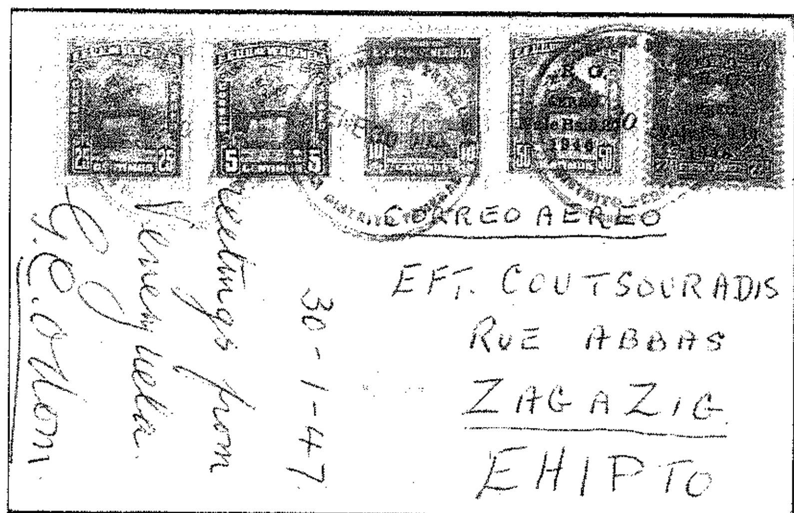

أحد المرضي
بالزقازيق


أحمد بهجت هرجة (حكيم الاسبتالية)
بالزي العربي، وجد المؤلف



بنك مصر بالزقازيق


Société Anonyme Agricole et Industrielle d'Egypte
DIRECTION
COMMANDE

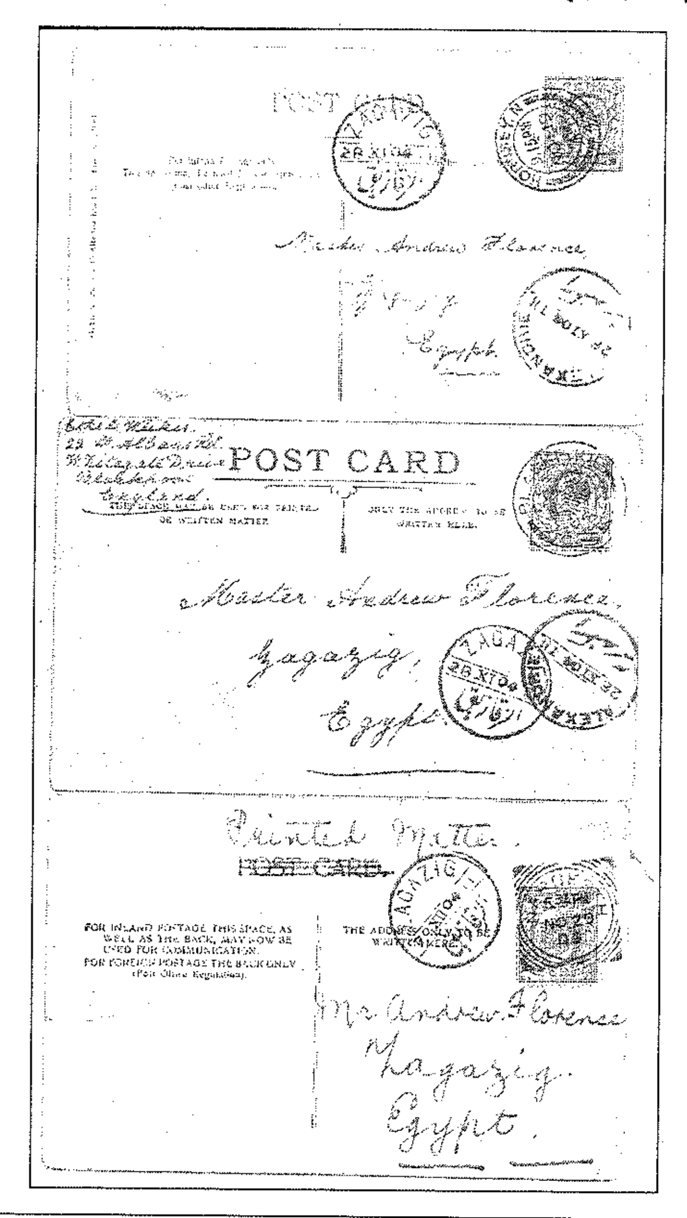

CORREO AEREO
EFT. COUTSOURADIS
RUE ABBAS
ZAGAZIG
EHIPTO
30-1-47

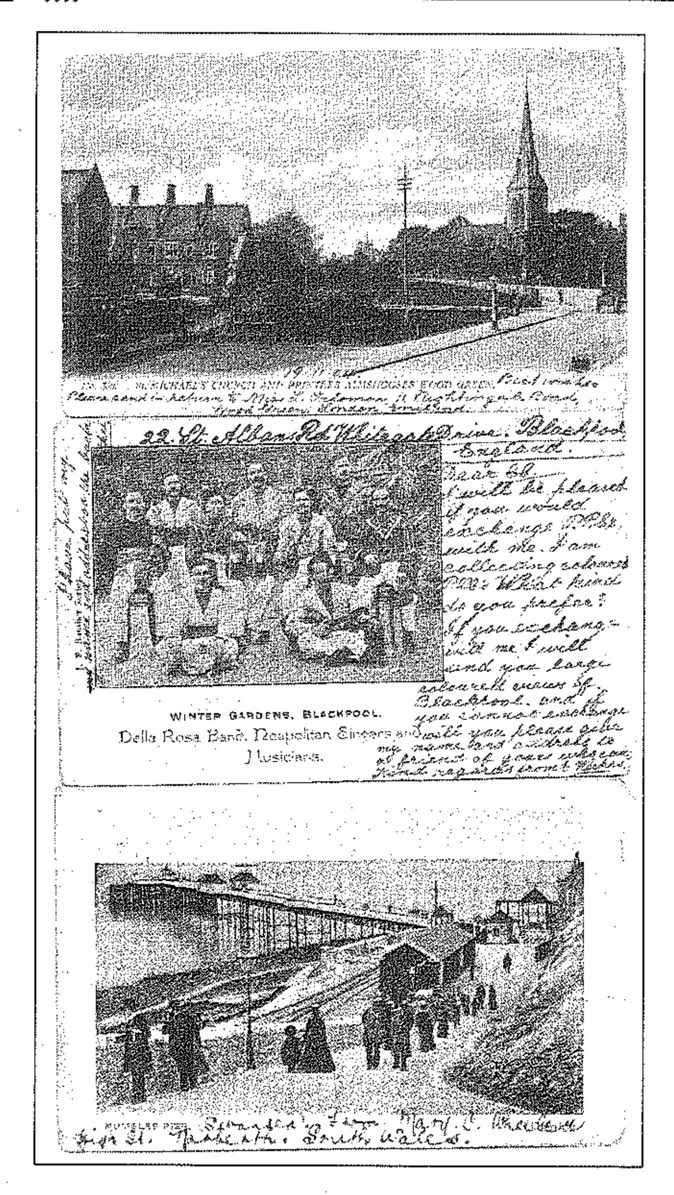
Use label for sealing envelope and writing address.
Tear off label without damaging envelope.

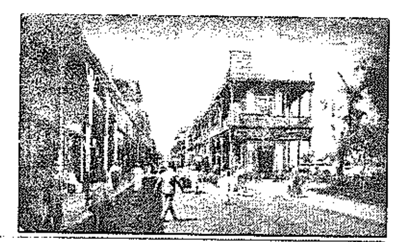
إستعمل هذه الورقة لصق الظرف بعد ما كتب عليها العنوان .
مزق هذه الورقة عند فتح الظرف لا تخرق من اتلافه .

Patent No. 119165/18 ... K & J Eng. 554164

من آثار الجالية اليونانية بالشرقية

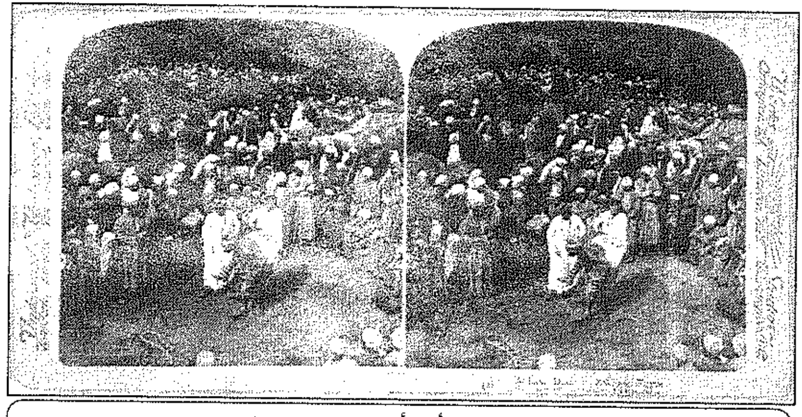

POST CARD
Master Andrew Florence,
Zagazig,
Egypt.
Printed Matter.
POST CARD
FOR INLAND POSTAGE THIS SPACE, AS WELL AS THE BACK, MAY NOW BE USED FOR COMMUNICATION.
FOR FOREIGN POSTAGE THE BACK ONLY (Post Office Regulation).
THE ADDRESS ONLY TO BE WRITTEN HERE.
Mr Andrew Florence
Zagazig.
Egypt.


ST. MICHAEL'S CHURCH AND PRINTERS ALMSHOUSES WOOD GREEN
WINTER GARDENS, BLACKPOOL.
Della Rosa Band, Neapolitan Singers and Musicians.



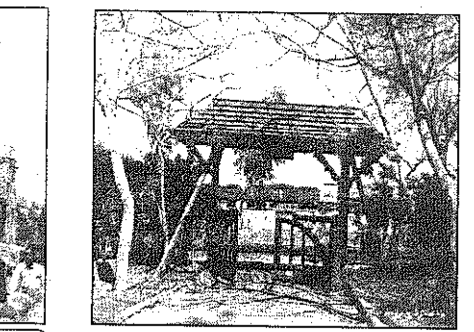


صور نادرة للزقازيق بدايات القرن الـ ١٩

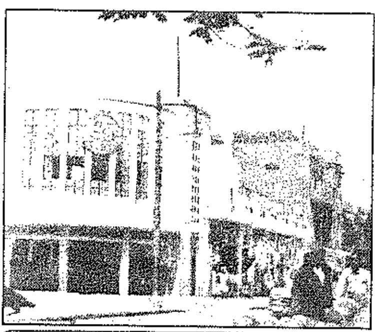


فرقة علي كاكا بأحد أسواق الزقازيق ١٨٩٦م

«علي كاكا» وهو شخصية غريبة تدل على ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية؛ إذ هي شخصية رجل يلبس الحذاء ويلبس في وسطه حزامًا تتدلى منه قطعة على شكل (العضو التناسلي الذكوري) في أضخم أنواعه.



بوابة محطة الزقازيق ١٩٤٥م

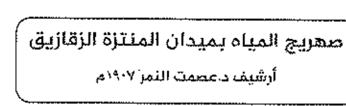


سينما الأندلس في الزقازيق في الأربعينيات والتي تحولت الآن إلى مول تجاري أمام محطة القطارات

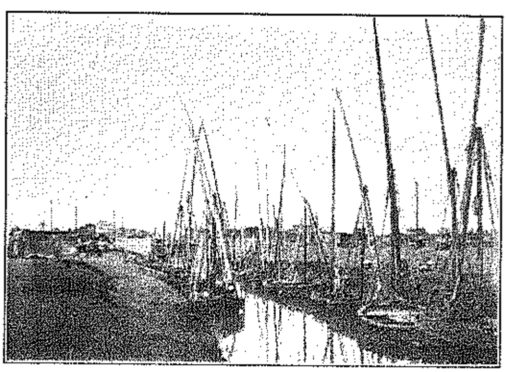


شارع المحافظة المؤدي إلى
جامعه الزقازيق الآن في
أربعينيات القرن العشرين
نحو عام ١٩٤٥م
الصورة نقلاً عن صفحة أهل مصر





صهريج المياه بميدان المنتزة الزقازيق
أرشيف د.عصمت النمر ١٩٠٧م

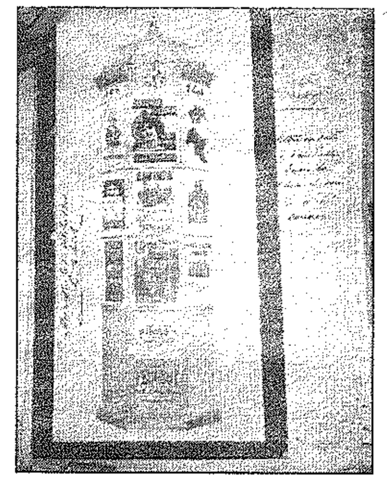


بالقرب من الزقازيق ١٨٦٠م

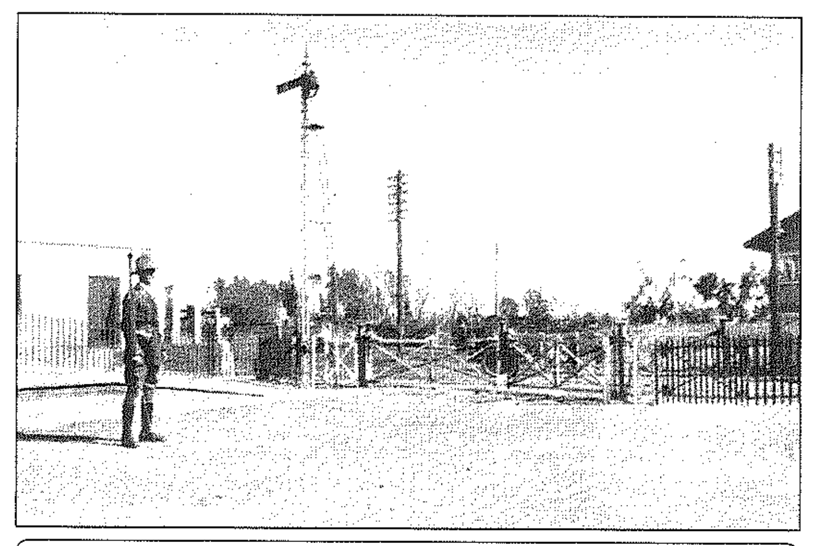


الناس في الشرقية - القرن التاسع عشر





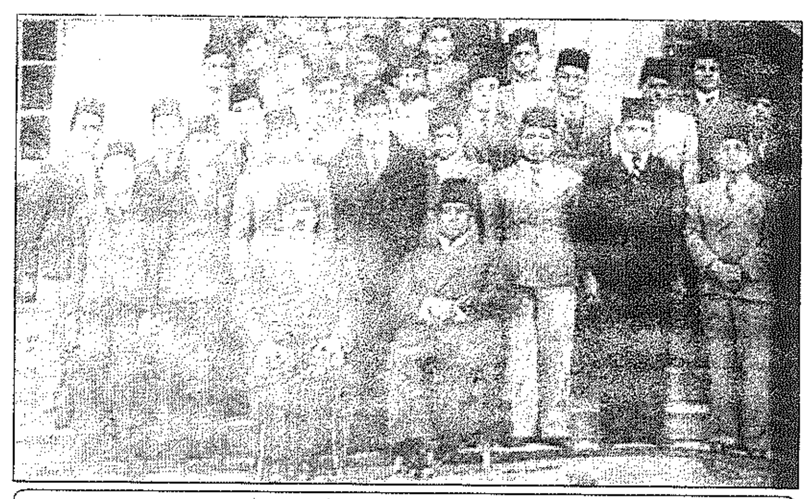
مَن يصدق أن هذا «الماكيت» التحفة هو تصميم «كشك» مرفق بطلب الترخيص كان في الزقازيق والقاهرة عام ١٩٠٣م .. لاحظوا أن الكشك يوجد بأعلاه ساعة ! .. كيف شوهنا كل هذا الجمال؟!



صورة لمزلقان محطة قطار منيا القمح الذي شهد أحداث عاصفة في ثورة ١٩١٩م وسقوط العديد من الشهداء وبلغ عدد قتلى ذلك اليوم نحو ١٥٠ قتيلاً - الصورة ١٩١٨م



استراحة الملك فاروق بأنشاص شهدت الاجتماع الأول بين الملك فاروق وزعماء الدول العربية وقت تأسيس الجامعة العربية لتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية في ١٩٤٦/٥/٢٨م



جماعة التاريخ بالمدرسة الثانوية الأميرية بالزقازيق
يتوسطهم ناظر المدرسة صاحب العزة/ حسن بك جوهر ١٩٣٩م



فريق الهوكي بمدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية
مع ناظر المدرسة صاحب العزة/ حسن بك جوهر ومدرب الفريق الأستاذ/ عزيز حبيب ١٩٣٨م،
بعد إحراز بطولة المدارس الثانوية والخصوصية، وقد نشأت رياضة الهوكي بين جدران المدرسة



صورة لفريق السلة بمدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية ١٩٣٩م، مع ناظر المدرسة ، ومدرب الفريق الأستاذ/ عبد الباسط أفندي جمعة المدرس بالمدرسة، وكابتن الفريق/ محمد عماد الدين جناح أيمن، وشوقي أيوب قلب هجوم الفريق، وعبد القادر أباظة ظهير الفريق، وعزيز حسن يوسف جناح أيسر، والرافعي حارس الفريق

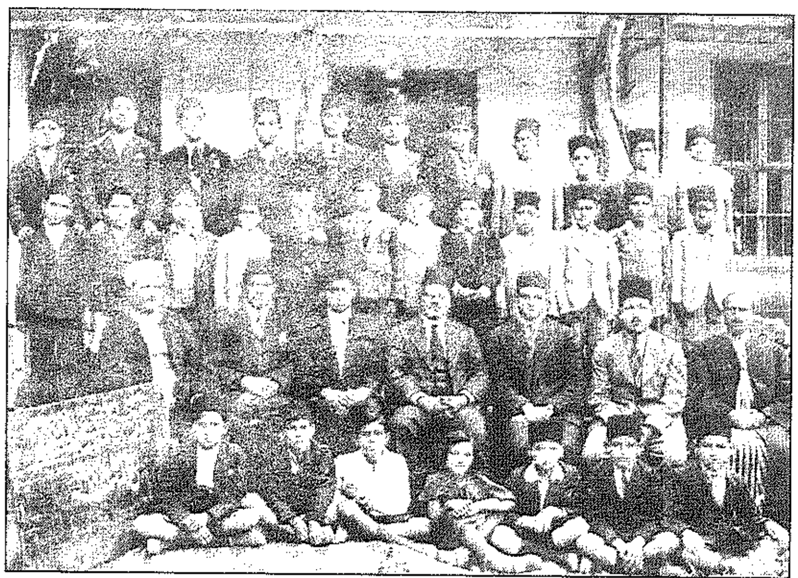


جماعة التصوير الشمسي بمدرسة الزقازيق الثانوية

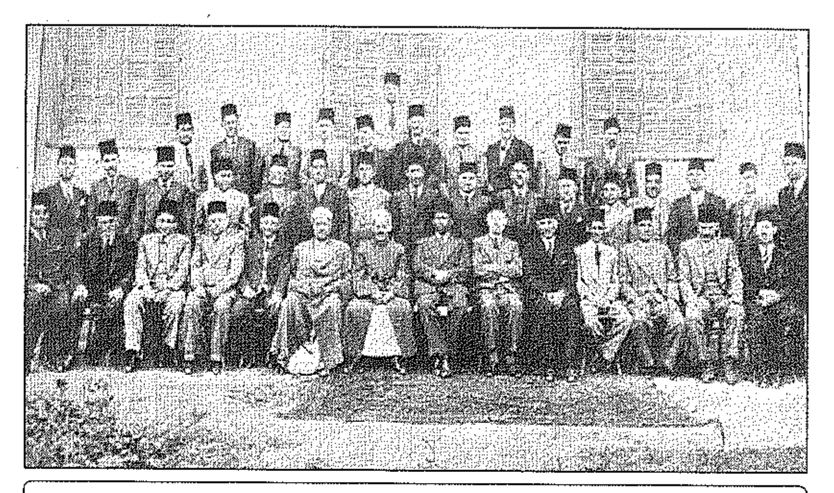
يتوسطهم ناظر المدرسة صاحب العزة/ حسن بك جوهر ، ومؤسس الجماعة الأستاذ/ نصحي روفائيل مدرس العلوم بالمدرسة، ويتقدمهم الطالبان/ إسماعيل محمد محمود رئيس الجمعية، وأمين الصندوق الطالب زغلول رضوان فهمي ١٩٣٩م



حضرة صاحب العزة/ حسن محمد جوهر بك - ناظر المدرسة الثانوية الأميرية ١٩٣٩م



صورة آخر السنة لثالثة ابتدائي بفرع مدرسة المساعي المشكورة بالزقازيق سنة ١٩٣٤م
تأسست الجمعية سنة ١٨٩٣م بهدف إتاحة التعليم المجاني للمحتاجين

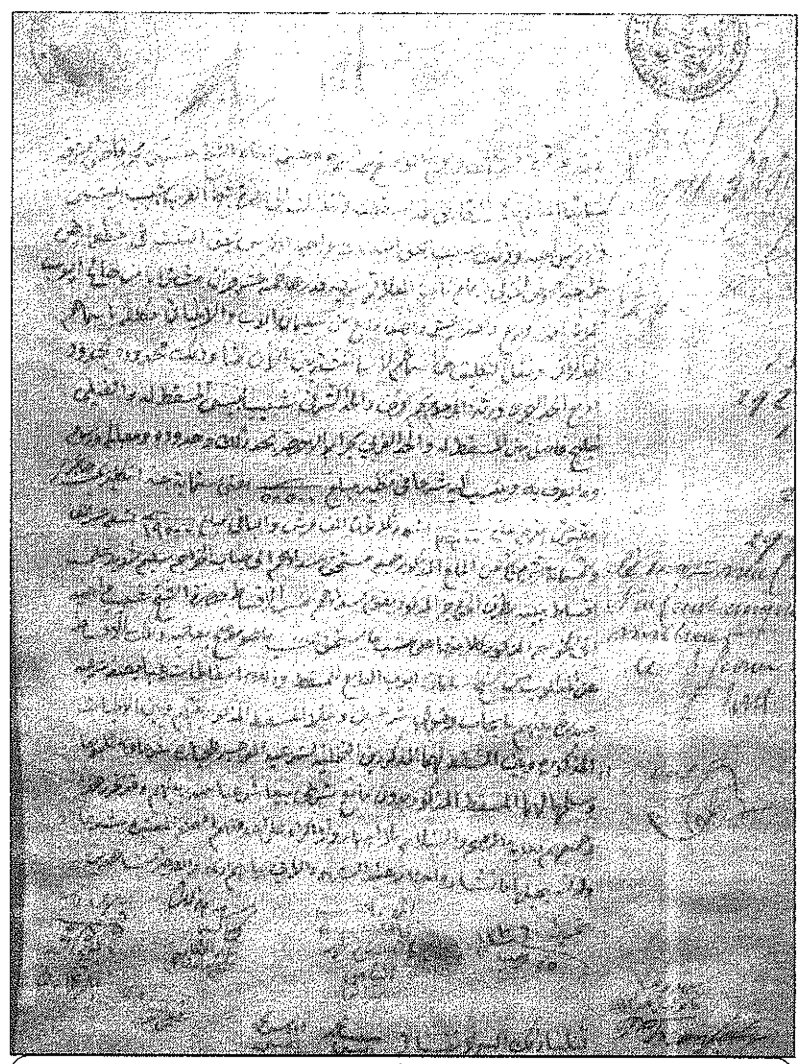


هيئة تدريس مدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية ١٩٣٩م

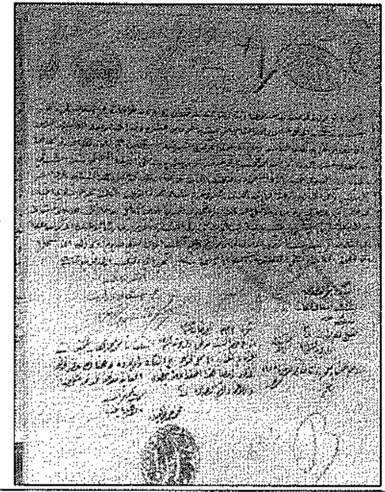


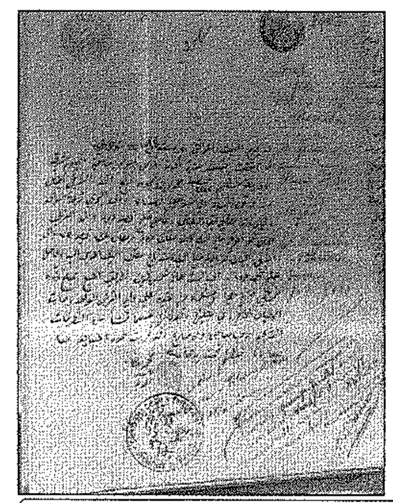
عبد الله أفندي الإدلبي

الأصم الذي أسمعنا عجبًا. ولد في إنجلترا من أب سوري وأم أيرلندية عام ١٨٧١م .. أنشأ بالزقازيق مدرسة متخصصة في تعليم الصم والبكم والمكفوفين بمشاركة أحد أصدقائه وهو باريز أفندي يوسف متري وظهر المشروع إلى النور عام ١٩٠٤م - والتحق بالمدرسة عدد معقول من الطلاب من الذكور والإناث الذين تلقوا تعليمًا راقيًا يضاهي التعليم الأوربي لكن المشروع تراجع مع مرور الوقت بسبب قلة الموارد فتضاءل نشاط المدرسة تدريجيًا حتى توقفت تمامًا وإن كان وقفها لم يمنع الإدلبي من أن يهب بقية عمره للدفاع عن أصحاب الاحتياجات الخاصة ومحاولة تحقيق مكاسب لهم حتى وفاته عام ١٩٤٣م.



من أرشيف مديرية الشرقية الذي يضم نحو ألف وثيقة متنوعة عقد بيع ١٥ فدانا بقرية العلاقمة من الشيخ حسنين محمد قاضي المديرية السابق إلى مشايخ العرب شبيب وإدريس بيشي بسعر إجمالي قدره ٥٨٥ جنيها (بواقع أقل من أربعين جنيهًا للفدان الواحد عام 1310هـ/1882م) - (مقتنيات موفق بيومي).



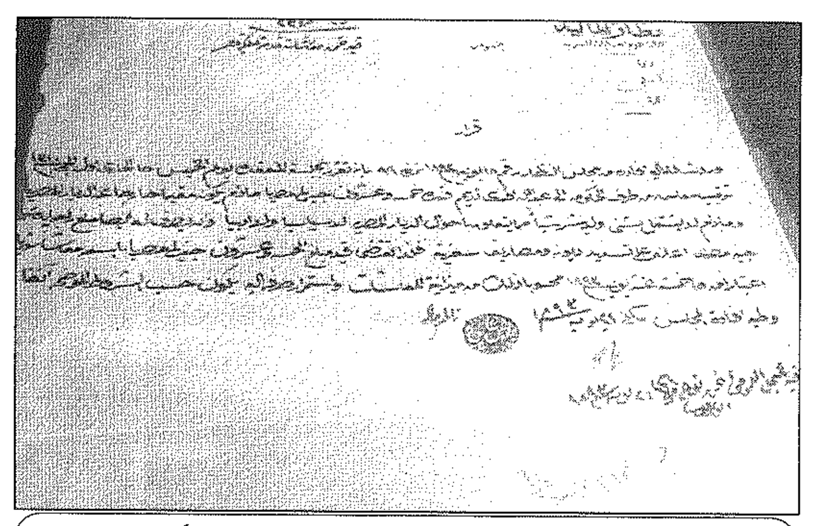


عقود بيع وشراء الأراضي للخواجات في الشرقية بين عامي ١٨٩٧م ، ١٩٠٧م

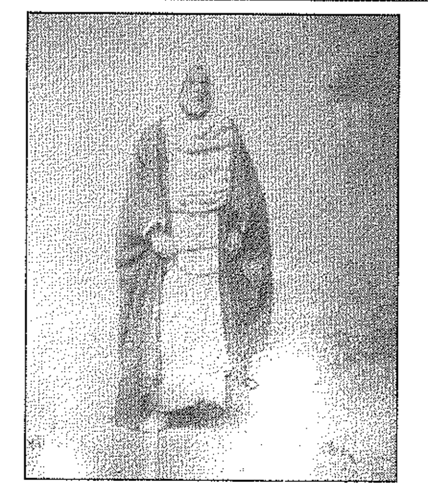


شكوى ملتهبة من (عمد وأهالي قرية قمرونة) إلى (عدالة جلالة نظارة الداخلية) عام ١٨٨٠م.. المحتوي تضرر الشاكين من محمد أفندي عبد الله شيخ ناحية الصنافين لمحاولته ضم ناحية بلدهم إلى تبعيته وتنصيب نفسه عمدة عليها (من أرشيف الكاتب موفق بيومي).

عام ١٨٨٣م .. أحمد أفندي أباظة - من منيا القمح - كان من الممنوعين من التواجد بأي جهة ليس له بها زراعات، ويبدو أن الأمر كان متعلقًا بمشاركته في (هوجة عرابي) .. الوثيقة رد هائج من مدير الشرقية موجه إلى ناظر الداخلية يدافع فيه بشراسة عن ضرورة تقييد حركة الأفندي المذكور.



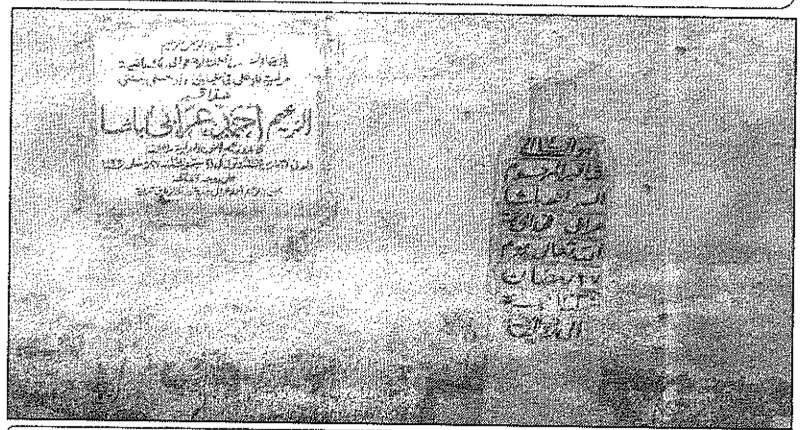
في يونيو ١٨٩٣م اعتمدت الحكومة المصرية مبلغ ٢٥ جنيهًا معاشًا شهريًا لخطيب الحركة العرابية الشرقاوي عبد الله أفندي نديم، وذلك بخلاف ٤٠٠ جنيه كمبلغ قطعي إعانة على تسديد ديونه، المقابل فهو - وبنص الوثيقة التي تحمل في نهايتها خاتم بطرس باشا غالي وقت أن كان ناظرًا للمالية - «ما دام يكون مقيمًا خارجًا عن الديار المصرية وما دام لا يشتغل بشيء ولا ينشر شيئًا مما يتعلق بأحوال الديار المصرية لا سياسيًا ولا أدبيا».



الشيخ إبراهيم محمد فرج حمد طراد توفي سنة 1910م وكان شيخ فخد أفراد الهنادي وتم تعيينه شيخ للأفراد مكافئة له بعد عودتهم من حرب الشام والسودان مع إبراهيم باشا تواجدهم بقرية تيمور العلاقمة ههيا شرقية



عرابي باشا بين أصغر أنجاله عبد القادر عرابي، وبين حفيدته فردوس .. وقد ظهر إلى يساره كل من: حفيدته فتحية، وحفيده عرابي محمد، ثم نجله المرحوم محمود عرابي .. وظهر إلى يمينه اثنان من أصدقائه الأجانب .. وقد التقطت له هذه الصورة في عمارة البابلي بشارع خيرت بالقاهرة



صورة لقبر الزعيم أحمد عرابي باشا في مدافن الإمام الشافعي بالقاهرة (أرشيف د. حامد محمد)



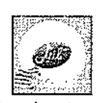
فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة



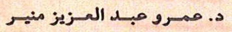




مركز نهر النيل للنشر والتوزيع
ج.م.ع - الزقازيق - ص.ب 85
موبايل وواتس أب: 002/01065449272
أرضي: 002/0552386969
e.mail: nhrelnile@yahoo.com
مركز نهر النيل للنشر: Facebook

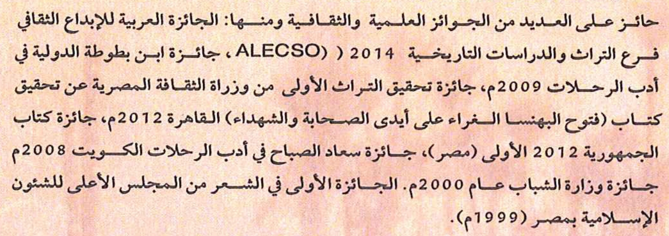
في هذا الكتاب استعيد همسات الماضي الدافئة، استمع إلى صدى صوت حكايات مدهشة وعجيبة ، ممتعة ومذهلة من تاريخ الشرقية العريق، وأُسلط فيها الضوء على مواقف وأحداث أغلبها غير معروف ، تُزود عقل من يقرأها بكل الدلالات الشاهدة على وجه الشرقية الذي يضحك وينزف ، وعلى القامة التي لا تنحنى برغم مطارق الزمن ووحشية الغزاة.

حكايات كالشعب : كريمة ، وسخية، حنونة وقاسية ، رقيقة ، وعنيفة ، ومواقف تتغنى بذكريات ماض عظيم ، وتستخلص منه قانون التطور الذي لا مفر منه الشعب لا يُهزم ولا يفنى يا له من عالم فريد توارى بين طيات الزمن .



د. عمرو عبد العزيز منير

كاتب وأكاديمي متخصص في العلاقة بين التاريخ والفولكلور. أستاذ مشارك التاريخ الوسيط، عضو اتحاد كُتاب مصر - عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - عضو جمعية اتحاد المؤرخين العرب - عضو هيئة المخطوطات الإسلامية بكامبردج لندن(TIMA) عضو الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية.



حائز على العديد من الجوائز العلمية والثقافية ومنها: الجائزة العربية للإبداع الثقافي فرع التراث والدراسات التاريخية 2014 ((ALECSO ، جائزة ابن بطوطة الدولية في أدب الرحلات 2009م، جائزة تحقيق التراث الأولى من وزراة الثقافة المصرية عن تحقيق كتاب (فتوح البهنسا الغراء على أيدى الصحابة والشهداء) القاهرة 2012م، جائزة كتاب الجمهورية 2012 الأولى (مصر)، جائزة سعاد الصباح في أدب الرحلات الكويت 2008م جائزة وزارة الشباب عام 2000م. الجائزة الأولى في الشعر من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر (1999م).

من أهم مؤلفاته .

كتاب "الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين" 2008م ، "مصر والعمران بين الرحلة والأسطورة) 2009م ،" مصر في الأساطير العربية 2015م ،(القدس في الأساطير العربية) 2015م . الشرقية بين التاريخ والفولكلور 2005م، تحقيق كتاب " طيف الخيال لابن دانيال الموصلي 2010م ، أهل الحيل والألعاب السحرية عصري الأيوبيين والمماليك 2019م رحلة الحاج محمد البشير بن أبي بكر البُرْتُلِّي الولاتي إلى الحرمين الشريفين 2019م.





ISBN 978-977-6282-93-3





د. عمرو عبد العزيز منير — الشرقية — مركز نهر النيل للنشر والتوزيع

Village arabe.

Mme Cath. M. Sigalla à Zagazig d'Egypte dés. échange cartes illustrées avec vous. 4/10/1902

336 Lichtenstern & Harari, Commissions-Agents, Cairo.